مناع القطان

مباحث في علوم القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

مناع القطان

مباحث
في علوم القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السابعة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه ، وبعد . .

فهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ « مباحث فى علوم القرآن » كانت طبعته الأولى استجابة لرغبة بعض إخواننا فى تقديم أبحاث مختصرة عن أهم مباحث علوم القرآن ، يستطيع شبابنا المسلم الذى لا يتيسر له التعمق فى الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مئونة البحث فى مراجع هذا العلم ويجنبه عناء فهم أساليبها ، وقد حظى الكتاب - على اختصاره - فى تلك الطبعة برواج لم أكن أتوقعه ، ونفد من المكتبات .

ثم أحسست بالحاجة الملحة إلى طبعه مرة ثانية ، فراجعته ، وتوافرت لدىّ الدواعى لتوضيح بعض فصوله ، وزيادة موضوعات أخرى ، فخرجت الطبعة الثانية أوفى بحثًا ، وأكثر تنقيحًا ، واحتوت على خلاصة ما كُتِبَ فى هذا الفن قديمًا وحديثًا من غير حشو ولا تطويل ، ولم يمض عليها سوى عام واحد حتى نفد الكتاب كذلك .

ثم تتابع الطلب على الكتاب من روَّاد الثقافة الإسلامية ، ومن الجهات التعليمية المختلفة التى تعنى بهذا العلم ، فلم أجد بدا من إخراجه فى طبعته السابعة مزيدًا منقحًا ، وإن كانت الزيادة هذه المرة أقل من سابقتها ، وأسأل الله تعالى أن يجعله نافعًا مفيدًا ، وأن يرزقنا التوفيق والسداد .

مناع خليل القطان

الأستاذ والمشرف على الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* * *

- ١ -

التعريف بالعلم
وبيان نشأته وتطوره

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التى لا يزيدها التقدم العلمى إلا رسوخًا فى الإعجاز ، أنزله الله على رسولنا محمد ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته - وهم عرب خُلَّص - فيفهمونه بسليقتهم ، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا رسول الله ﷺ عنها .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ ولَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (١) شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) ، إنما هو الشرك » .

وكان رسول الله ﷺ يُفَسِّر لهم بعض الآيات .

أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٣) ألا إن القوة الرمى » .

وحرص الصحابة على تلقى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ وحفظه وفهمه ، وكان ذلك شرفًا لهم .

عن أنس رضى الله عنه قال : « كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا » أى عَظُم .

وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه .

---

(١) الأنعام : ٨٢ (٢) لقمان : ١٣ (٣) الأنفال : ٦٠

رُوِىَ عن أبى عبد الرحمن السلمى ، أنه قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا » [١] .

ولم يأذن لهم رسول الله ﷺ فى كتابة شىء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره .

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عنى ومَن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدِّثوا عنى ولا حَرَج ، ومن كَذَب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » .

ولئن كان رسول الله ﷺ قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك فى كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين فى عهد رسول الله ﷺ ، وفى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

جاءت خلافة عثمان [٢] رضى الله عنه ، واقتضت الدواعى - التى سنذكرها فيما بعد [٣] - إلى جمع المسلمين على مصحف واحد ، فتم ذلك ، وسُمِىَ بالمصحف الإمام ، وأُرسلت نسخ منه إلى الأمصار ، وسُمِيَت كتابته بالرسم العثمانى ، نسبة إليه ، ويُعتبر هذا بداية لعلم « رسم القرآن » .

ثم كانت خلافة علىّ رضى الله عنه ، فوضع أبو الأسود الدؤلى بأمر منه قواعد النحو ، صيانة لسلامة النطق ، وضبطًا للقرآن الكريم ، ويعتبر هذا كذلك بداية لـ «علم إعراب القرآن » .

---

(١) أخرج عبد الرزاق ما فى معناه ، عن معمر ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، وأخرجه ابن جرير فى مقدمة تفسيره عن عطاء ، عن أبى عبد الرحمن وصحَّحه أحمد شاكر ، فإن أبا عبد الرحمن السلمى تابعى لا يُحَدِّث إلا عن الصحابة .

(٢) لقد جُمِعَ القرآن أول جمع فى عهد الخليفة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بعد معركة اليمامة كما سيأتى .

(٣) انظر بحث جمع القرآن فى عهد عثمان .

استمر الصحابة يتناقلون معانى القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم ، لتفاوت قدرتهم على الفهم ، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله ﷺ ، وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين .

ومن أشهر المفسرين من الصحابة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير .

وقد كثرت الرواية فى التفسير عن : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبَىّ بن كعب ، وما رُوِىَ عنهم لا يتضمن تفسيرًا كاملاً للقرآن ، وإنما يقتصر على معانى بعض الآيات ، بتفسير غامضها ، وتوضيح مجملها .

أما التابعون ، فاشتهر منهم جماعة ، أخذوا عن الصحابة ، واجتهدوا فى تفسير بعض الآيات .

فاشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليمانى ، وعطاء بن أبى رباح .

واشتهر من تلاميذ أُبَىّ بن كعب بالمدينة : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد ابن كعب القرظى .

واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق : علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى.

قال ابن تيمية : « وأما التفسير ، فأعلم الناس به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس ، كطاوس ، وأبى الشعثاء ، وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير ، مثل : زيد بن أسلم الذى أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذ عنه أيضًا ابنه عبد الرحمن ، وعبد الله بن وهب »(١) .

---

(١) « مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير » (ص١٥) .

والذى رُوِىَ عَن هؤلاء جميعًا يتناول : علم التفسير ، وعلم غريب القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم المكى والمدنى ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولكن هذا كله ظل معتمدًا على الرواية بالتلقين .

جاء عصر التدوين فى القرن الثانى ، وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة ،وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير ، وجمع بعض العلماء ما رُوِىَ من تفسير للقرآن الكريم عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة ، أو عن التابعين .

واشتهر منهم : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشُعْبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ، ووكيع بن الجرَّاح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عُيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وعبد الرزاق بن همَّام المتوفى سنة ٢١١ هجرية .

وهؤلاء جميعًا كانوا من أئمة الحديث . فكان جمعهم للتفسير جمعًا لباب من أبوابه ، ولم يصلنا من تفاسيرهم شىء مكتوب سوى مخطوطة تفسير عبد الرزاق ابن همام .

ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيرًا متكاملاً للقرآن وفق ترتيب آياته ، واشتهر منهم ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية .

وهكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقى والرواية ، ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث ، ثم دُوِّن على استقلال وانفراد ، وتتابع التفسير بالمأثور، ثم التفسير بالرأى .

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعى فى موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغنى المفسر عنها .

فألَّف علىّ بن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤ هجرية فى أسباب النزول.

وألَّف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية فى الناسخ والمنسوخ ، وفى القراءات .

وألَّف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية فى مُشْكَل القرآن .

وهؤلاء من علماء القرن الثالث الهجرى .

وألَّف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية : « الحاوى فى علوم القرآن » .

وَأَلَّف أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية فى « علوم القرآن » .

وألَّف أبو بكر السجستانى المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية فى « غريب القرآن » .

وألَّف محمد بن علىّ الأدفوى المتوفى سنة ٣٨٨ هجرية « الاستغناء فى علوم القرآن » .

وهؤلاء من علماء القرن الرابع الهجرى .

ثم تتابع التأليف بعد ذلك .

فألَّف أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هجرية فى « إعجاز القرآن » . وعلىّ ابن إبراهيم بن سعيد الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية فى « إعراب القرآن » .

والماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هجرية فى « أمثال القرآن » .

والعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية فى « مجاز القرآن » .

وعلم الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية فى « علم القراءات » .

وابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هجرية فى « أقسام القرآن » .

وهذه المؤلَّفات يتناول كل مؤلف منها نوعًا من علوم القرآن وبحثًا من مباحثه المتصلة به .

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع - كلها أو جلها - فى مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » (١) أنه ظفر فى دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط لعلىّ بن إبرهيم بن سعيد الشهير بالحوفى ، اسمه « البرهان فى علوم القرآن » ، يقع فى ثلاثين مجلدًا ، يوجد منها خمسة عشر مجلدًا غير مرتبة ولا متعاقبة ، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشتمل عليه من علوم القرآن ، مفردًا كل نوع

(١) انظر (١/٢٧) ، وما بعدها ، ط . الحلبى .

بعنوان ، فيجعل العنوان العام فى الآية : « القول فى قوله عز وجل . . . » ويذكر الآية ، ثم يضع تحت هذا العنوان : « القول فى الإعراب » ، ويتحدث عن الآية من الناحية النحوية واللُّغوية ، ثم « القول فى المعنى والتفسير » ويشرح الآية بالمأثور والمعقول ، ثم « القول فى الوقف والتمام » ويبين ما يجوز من الوقف وما لا يجوز، وقد يُفْرِد القراءات بعنوان مستقل فيقول : « القول فى القراءة » ، وقد يتكلم عن الأحكام التى تؤخذ من الآية عند عرضها .

والحوفى بهذا النهج يعتبر أول من دَوَّن علوم القرآن ، وإن كان تدوينه على النمط الخاص الآنف الذكر ، وهو المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

ثم تبعه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية فى كتابه « فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن » (١) .

ثم جاء بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية وألَّف كتابًا وافيًا سمَّاه : «البرهان فى علوم القرآن » (٢) .

ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٢٤ هجرية فى كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » .

ثم ألَّف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتابه المشهور « الإتقان فى علوم القرآن » .

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف فى عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى ، فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامى اتجاهًا سديدًا فى معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، مثل كتاب « إعجاز القرآن » لمصطفى صادق الرافعى ، وكتابى « التصوير الفنى فى القرآن » ، و« مشاهد القيامة فى القرآن » للشهيد سيد قطب ، و« ترجمة القرآن » للشيخ محمد مصطفى المراغى ، وبحث فيها لمحب الدين الخطيب ، و« مسألة ترجمة القرآن » لمصطفى صبرى ، و« النبأ

---

(١) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة فى المكتبة التيمورية .

(٢) نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فى أربعة أجزاء .

العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ، ومقدمة تفسير « محاسن التأويل » لمحمد جمال الدين القاسمى .

وألَّف الشيخ طاهر الجزائرى كتابًا سمَّاه « التبيان فى علوم القرآن » .

وألَّف الشيخ محمد على سلامة كتابه : « منهج الفرقان فى علوم القرآن » ، تناول فيه المباحث المقررة بكلية أصول الدين بمصر تخصص الدعوة والإرشاد .

وتلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فألَّف كتابه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » .

ثم الشيخ أحمد أحمد علىّ فى « مذكرة علوم القرآن » التى ألقاها على طلابه بالكلية ، قسم إجازة الدعوة والإرشاد .

وصدر أخيرًا : « مباحث فى علوم القرآن » للدكتور صبحى الصالح .

وللأستاذ أحمد محمد جمال أبحاث « على مائدة القرآن » .

هذه المباحث جميعها هى التى تُعرف بعلوم القرآن ، حتى صارت عَلَمًا على العلم المعروف بهذا الاسم .

والعلوم : جمع علم ، والعلم : الفهم والإدراك ، ثم نُقِلَ بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطًا علميا .

والمراد بعلوم القرآن : العلم الذى يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول ، وجمع القرآن وترتيبه ، ومعرفة المكى والمدنى ، والناسخ والمنسوخ ، والمُحْكَم والمتشابه ، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن .

وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير ، لأنه يتناول المباحث التى لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها فى تفسير القرآن (١) .

* * *

---

(١) اكتفينا بهذا العرض التاريخى مع التعريف الإجمالى عن البحث فى لفظ : « علوم القرآن » باعتباره مركبًا إضافيًا ، وباعتباره عَلَمًا على هذا الفن .

- ٢ -

القــرآن

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه فى الحياة يستهدى بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة ، تقوده إلى الخير ، وترشده إلى البر فحسب ، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولاً يحمل من الله كتابًا يدعوه إلى عبادة الله وحده ، ويبشر وينذر ، لتقوم عليه الحجة : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) .

وظلت الإنسانية - فى تطورها ورقيها الفكرى - والوحى يعاودها بما يناسبها ويحل مشاكلها الوقتية فى نطاق قوم كل رسول ، حتى اكتمل نضجها ، وأراد الله لرسالة محمد ﷺ أن تُشرق على الوجود ، فبعثه على فَتْرَةٍ من الرسل . ليُكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة ، وكتابه المنزَّل عليه ، وهو القرآن الكريم . . . « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون منه ، ويقولون : لولا هذه اللَّبِنَة ، فأنا اللَّبِنَة ، وأنا خاتَم النبيين » (٢) .

فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة ، وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك فى الكتاب والسُّنَّة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٣) . . ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٤) ، « وكان كل نبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعِثتُ إلى الناس كافة » (٥) ، ولن يأتى بعده رسالة

---

(١) النساء : ١٦٥ — (٢) متفق عليه .

(٣) الأعراف : ١٥٨ — (٤) الفرقان : ١

(٥) فى « الصحيحين » من حديث : « أُعطيت خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلى » .

أخرى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾(١) .

فلا غرو من أن يأتى القرآن وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٢) . .

وتحدى رسول الله ﷺ العرب بالقرآن ، وقد نزل بلسانهم ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فثبت له الإعجاز ، وبإعجازه ثبتت الرسالة .

وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل ، فمن أوصاف جبريل الذى نزل به : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ (٣) ، ومن أوصافه وأوصاف المنزل عليه: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾(٥) .

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦) .

وتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُواْ ، فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِىَ اللهِ وَآمِنُواْ بِهِ ﴾ (٧) .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ — (٢) الشورى : ١٣ — (٣) الشعراء : ١٩٣
(٤) التكوير : ١٩ - ٢٤ — (٥) الواقعة : ٧٧ - ٧٩ — (٦) الحجر : ٩
(٧) الأحقاف : ٢٩ - ٣١

والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية فى شتَّى مرافق الحياة ، الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجًا حكيمًا ، لأنه تنزيل الحكيم الحميد ، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافى فى أُسس عامة ، تترسم الإنسانية خُطاها ، وتبنى عليها فى كل عصر ما يلائمها ، فاكتسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان ، فهو دين الخلود ، وما أروع ما قاله داعية الإسلام فى القرن الرابع عشر : « الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعًا ، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة ، وهو خُلُق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنَى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة ، وعبادة صحيحة سواء بسواء » (١) .

والإنسانية المعذَّبة اليوم فى ضميرها ، المضطربة فى أنظمتها ، المتداعية فى أخلاقها ، لا عاصم لها من الهاوية التى تتردى فيها إلا القرآن : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٢) .

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى ، فحرى بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف ، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم ، حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام ، وكما كانت لهم الدولة بالقرآن فى الماضى ، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به فى الحاضر .

* * *

تعريف القرآن

« قرأ » : تأتى بمعنى الجمع والضم ، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل ، والقرآن فى الأصل كالقراءة : مصدر قرأ قراءة وقرآناً . قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٣) . أى قراءته ،

---

(١) من رسالة « التعاليم » : للإمام الشهيد حسن البنا .

(٢) طه : ١٢٣ - ١٢٤

(٣) القيامة : ١٧ - ١٨

فهو مصدر على وزن « فُعلان » بالضم : كالغفران والشكران ، تقول : قرأته قرءاً وقراءة وقرآناً ، بمعنى واحد ، سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر .

وقد خُصَّ القرآن بالكتاب المنزَّل على محمد ﷺ فصار له كالعَلَم الشخصى .

ويُطلق بالاشتراك اللَّفظى على مجموع القرآن ، وعلى كل آية من آياته ، فإذا سمعت مَن يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ (١) . .

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣) . .

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل فى الاشتقاق ، إما لأنه وُضِعَ عَلَمًا مرتجلاً على الكلام المنزَّل على النبى ﷺ وليس مشتقاً من « قرأ » ، وإما لأنه من قرن الشىء بالشىء إذا ضمَّه إليه ، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضاً فالنون أصلية - وهذا رأى مرجوح ، والصواب الأول .

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا ، والحد الحقيقى له هو استحضاره معهودًا فى الذهن أو مُشَاهَدًا بالحس كأن تشير إليه مكتوبًا فى المصحف أو مقروءاً باللِّسان فتقول : هو ما بين هاتين الدفتين ، أو تقول : هو من ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ... إلى قوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(٥) .

---

(١) الأعراف : ٢٠٤ (٢) النحل : ٨٩

(٣) سياق الآية يدل على أن المراد بالكتاب هنا اللَّوح المحفوظ ، ولكن القرآن ثبت فى اللَّوح المحفوظ - (والآية من سورة الأنعام : ٣٨) .

(٤) الفاتحة : ١ - ٢ (٥) الناس : ٦

ويذكر العلماء تعريفاً له يُقَرِّب معناه ويميزه عن غيره ، فيُعَرِّفونه بأنه : « كلام الله، المنزّل على محمد ﷺ ، المُتَعَبَّد بتلاوته » . فـ « الكلام » جنس في التعريف ، يشمل كل كلام ، وإضافته إلى « الله » يُخْرِج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

و« المنزّل » يخرج كلام الله الذى استأثر به سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مدَادًا لكَلمَات ربِّى لَنَفدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمثْله مَدَدًا ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ منْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفدَتْ كَلمَاتُ الله ﴾ (٢) .

وتقييد المنزَّل بكونه على : محمد ﷺ يُخرج ما أُنْزِلَ على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

و« المُتعَبَد بتلاوته » يُخرج قراءات الآحاد ، والأحاديث القدسية - إن قلنا إنها منزَّلة من عند الله بألفاظها - لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة ، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك .

* * *

أسماؤه وأوصافه

وقد سمَّاه الله بأسماء كثيرة ، منها :

« **القرآن** » . . ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٣) . .

و« **الكتاب** » . . ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ (٤) . .

و« **الفرقان** » . . ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٥) . .

و« **الذكر** » . . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦) . .

---

(١) الكهف : ١٠٩ — (٢) لقمان : ٢٧ — (٣) الإسراء : ٩
(٤) الأنبياء : ١٠ — (٥) الفرقان : ١ — (٦) الحجر : ٩

و« **التنزيل** » . . ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [(١)] . . إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن .

وقد غلب من أسمائه : « القرآن » ، و« الكتاب » ، قال الدكتور محمد عبد الله دراز :

« رُوعِىَ فى تسميته « قرآنًا » كونه متلوًا بالألسن ، كما رُوعِىَ فى تسميته « كتابًا » كونه مدونًا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شىء بالمعنى الواقع عليه .

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعًا ، أن تضل إحداهما فتُذكِّر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التى وُضِعَ عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفَّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها ، بقى القرآن محفوظًا فى حرز حريز ، إنجازًا لوعد الله الذى تكفَّل بحفظه حيث يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [(٢)] ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند » [(٣)] .

وبيَّن سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جىء به مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائدًا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سائرًا مسيرها ، ولم يكن شىء منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يَسَّر له أسبابه - وهو الحكيم العليم - وهذا تعليل جيد .

ووصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك :

---

(١) الشعراء : ١٩٢ . (٢) الحجر : ٩

(٣) « النبأ العظيم » (ص١٢ ، ١٣) - ط . دار القلم بالكويت .

منها « **نور** » . . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (١) .

و« **هدى** » و« **شفاء** » و« **رحمة** » و« **موعظة** » . . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

و« **مبارك** » . . ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٣) .

و« **مبين** » . . ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤) .

و« **بشرى** » . . ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

و« **عزيز** » . . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾(٦) .

و« **مجيد** » . . ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ (٧) .

و« **بشير** » و« **نذير** » . . ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٨) .

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معانى القرآن .

* * *

الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى

سبق تعريف القرآن ، ولكى نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسى والحديث النبوى نعطى التعريفين الآتيين :

● **الحديث النبوى :**

الحديث فى اللُّغة : ضد القديم ، ويُطلق ويراد به كل كلام يُتحدث به ويُنقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو منامه ، وبهذا المعنى سُمِىَ

---

(١) النساء : ١٧٤ (٢) يونس : ٥٧ (٣) الأنعام : ٩٢
(٤) المائدة : ١٥ (٥) البقرة : ٩٧ (٦) فصلت : ٤١
(٧) البروج : ٢١ (٨) فصلت : ٣ - ٤

القرآن حديثاً : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾ (١) وسُمِيَ ما يُحَدِّث به الإنسان فى نومه : ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (٢) .

والحديث فى الاصطلاح : ما أُضيفَ إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة .

فالقول : كقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . . »(٣) .

والفعل : كالذى ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ، ثم قال : « صلُّوا كما رأيتمونى أُصَلِّى » (٤) ، وما ثبت من كيفية حجه ، وقد قال : « خذوا عنى مناسككم » (٥) .

والإقرار : كأن يقر أمرًا علمه عن أحد الصحابة من قول أو فعل . سواء أكان ذلك فى حضرته ﷺ ، أم فى غيبته ثم بلغه ، ومن أمثلته : « أكل الضب على مائدته ﷺ » ، « وما رُوِيَ من أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحاب فى صلاته فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ (٦) ، فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام ، فقال : سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى ﷺ : « أخبِروه أن الله يحبه »(٧) .

والصفة : كما رُوِيَ : من أنه ﷺ ، كان دائم البشر ، سهل الخُلُق ، لَيِّن الجانب ، ليس بفظٍ ولاَ غليظٍ ولا صخَّابٍ ولا فحَّاشٍ ولاَ عيَّابٍ . . . » .

* * *

● الحديث القدسى :

عرفنا معنى الحديث لغة ، **والقدسى** : نسبة إلى القدس ، وهى نسبة تدل على التعظيم ، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير فى اللُّغة ، فالتقديس : تنزيه

---

(١) النساء : ٨٧ — (٢) يوسف : ١٠١

(٣) من حديث طويل رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب .

(٤) رواه البخارى . — (٥) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى .

(٦) الإخلاص : ١ — (٧) رواه البخارى ومسلم .

الله تعالى ، والتقديس : التطهير ، وتقدَّس : تطهَّر . قال الله تعالى على لسان ملائكته : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (1) أى نُطهِّر أنفسنا لك .

والحديث القدسى فى الاصطلاح : هو ما يضيفه النبى ﷺ إلى الله تعالى ، أى أن النبى ﷺ يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راو لكلام الله بلفظ من عنده ، وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مُسْنَدًا إلى الله عز وجل ، فيقول : « قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل .... » .

أو يقول : « قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى - أو يقول الله تعالى ... » .

ومثال الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحَّاء اللَّيل والنهار ... » (2) .

ومثال الثانى : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأٍ ذكرته فى ملأٍ خير منه ... » (3) .

* * *

● الفرق بين القرآن والحديث القدسى :

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسى أهمها :

1 - أن القرآن الكريم كلام الله أُوحِىَ به إلى رسول الله بلفظه ، وتحدى به العرب ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، ولا يزال التحدى به قائمًا ، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين .

والحديث القدسى لم يقع به التحدى والإعجاز .

2 - والقرآن الكريم لا يُنْسَب إلا إلى الله تعالى ، فيقال : قال الله تعالى .

والحديث القدسى - كما سبق - قد يُرْوَى مضافًا إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال : قال الله تعالى ، أو : يقول الله تعالى ، وقد يُرْوَى مضافًا إلى رسول الله ﷺ ، وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه

---

(1) البقرة : 30 (2) أخرجه البخارى . (3) أخرجه البخارى ومسلم .

الصلاة والسلام هو الْمُخْبِر به عن الله ، فيقال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل .

٣ - والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر ، فهو قطعى الثبوت ، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد ، فهى ظنية الثبوت ، وقد يكون الحديث القدسى صحيحاً ، وقد يكون حسنًا ، وقد يكون ضعيفًا .

٤ - والقرآن الكريم من عند الله لفظًا ومعنى ، فهو وحى باللَّفظ والمعنى .

والحديث القدسى معناه من عند الله ، ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيح فهو وحى بالمعنى دون اللَّفظ ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدِّثين .

٥ - والقرآن الكريم مُتْعَبَّدٌ بتلاوته ، فهو الذى تتعين القراءة به فى الصلاة : ﴿ فَاقْرَأُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [١] ، وقراءته عبادة يُثيب الله عليها بما جاء فى الحديث : « مَن قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول (الم) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » [٢] .

والحديث القدسى لا يجزئ فى الصلاة ، ويثيب الله على قراءته ثوابًا عاما ، فلا يصدق فيه الثواب الذى ورد ذكره فى الحديث على قراءة القرآن ، بكل حرف عشر حسنات .

* * *

● الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

الحديث النبوى قسمان :

« قسم توقيفى » وهو الذى تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحى فبيَّنه للناس بكلامه ، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوباً إلى الله فإنه - من حيث هو كلام - حرى بأن يُنسب إلى الرسول ﷺ ، لأن الكلام إنما يُنسب إلى قائله وإن كان فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره .

---

(١) المزمل : ٢٠

(٢) رواه الترمذى عن ابن مسعود ، وقال : حديث حسن صحيح .

و« قسم توفيقى » وهو الذى استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن ، لأنه مبيِّن له ، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد ، وهذا القسم الاستنباطى الاجتهادى يقره الوحى إذا كان صوابًا ، وإذا وقع فيه خطأ جزئى نزل الوحى بما فيه الصواب (١) وليس هذا القسم كلام الله قطعًا .

ويتبين من ذلك : أن الأحاديث النبوية بقسميها : التوقيفى ، والتوفيقى الاجتهادى الذى أقره الوحى ، يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعاً بجملتها إلى الوحى ، وهذا معنى قوله تعالى فى رسولنا ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ (٢) . .

والحديث القدسى معناه من عند الله عز وجل ، يُلْقَى إلى الرسول ﷺ بكيفية من كيفيات الوحى - لا على التعيين ، أما ألفاظه فمن عند الرسول ﷺ على الراجح ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه ، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن ، ولوقع التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته .

ويرد على هذا شبهتان :

الشبهة الأولى : أن الحديث النبوى وحى بالمعنى كذلك ، واللَّفظ من الرسول ﷺ فلماذا لا نسميه قدسيا أيضًا ؟

والجواب : أننا نقطع فى الحديث القدسى بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعى على نسبته إلى الله بقوله ﷺ : « قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى » ولذا سميناه قدسيا ، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص ، ويجوز فى كل واحد منها أن يكون مضمونه معلَّمًا بالوحى (أى توقيفيا) ، وأن يكون مستنبطًا بالاجتهاد (أى توفيقيا) ولذا سمينا الكل نبويا وقوفًا بالتسمية عند الحد المقطوع به ، ولو كان لدينا ما يميز الوحى التوقيفى لسميناه قدسيا كذلك .

---

(١) ومثاله ما كان فى أسرى بدر ، فإن رسول الله ﷺ أخذ برأى أبى بكر وقبل منهم الفداء ، فنزل القرآن الكريم معاتباً له : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ (الأنفال : ٦٧).

(٢) النجم : ٣ - ٤ .

الشبهة الثانية : أنه إذا كان لفظ الحديث القدسي من الرسول ﷺ فما وجه نسبته إلى الله بقوله ﷺ : « قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى » .

والجواب : أن هذا سائغ فى العربية ، حيث يُنسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه ، فأنت تقول حينما تنثر بيتًا من الشعر : يقول الشاعر كذا ، وحينما تحكى ما سمعته من شخص ، يقول فلان كذا ، وقد حكى القرآن الكريم عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم ، وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذلك إليهم : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلا ، فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ، إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (١) .

* * *

(١) مَن ذهب إلى أن الحديث القدسى وحى باللَّفظ كذلك يجعل هذا فرقاً أساسياً بينه وبين الحديث النبوى ، ويبقى الفرق بينه وبين القرآن الكريم فى عدم التحدى وعدم الإعجاز وعدم التعبد بتلاوته وعدم التواتر فى معظمه (والآيات من سورة الشعراء : ١٠ - ٢٤) .

- ٣ -

الـــوحى

● إمكانية الوحى ووقوعه :

ازدهرت الحياة العلمية وبددت أشعتها كل ريبة كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح ، وآمن العلم المادى الذى وضع جل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالمًا غيبيا وراء هذا العالَم المشاهَد ، وأن عالَم الغيب أدق وأعمق من عالَم الشهادة ، وأكثر المخترعات الحديثة التى أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفى الذى عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره ، وقرَّب هذا بُعْد الشقة بين التنكر للأديان والإيمان بها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ العِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ (٢) . .

فالبحوث النفسية الروحية لها فى مضمار العلم الآن مكانتها ، ويساندها ويُقرِّبها إلى الأفهام تفاوت الناس فى مداركهم وميولهم وغرائزهم ، فمن العقول العبقرى الفذ الذى يبتكر كل جديد ، ومنها الغبى الذى يستعصى عليه إدراك بديهى الأمور ، وبين المنزلتين درجات . والنفوس كذلك ، منها الصافى المشرق ، والخبيث المعتم .

وجسم الإنسان يطوى وراءه روحاً هى سر حياته ، وإذا كان الجسم تبلى ذرَّاته وتفنى أنسجته وخلاياه ما لم يتناول قسطه من الغذاء ، فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدها بالطاقة الروحية كى تحتفظ بمقوماتها وقيمها .

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوسًا لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للفيض الإلهى ، والوحى السماوى ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ليُلقى إليها برسالاته التى تسد حاجة البشر فى رقى وجدانه ، وسمو أخلاقه ، واستقامة نظامه ، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه .

ولا غرابة فى أن يكون هذا الاتصال بالوحى السماوى .

---

(١) فصلت : ٥٣ (٢) الإسراء : ٨٥

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسى ، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يُحدث أثرًا يُقَرِّب إلى الأفهام ظاهرة الوحى - حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة أن يتسلط بإرادته على مَن هو أضعف منه فينام نومًا عميقًا ، ويكون رهن إشارته ، ويُلَقِّنه ما يريد فيجرى على قلبه ولسانه ، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟ (١) .

ويسمع الناس الأحاديث المسجلة التى تحملها اليوم موجات الأثير ، عابرة الوهاد والنجاد ، والسهول والبحار ، دون رؤية ذويها ، بل بعد وفاتهم .

وأصبح الرجلان يتخاطبان فى الهاتف ، أحدهما فى أقصى المشرق ، والآخر فى أقصى المغرب ، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئاً سوى أزيز كدوى النحل الذى فى صفة الوحى .

ومَن منا ليس له حديث نفس فى يقظته أو منامه يدور فى خلده دون أن يرى متكلماً أمامه ؟

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحى .

وقد شاهد الوحى معاصروه ، ونُقِلَ بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعى إلى الأجيال اللاحقة ، ولمست الإنسانية أثره فى حضارة أُمته ، وقوة أتباعه، وعزتهم ما استمسكوا به وانهيار كيانهم وخذلانهم ما فرَّطوا فى جنبه ، مما لا يدع مجالاً للشك فى إمكان الوحى وثبوته ، وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظمأ النفسى بمُثله العليا ، وقيمه الروحية .

ولم يكن رسولنا ﷺ أول رسول أُوحِىَ إليه ، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

---

(١) انظر « النبأ العظيم » (ص٧٥) .

وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١) .

فليس هناك فى نزول الوحى على محمد ﷺ ما يدعو إلى العجب ، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا فى قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

* * *

معنى الوحى

يقال : وحيت إليه وأوحيت : إذا كلَّمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة ببعض الجوارح .

والوحى مصدر : ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين ، هما : الخفاء ، والسرعة ، ولذا قيل فى معناه : الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجَّه إليه بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويُطلق ويُراد به الموحى ، أى بمعنى اسم المفعول ، والوحى بمعناه اللُّغوى يتناول :

١ - الإلهام الفطرى للإنسان ، كالوحى إلى أم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٣) .

٢ - والإلهام الغريزى للحيوان ، كالوحى إلى النحل ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٤) .

٣ - والإشارة السريعة على سبيلِ الرمز والإيحاء ، كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(٥) .

---

(١) النساء : ١٦٣ - ١٦٤ (٢) يونس : ٢ (٣) القصص : ٧

(٤) النحل : ٦٨ (٥) مريم : ١١

٤ - ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر فى نفس الإنسان : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (٢) . .

٥ - وما يُلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) . .

ولغة القرآن الفاشية : « أوحى » بالألف - ولم يستعمل مصدرها - وإنما جاء فيه مصدر الثلاثى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (٤) . .

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرَّفوه شرعًا بأنه : كلام الله تعالى المُنَزَّل على نبى من أنبيائه . وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أى الموحى .

والوحى بالمعنى المصدرى اصطلاحًا : هو إعلام الله تعالى مَن يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة .

وعرَّفه الأستاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد بأنه :

« عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويُفَرَّق بينه وبين الإلهام ، بأن الإلهام : وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يُطلب على غير شعور منها من أين أتى ؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » (٥) .

وهو تعريف للوحى بالمعنى المصدرى ، وبدايته وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف ، إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذى جاء فى عجز التعريف ينفى هذا .

* * *

(١) الأنعام : ١٢١
(٢) الأنعام : ١١٢
(٣) الأنفال : ١٢
(٤) النجم : ٤
(٥) انظر كتاب « الوحى المحمدى » للشيخ محمد رشيد رضا (ص٤٤) .

كيفية وحى الله إلى ملائكته

١ - جاء فى القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾(١).

وعلى إيحائه إليهم : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى المَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ (٢) .

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره : ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ (٣) . ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ (٤) . .

وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يُكَلِّم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه .

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث عن النَّواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى ، أخذت السموات منه رجفة - أو قال : رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا لله سُجَّدًا ، فيكون أول مَن يرفع رأسه جبريل ، فيُكَلِّمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : « قال الحق وهو العلى الكبير » فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » (٥) .

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحى تكلم من الله ، وسماع من الملائكة ، وهول شديد لأثره ، وإذا كان ظاهره - فى مرور جبريل وانتهائه بالوحى - يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامة ، وأصله فى الصحيح : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان» .

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) الأنفال : ١٢ (٣) الذاريات : ٤

(٤) النازعات : ٥ (٥) أخرجه الطبرانى .

٢ - وثبت أن القرآن الكريم كُتبَ فى اللَّوح المحفوظ لقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (١) .

كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (٣) ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (٤) . .

وفى السُّنَّة ما يوضح هذا النزول ، ويدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس موقوفاً : « أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أُنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٥) ، ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (٦) ، (٧) ، وفى رواية : « فُصلَ القرآن من الذكر فوُضعَ فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ » (٨) .

ولذلك ذهب العلماء فى كيفية وحى الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية :

(أ) أن جبريل تلقفه سماعًا من الله بلفظه المخصوص .

(ب) أن جبريل حفظه من اللَّوح المحفوظ .

(ج) أن جبريل ألقى إليه المعنى - والألفاظ لجبريل ، أو لمحمد ﷺ .

والرأى الأول هو الصواب ، وهو ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة ، ويؤيده حديث النوَّاس بن سمعان السابق .

ونسبة القرآن إلى الله فى أكثر من آية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٩) .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ﴾ (١٠) .

---

(١) البروج : ٢١ - ٢٢ (٢) القدر : ١ (٣) الدخان : ٣

(٤) البقرة : ١٨٥ . (٥) الفرقان : ٣٣ (٦) الإسراء : ١٠٦

(٧) أخرجه الحاكم والبيهقى والنسائى . (٨) أخرجه الحاكم وابن أبى شيبة .

(٩) النمل : ٦ (١٠) التوبة : ٦

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْت بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾(١) .

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد .

أما الرأى الثانى فلا اعتبار له ، إذ أن ثبوت القرآن فى اللَّوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التى لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها .

والرأى الثالث أنسب بالسُّنَّة لأنها وحى من الله أُوحى إلى جبريل ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى ، فعبَّر عنه رسول الله بعبارته : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (٢) .. ولذا جازت رواية السُّنَّة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعانى دون القرآن ..

ويُجاب على مَن قال : إنه كلام جبريل ، بأن هذا قول فاسد لوجوه :

أحدها : أن المسلمين أجمعين إذا تلوا آية قالوا : قال الله تعالى ، ولو كان هذا قول جبريل لقالوا : قال جبريل .

الثانى : أن هذا الذى بين دفتى المصحف بإجماع المسلمين هو كتاب الله ، وعلى قولهم فإنه يكون كتاب جبريل .

والثالث : أن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (٣) ، وعلى قولهم ، ما نزَّله من ربك ، إنما نزَّله من كلام نفسه .

الرابع : أن الله تعالى قال :﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ﴾ (٥) .. وعلى قولهم لا يكون هذا صحيحًا ، وإنما يكون المسموع كلام جبريل .

ويُجاب على مَن قال : إنه كلام محمد بأن هذا باطل لتلك الوجوه الآنفة الذكر

(١) يونس : ١٥ (٢) النجم : ٣ - ٤ (٣) النحل : ١٠٢

(٤) التوبة : ٦ (٥) البقرة : ٧٥

كلها ، ومن وجه آخر ، فإنهم وافقوا الوليد بن المغيرة فى قوله : ﴿ إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [1] . . فدخلوا معه فى الوعيد بقوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [2] .

ويرد عليهم من الجواب ما أجاب الله تعالى به المشركين بقوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [3] .

وسبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى .

فمن خصائص القرآن :

١ - أنه مُعْجِز . ٢ - قطعى الثبوت . ٣ - يُتعَبد بتلاوته .

٤ - ويجب أداؤه بلفظه ، والحديث القدسى - على القول بنزول لفظه - ليس كذلك .

والحديث النبوى قسمان ، الأول : ما اجتهد فيه الرسول ﷺ ، وهذا ليس وحيا ، ويكون إقرار الوحى له بسكوته إذا كان صوابًا .

والثانى : ما أُوحِىَ إليه بمعناه ، واللَّفظ لرسول الله ، ولذا يجوز روايته بالمعنى ، والحديث القدسى - على القول الراجح بنزول معناه دون لفظه - يكون من هذا القسم ونسبته إلى الله فى الرواية لورود النص الشرعى على ذلك دون الأحاديث النبوية .

* * *

كيفية وحى الله إلى رسله

يوحى الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة .

فالأولى : بواسطة جبريل مَلَك الوحى وسيأتى بيانه .

والثانى : هو الذى لا واسطة فيه .

(أ) **منه الرؤيا الصالحة فى المنام** : فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « أول ما بُدِئَ به ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل

---

(١) المدثر : ٢٥ (٢) المدثر : ٢٦ (٣) الطور : ٣٣ - ٣٤

فلق الصبح » (١) . وكان ذلك تهيئة لرسول الله ﷺ حتى ينزل عليه الوحى يقظة ، وليس فى القرآن شىء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة ، خلافاً لمن ادّعى نزول سورة « الكوثر » مناماً للحديث الوارد فيها ، ففى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه : « بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسمًا ، فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « نزلت علىّ آنفًا سورة ، فقرأ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ (٢) . . فلعل الإغفاءَة هذه هى الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى .

ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء فى المنام وحىٌ يجب اتباعه ما جاء فى قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل (٣) : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) . . ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن مَنَّ الله عليه بالفداء .

---

(١) متفق عليه . (٢) سورة الكوثر .

(٣) هذا هو الصواب ، خلافًا لمن ذهب إلى أنه إسحاق ، فإن البشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل إسحاق ، وإسماعيل هو الذى نشأ فى الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح ، وهو الحرى بأن يوصف بالحلم ، وقد ذهب اليهود إلى أنه « إسحاق » حقداً وحسداً ، لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب ، والقرآن يرده لأنه لما ذكر البشارة بغلام حليم ذكر أنه الذبيح ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات : ١١٢) .

(٤) الصافات : ١٠١ - ١٢٢

الرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول ، فهى باقية للمؤمنين ، وإن لم تكن وحيا، قال عليه الصلاة والسلام : « انقطع الوحى وبقيت المبشرات ، رؤيا المؤمن»[1] .

والرؤيا الصالحة فى المنام للأنبياء هى القسم الأول من أقسام التكليم الإلهى المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِى حَكِيمٌ ﴾ [2] .

(ب) ومنه الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة يقظة ، وهو ثابت لموسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [3] ، ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [4] .

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج .

وهذا النوع هو القسم الثانى المذكور فى الآية : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وليس فى القرآن شيء منه كذلك .

* * *

كيفية وحى المَلَك إلى الرسول

وحى الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة ، وهو ما ذكرناه آنفًا ، وكان منه الرؤيا الصالحة فى المنام ، والكلام الإلَهى من وراء حجاب يقظة - وإما أن يكون بواسطة مَلَك الوحى وهو الذى يعنينا فى هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به .

ولا تخلو كيفية وحى المَلَك إلى الرسول من إحدى حالتين :

الحالة الأولى : وهى أشد على الرسول - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس ، والصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتُهَيأ النفس بكل قواها لقبول أثره ، فإذا نزل الوحى بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية

---

(١) أصل الحديث فى الصحيحين وغيرهما ، ولفظ البخارى : « لم يبق من النبوَّة إلا المبشرات - قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة » .

(٢) الشورى : ٥١ . (٣) الأعراف : ١٤٣ (٤) النساء : ١٦٤

لتلقيه وحفظه وفهمه ، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه فى الحديث : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كالسلسلة على صفوان » (١) ، وقد يكون صوت المَلَك نفسه فى أول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه فى صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ، ويأنس رسول النبوَّة عند سماعه من رسول الوحى ، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان .

والهيئة التى يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته ، ولا يعنى أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أُنسًا للرسول البشرى ، ولا شك أن الحالة الأولى - حالة الصلصلة - لا يوجد فيها هذا الإيناس ، وهى تحتاج إلى سمو روحى من رسول الله يتناسب مع روحانية المَلَك فكانت أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون : « انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالمَلَكية الروحانية ، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال المَلَك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية » .

وكلتا الحالتين مذكور فيما رُوِىَ عن عائشة أُم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث ابن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله . . كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانًا يتمثل لى المَلَك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » .

وروت عائشة رضى الله عنها ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة فقالت : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » (٢) .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى .

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلَهى المشار إليه فى الآية :
﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ

١ - إلا وَحْيًا

٢ - أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .

٣ - أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِى حَكِيمٌ ﴾ [١] . .

أما النفث فى الرَّوع - أى القلب - فقد ذُكِرَ فى قول الرسول ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » [٢] ، والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة ، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين فى حديث عائشة ، فيأتيه المَلَك فى مثل الصلصلة وينفث فى روعه ، أو يتمثل له رجلاً وينفث فى روعه ، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم .

* * *

شُبَه الجاحدين على الوحى

وقد حرص الجاهليون قديماً وحديثاً على إثارة الشُبَه فى الوحى عتوًا واستكبارًا ، وهى شُبَه واهية مردودة :

١ - زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ ، ابتكر معانيه ، وصاغ أُسلوبه، وليس وحيًا يُوحَى .

وهذا زعم باطل ، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يُدعى لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له فى أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره ، وكان فى استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه ، ويكون ذلك كافيًا لرفعة شأنه ، والتسليم بزعامته ، ما دام العرب جميعاً على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته ، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه .

ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحى الإلهى أن يجعل لكلامه حرمة تفوق

---

(١) الشورى : ٥١

(٢) رواه أبو نعيم فى « الحلية » بسند صحيح .

كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره ، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوى ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئاً ، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى .

وهذا الادعاء يفترض فى رسول الله أنه كان من أولئك الزعماء الذين يعبرون الطريق فى الوصول إلى غايتهم على قنطرة من الكذب والتمويه ، وهو افتراض يأباه الواقع التاريخى فى سيرته عليه الصلاة والسلام ، وما اشتهر به من صدق وأمانة شهد له بهما أعداؤه قبل أصدقائه .

لقد اتهم المنافقون زوجه عائشة بحديث الإفك ، وهى أحب زوجاته إليه ، واتهامها يمس كرامته وشرفه ، وأبطأ الوحى ، وتحرّج الرسول ﷺ وتحرّج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر ، وبذل جهده فى التحرى والاستشارة ، ومضى شهر بأكمله ، ولم يزد على أنه قال لها آخر الأمر : « أما إنه بلغنى كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله » (١) ، وظل هكذا إلى أن نزل الوحى ببراءتها ، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلامًا يقطع به ألسنة المتخرصين ، ويحمى عرضه ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٢) . .

واستأذن جماعة فى التخلف عن غزوة تبوك وأبدوا أعذارًا ، وكان منهم مَن انتحل هذه الأعذار من المنافقين وأذن لهم ، فنزل القرآن الكريم معاتبًا له لخطأ رأيه : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣) . ولو كان هذا العتاب صادراً عن وجدانه تعبيرًا عن ندمه حين تبين له فساد رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسى .

ونظير هذا معاتبته ﷺ فى قبول الفداء من أسرى بدر : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ

---

(١) راجع حديث الإفك فى « الصحيحين » وفى غيرهما ، وتفسير القصة فى سورة النور .

(٢) الحاقة : ٤٤ - ٤٧ (٣) التوبة : ٤٣

لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١) . ومعاتبته فى توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضى الله عنه اهتمامًا بنفر من أكابر قريش فى دعوتهم إلى الإسلام ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلا إِنَّها تَذْكِرَةٌ ﴾ (٢) . .

والمعهود فى سيرته ﷺ أنه كان منذ نعومة أظفاره مثلاً فريدًا فى حسن الخُلُق ، وكريم السجايا ، وصدق اللَّهجة ، وإخلاص القول والعمل ، وقد شهد له بهذا قومه عندما دعاهم فى مطلع الدعوة وقال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بظهر هذا الوادى تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ قالوا : نعم ، ما جرَّبنا عليك كذبًا » (٣) . وكانت سيرته العطرة مهوى أفئدة الناس إليه للدخول فى الإسلام ، عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال : « لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة ، انجفل الناس إليه ، وقيل : قَدِمَ رسول الله ، قَدِمَ رسولَ الله ، فجئتُ فى الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب » (٤) .

وصاحب هذه الصفات العظيمة التى يُتَوِّجها الصدق ما ينبغى لأحد أن يمترى فى قوله حينما أعلن نفسه بأنه ليس واضع ذلك الكتاب ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (٥) .

٢ - وزعم الجاهليون قديماً وحديثًا ، أنه عليه الصلاة والسلام كان له من حدة الذكاء ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الفراسة ، وشدة الفطنة ، وصفاء النفس ، وصدق التأمل ، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر ، والحق والباطل ، بالإلهام ، ويتعرف

---

(١) الأنفال : ٦٧ - ٦٨

(٢) عبس : ١ - ١١

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٤) رواه الترمذى بسند صحيح .

(٥) يونس : ١٥

على خفايا الأمور بالكشف والوحى النفسى ، ولا يخرج القرآن عن أن يكون أثرًا للاستنباط العقلى ، والإدراك الوجدانى عبَّر عنه محمد بأسلوبه وبيانه .

وأى شىء فى القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور ؟

فالجانب الإخبارى - وهو قسم كبير من القرآن - لا يمارى عاقل فى أنه لا يعتمد إلا على التلقى والتعلم .

لقد ذكر القرآن أنباء مَن سبق من الأُمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذى يضرب فى أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر ودقة الفراسة ، ولم يعاصر محمد ﷺ تلك الأمم وهذه الأحاديث فى قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها ، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروى أخبارها : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (١) .. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (٢) .. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِه لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ (٣) .. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (٤) .

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التى لا يعلمها إلا الدارس البصير ، ففى قصة نوح : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥) . وهذا موافق لما جاء فى سفر التكوين من التوراة ، وفى قصة أصحاب الكهف : ﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعًا﴾ (٦) .. وهى عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية ، والسنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية .

---

(١) القصص : ٤٤ - ٤٥ (٢) هود : ٤٩ (٣) يوسف : ٣

(٤) آل عمران : ٤٤ (٥) العنكبوت : ١٤ (٦) الكهف : ٢٥

فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يُوحَى إليه وهو الرجل الأُمى الذى عاش فى أمة أميَّة لا تكتب ولا تحسب ؟

وقد كان أهل الجاهلية الأولى أذكى من ملاحدة الجاهلية المعاصرة ، فإن أُولئك لم يقولوا إن محمداً استقى هذه الأخبار من وحى نفسه كما يقول هؤلاء ، بل قالوا : إنه درسها وأُمليَت عليه ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (١) ، ولم يتلق رسول الله ﷺ درسًا على معلم قط - كما سيأتى - فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة بعد أن بلغ الأربعين ؟ ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢) . .

هذا فى الجانب الإخبارى .

أما فى سائر العلوم التى تضمنها القرآن فإن قسم العقائد يتناول كذلك أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته ، والحياة الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وما يتبع ذلك من الملائكة وأوصافهم ووظائفهم - وهذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل وقوة الفراسة البتة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً ، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَانًا ﴾ (٣) . . ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

ناهيك بما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل التى تجرى على سُنَن الله الاجتماعية ، فى القوة والضعف ، والصعود والهبوط ، والعزة والذلة ، والبناء والدمار : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ﴾ (٥) ،

---

(١) الفرقان : ٥ (٢) النجم : ٤ (٣) المدثر : ٣١

(٤) يونس : ٣٧ . (٥) النور : ٥٥

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) . .

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم قد حكى عن رسول الله اتباعه للوحى ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَّبِّى ﴾ (٣) ، وأنه بشر لا يعلم الغيب ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٤) ، ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِى السُّوءُ، إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٥) . .

وقد كان عليه الصلاة والسلام عاجزًا عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ليقضى بينهما وهو يسمع أقوالهما فهو بلا شك أشد عجزًا عن إدراك ما فات وما هو آت : « سمع رسول الله ﷺ خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » (٦) .

قال الدكتور محمد عبد الله دراز : « هذا الرأى هو الذى يُروِّجه الملحدون اليوم باسم « الوحى النفسى » زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأى علمى جديد ، وما هو بجديد ، وإنما هو الرأى الجاهلى القديم ، لا يختلف عنه فى جملته ولا فى تفصيله ، فقد صوّروا النبى ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذن شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيرًا على حواسه حتى يُخَيِّل إليه أنه يرى

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ (٢) الأنفال : ٥٣ (٣) الأعراف : ٢٠٣

(٤) الكهف : ١١٠ (٥) الأعراف : ١٨٨

(٦) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السُّنَن .

ويسمع شخصًا يكلمه ، وما ذاك الذى يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذن الجنون أو أضغاث الأحلام ، على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات ، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة « الوحى النفسى » حينما بدا لهم فى القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة ، فقالوا : لعله تلقفها من أفواه العلماء فى أسفاره للتجارة ، فهو إذن قد علَّمه بشر ، فأى جديد ترى فى هذا كله ؟ أليس كله حديثًا معادًا يضاهون به قول جهَّال قريش ؟ وهكذا كان الإلحاد فى ثوبه الجديد صورة منتسخة ، بل ممسوخة منه فى أقدم أثوابه ، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة فى العصر الحديث مستمدًا من فتات الموائد التى تركتها تلك القلوب المتحجرة فى عصور الجاهلية الأولى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله إنه كان صادقًا أمينًا ، وإنه كان معذورًا فى نسبة رؤاه إلى الوحى الإلَهى ، لأن أحلامه القوية صوَّرتها له وحيًا إلهيًا ، فما شهد إلا بما علم ، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢) . . فإن كان هذا عذره فى تصوير رؤاه وسماعه فما عذره فى دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء ، لا هو ولا قومه من قبل هذا ، بينما هو قد سمعها - بزعمهم من قبل - فليقولوا إذن إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل ، ولكنهم لا يريدون أن يقولون هذه الكلمة لأنهم يدَّعون الإنصاف والتعقل ، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون » (٣) .

٣ - وزعم الجاهليون قديمًا وحديثًا أن محمدًا قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم .

وهذا حق ، إلا أن المُعَلِّم الذى تلقى عنه القرآن هو مَلَك الوحى ، أما أن يكون له مُعَلِّم آخر من قومه ، أو من غير قومه فلا .

إنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أميا وعاش أميا ، فى أمة أميَّة لم يُعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم ، وهذا واقع يشهد به التاريخ ، ولا مرية فيه .

---

(١) البقرة : ١١٨ (٢) الأنعام : ٣٣ (٣) راجع : « النبأ العظيم » .

أما أن يكون له مُعَلِّم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع فى التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقى أحدًا من العلماء حدَّثه عن الدين قبل إعلان نبوَّته .

حقيقة إنه رأى فى طفولته بحيرى الراهب فى سوق بصرى بالشام ، ولقى فى مكة ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحى ، ولقى بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى ، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئاً من الأحاديث قبل نبوَّته ، أما بعد النبوَّة ، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه ، ولو كان رسول الله ﷺ أخذ شيئًا عن واحد منهم لما سكت التاريخ عنه ، لأنه ليس من الهنات الهينات التى يتغاضى عنها الناس ، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد ، والكلمات التى ذكرها التاريخ عن راهب الشام أو ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوَّته عليه الصلاة والسلام (١) أو اعترافًا بها (٢) .

ونقول لهؤلاء الذين يزعمون أن محمدًا كان يُعَلِّمه بَشر : ما اسم هذا المُعَلِّم ؟ وعندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعى فى « حدّاد رومى » (٣) ينسبون إليه ذلك ، فكيف يُستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالماً متفرغًا لدراسة الكتب ، بل عرفته حدَّادًا منهمكًا فى مطرقته وسندانه ، عامى الفؤاد ، أعجمى اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٤) . .

---

(١) قال بحيرى عندما رأى فى رسول الله سيما النبوَّة : « إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم» .

(٢) قال ورقة عندما سمع قصة النبى ﷺ من صفة الوحى وقد أخذته خديجة إليه يرجف فؤاده : « هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يُخرجك قومك ، قال : أوَ مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئتَ به إلا أُوذِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا » .

(٣) كان غلامًا نصرانيا ، واختلف أهل السيرة فى اسمه فقيل اسمه : « سبيعة » . وقيل : « يعيش » ، وقيل : « بلعام » .

(٤) النحل : ١٠٣

ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعانًا فى خصومة محمد ﷺ، ولكنهم عجزوا ووجدوا السبل أمامهم مغلقة ، وباءت كل محاولاتهم بالفشل، فما للملحدين اليوم - وقد مضى أربعة عشر قرنًا على ذلك - يبحثون فى قمامات التاريخ ملتمسين سبيلاً من تلك السبل الفاشلة نفسها ؟ !

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنسانى ، لا فى نفس صاحبه ، ولا عند أحد من البَشر ، فهو تنزيل الحكيم الحميد .

ونشأة رسول الله ﷺ فى بيئة أمية جاهلية ، وسيرته بين قومه ، من أقوى الدلائل على أن الله قد أعده لحمل رسالته ، وأوحى إليه بهذا القرآن هداية لأُمته : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ من عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (١) . يقول الأستاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد : « من السُّنَن المعروفة أن يتيمًا فقيرًا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيما ، إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عُصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أُستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السُّنَن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده » (٢) .

ولكن الأمر لم يجر على سُنَنه ، بل بُغِّضَتْ إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ (٣) ، لا يُفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى

---

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣

(٢) كأمية بن أبى الصلت ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

(٣) الضحى : ٧

التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخُلُق العظيم ، حاشى لله ، إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هُدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته » .

* * *

● متاهات المتكلمين :

وقد خاض المتكلمون فى بيان كلام الله على نهج الفلاسفة فأوقعوا الناس فى متاهات أضلتهم عن سواء السبيل ، حيث قَسَّموا كلام الله تعالى إلى قسمين : نفسى قديم قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة ، وكلام لفظى هو المنزَّل على الأنبياء عليهم السلام ، ومنه الكتب الأربعة ، وأغرق علماء الكلام فى خلافاتهم الكلامية المبتدعة : أيكون القرآن بهذا المعنى الثانى مخلوقاً أم لا ؟ ورجحوا أن يكون مخلوقًا ، وخرجوا بذلك عن منهج السَّلَف الصالح فيما لم يرد به كتاب ولا سُنَّة ، وتناولوا صفات الله بالتحليل الفلسفى الذى يؤدى إلى التشكيك فى عقيدة التوحيد .

ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات أو أثبته رسوله ﷺ فيما صح عنه ، وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة من صفاته تعالى ، قال سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١) ، وأن القرآن الكريم - وهو الوحى المنزَّل على محمد ﷺ - كلام الله غير مخلوق ، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ (٢) ، وإثبات هذا ونحوه مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله وإن كان يوصف به العباد فإنه لا ينافى كمال تنزيهه تعالى عما لا يليق به من نقائص عباده ، ولا يقتضى مماثلته لهم .

---

(١) النساء : ١٦٤ (٢) التوبة : ٦

إذ أن الاشتراك فى الأسماء لا يقتضى الاشتراك فى المسميات ، فشتّان بين الخالق والمخلوق فى الذات والصفات والأفعال ، فذاته تعالى أكمل ، وصفاته أسمى ، وأفعاله أتم وأعلى ، وإذا كان الكلام صفة كمال للمخلوق فكيف ينتفى هذا عن الخالق ؟ ويسعنا ما وسع أصحاب رسول الله ﷺ وعلماء التابعين وأئمة الحديث والفقه فى العصور المشهود لها بالخير قبل ظهور بدعة المتكلمين من الإيمان بما جاء عن الله أو صح عن رسوله فى صفاته تعالى وأفعاله إثباتًا ونفيا من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ، وليس لنا أن نُحكِّم رأينا فى كُنْهِ ذات الله أو كيفية صفاته : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (١) .

* * *

(١) الشورى : ١١

- ٤ -
المكى والمدنى

تُولى الأُمم اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكرى ومقومات حضارتها ، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التى شرفت بها الإنسانية جمعاء ، لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها ، وإنما هى - فوق زادها الفكرى وأسسها الإصلاحية - دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب ، فنجد أعلام الهُدى من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطًا يحدد الزمان والمكان ، وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع يستند إليه الباحث فى معرفة أسلوب الدعوة ، وألوان الخطاب ، والتدرج فى الأحكام والتكاليف ، ومما رُوِىَ فى ذلك ما قاله ابن مسعود رضى الله عنه : « والله الذى لا إلَه غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه » (١) .

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص فى أسلوبها إزاء كل فساد فى العقيدة والتشريع والخُلُق والسلوك ، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها وتربية اللَّبنات التى تأخذ على عاتقها القيام بها ، ولا تسن أُسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة .

والذى يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية فى وقعها ومعانيها ، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى فى الأحكام والتشريع ، فحيث كان القوم فى جاهلية تعمى وتصم ، يعبدون الأوثان ، ويشركون بالله ، وينكرون

---

(١) أخرجه البخارى .

الوحى ، ويكذِّبون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١) . ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢) . وهم ألداء فى الخصومة ، أهل مماراة ولجاجة فى القول عن فصاحة وبيان - حيث كان القوم كذلك نزل الوحى المكى قوارع زاجرة ، وشهبًا منذرة، وحججًا قاطعة ، يحطم وثنيتهم فى العقيدة ، ويدعوهم إلى توحيد الأُلوهية والربوبية ، ويهتك أستار فسادهم ، ويُسَفِّه أحلامهم ، ويقيم دلائل النبوَّة ، ويضرب الأمثلة للحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار ، ويتحداهم - على فصاحتهم - بأن يأتوا بمثل القرآن ، ويسوق إليهم قصص المكذِّبين الغابرين عبرة وذكرى ، فتجد فى مكى القرآن ألفاظًا شديدة القرع على المسامع ، تقذف حروفها شرر الوعيد وألسنة العذاب ، فـ « كلا » الرادعة الزاجرة ، والصاخة والقارعة ، والغاشية والواقعة ، وألفاظ الهجاء فى فواتح السور ، وآيات التحدى فى ثناياها ، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية - كل هذا نجده فى خصائص القرآن المكىّ .

وحين تكوَّنت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وامتُحنت فى عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على متع الحياة - حين تكوَّنت هذه الجماعة - نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وتفصِّل أُصول التشريع ، وتضع قواعد المجتمع ، وتحدِّد روابط الأسرة ، وصلات الأفراد ، وعلاقات الدول والأُمم ، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم، وتجادل أهل الكتاب وتُلجم أفواههم - وهذا هو الطابع العام للقرآن المدنى .

* * *

(١) الصافات : ١٦ (٢) الجاثية : ٢٤

عناية العلماء بالمكى والمدنى وأمثلة ذلك وفوائده

وقد عَنِىَ العلماء بتحقيق المكى والمدنى عناية فائقة ، فتتبعوا القرآن آية آية ، وسورة سورة ، لترتيبها وفق نزولها ، مراعين فى ذلك الزمان والمكان والخطاب ، لا يكتفون بزمن النزول ، ولا بمكانه ، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب ، وهو تحديد دقيق يعطى للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمى فى علم المكى والمدنى ، وهو شأن علمائنا فى تناولهم لمباحث القرآن الأخرى .

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحى فى جميع مراحله ، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعيِّن وقت نزولها ، ويحدِّد مكانه ، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها ، أهو من قبيل المكى أم من قبيل المدنى ؟ مستعينًا بموضوع السورة أو الآية ، أهو من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية فى مكة أم من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة فى المدينة ؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رُجِّح بينها فجعل بعضها شبيهًا بما نزل فى مكة ، وبعضها شبيهًا بما نزل فى المدينة .

وإذا كان الآيات نزلت فى مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها فى مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك ، فقالوا : ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة ، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة .

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتاب « التنبيه على فضل علوم القرآن » : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة فى أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة ، وما يشبه نزول المكى فى المدنى ، وما يشبه نزول المدنى فى المكى ، وما نزل بالجُحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، وما نزل ليلاً ، وما نزل نهارًا ، وما نزل مشيعًا [1] ، وما نزل مفردًا ، والآيات المدنيات من السور المكية ، والآيات

---

(١) كالذى رُوِىَ فى بعض السور والآيات مثل سورة الأنعام ، وسورة الفاتحة ، وآية الكرسى.

المكيات فى السور المدنية ، وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حُمِلَ من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مُجْمَلاً، وما نزل مُفَسَّرًا ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم مدنى وبعضهم مكى ، فهذه خمسة وعشرون وجهًا مَن لم يعرفها ويُمَيِّز بينهما لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى » (١) .

وحرص العلماء على الدقة ، فرتَّبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة ، وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا ، وازدادوا حرصًا فى الاستقصاء ، ففرَّقوا بين ما نزل ليلاً وما نزل نهارًا ، وما نزل صيفًا وما نزل شتاءً ، وما نزل فى الحَضَر وما نزل فى السَفَر .

وأهم الأنواع التى يتدارسها العلماء فى هذا المبحث :

١ - ما نزل بمكة .

٢ - ما نزل بالمدينة .

٣ - ما اختُلِف فيه .

٤ - الآيات المكية فى السور المدنية .

٥ - الآيات المدنية فى السور المكية .

٦ - ما نزل بمكة وحكمه مدنى .

٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكى .

٨ - ما يشبه نزول المكى فى المدنى .

٩ - ما يشبه نزول المدنى فى المكى .

١٠ - ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة .

١١ - ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة .

١٢ - ما نزل ليلاً وما نزل نهارًا .

١٣ - ما نزل صيفًا وما نزل شتاءً .

١٤ - ما نزل فى الحَضَر وما نزل فى السَفَر .

---

(١) انظر « الإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى (١/ ٨) ، الطبعة الثالثة للحلبى .

فهذه أنواع أساسية ، يرتكز محورها على المكى والمدنى ، ولذا سُمِىَ هذا بـ«علم المكى والمدنى » .

● **أمثلة** :

١ ، ٢ ، ٣ - أقرب ما قيل فى تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة ، أن المدنى عشرون سورة :

١ - البقرة .	٢ - آل عمران .	٣ - النساء .
٤ - المائدة .	٥ - الأنفال .	٦ - التوبة .
٧ - النور .	٨ - الأحزاب .	٩ - محمد .
١٠ - الفتح .	١١ - الحجرات .	١٢ - الحديد .
١٣ - المجادلة	١٤ - الحشر .	١٥ - الممتحنة .
١٦ - الجمعة .	١٧ - المنافقون .	١٨ - الطلاق .
١٩ - التحريم	٢٠ - النصر .	

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة :

١ - الفاتحة .	٢ - الرعد .	٣ - الرحمن .
٤ - الصف .	٥ - التغابن .	٦ - التطفيف .
٧ - القدر .	٨ - البيِّنة .	٩ - الزلزلة .
١٠ - الإخلاص .	١١ - الفلق .	١٢ - الناس .

وأن ما سوى ذلك مكى ، وهو اثنتان وثمانون سورة ، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة .

٤ - **الآيات المكية فى السور المدنية** : لا يُقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك ، فقد يكون فى المكية بعض آيات مدنية ، وفى المدنية بعض آيات مكية ، ولكنه وصف أغلبى حسب أكثر آياتها ، ولذا يأتى فى التسمية : سورة

كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية - كما نجد ذلك في المصاحف .

ومن أمثلة الآيات المكية في السور المدنية « سورة الأنفال » مدنية ، واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) قال مقاتل في هذه الآية : نزلت بمكة ، وظاهرها كذلك ، لأنها تضمنت ما كان من المشركين في دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، واستثنى بعضهم كذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، لما أخرجه البزّار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٥ - **الآيات المدنية في السور المكية** : ومن أمثلة الآيات المدنية في السور المكية « سورة الأنعام » قال ابن عباس : نزلت بمكة جملة واحدة ، فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ مِّنْ إِمْلاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، و« سورة الحج » مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، من أول قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾ (٤) .

٦ - **ما نزل بمكة وحكمه مدني** : ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

---

(١) الأنفال : ٣٠
(٢) الأنفال : ٦٤
(٣) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣
(٤) الحج : ١٩

خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) ، فإنها نزلت بمكة يوم الفتح ، وهى مدنية لأنها أُنزلت بعد الهجرة ، والخطاب فيها عام ، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكيا ، كما لا يسمونه مدنيا على وجه التعيين ، بل يقولون فيه : ما نزل بمكة وحكمه مدنى .

٧ - **ما نزل بالمدينة وحكمه مكى** : ويمثلون له بسورة الممتحنة ، فإنها نزلت بالمدينة ، فهى مدنية باعتبار المكان ، ولكن الخطاب فى ثناياها توَّجه إلى مشركى أهل مكة . . ومثل هذا صدر سورة « براءة » نزل بالمدينة ، والخطاب فيه لمشركى أهل مكة .

٨ - **ما يُشبه نزول المكى فى المدنى** : ويعنى العلماء به ما كان فى السور المدنية من آيات جاء أسلوبها فى خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية ، ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة الأنفال - وهى مدنية : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة .

٩ - **ما يُشبه نزول المدنى فى المكى** : ويعنى العلماء به ما يقابل النوع السابق ، ويمثلون له بقوله تعالى فى سورة النجم : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ ﴾ (٣) . . قال السيوطى : فإن الفواحش كل ذنب فيه حد ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللَّمم ما بين الحدين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه (٤) .

١٠ - **ما حُملَ من مكة إلى المدينة** : ومن أمثلته سورة ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ (٥) أخرج البخارى عن البرَّاء بن عازب قال : « أول مَن قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ : مصعب بن عمير ، وابن أُم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبى ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، فما جاء حتى قرأتُ :

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الأنفال : ٣٢ (٣) النجم : ٣٢

(٤) الإتقان : (١/ ١٨) . (٥) الأعلى : ١ .

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فى سور مثلها » ، وهذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلَّموه الأنصار .

١١ - ما حُملَ من المدينة إلى مكة : ومن أمثلته أول سورة « براءة » ، حيث أمَّرَ رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج فى العام التاسع ، فلما نزل صدر سورة « براءة » حمَّله رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر حتى يُبَلِّغ المشركين به ، فأذَّن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك .

١٢ - ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً : أكثر القرآن نزل نهاراً ، أما ما نزل باللَّيل فقد تتبعه القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى ، واستخرج له أمثلة منها : أواخر آل عمران : أخرج ابن حبَّان فى صحيحه ، وابن المنذر ، وابن مردويه وابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها : أن بلالاً أتى النبى ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكى ، فقال : يا رسول الله . . ما يبكيك ؟ قال : « وما يمنعنى أن أبكى وقد أُنْزِلَ علىّ هذه اللَّيلة : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) . . ثم قال :

ومنها : آية الثلاثة الذين خُلِّفوا ، ففى الصحيحين من حديث كعب : « فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من اللَّيل » (٢) .

ومنها : أول سورة الفتح ، ففى البخارى من حديث عمر : « لقد نزلت علىّ اللَّيلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، فقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (٣) . .

---

(١) آل عمران : ١٩٠

(٢) ﴿ لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة : ١١٧ - ١١٨) ، وهم الذين قبل الله عذرهم فى التخلف بغزوة تبوك .

(٣) الفتح : ١

١٣ – ما نزل صيفًا وما نزل شتاءً : ويمثل العلماء لما نزل صيفًا بآية الكَلالة التى فى آخر سورة النساء ، ففى صحيح مسلم عن عمر : « ما راجعتُ رسول الله ﷺ فى شيء ما راجعته فى الكَلالَة ، وما أغلظ فى شيء ما أغلظ لى فيه ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى ، وقال : يا عمر : ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » ؟ (١) .

ومن أمثلته الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك ، فإنها كانت فى الصيف فى شدة الحر كما فى القرآن نفسه (٢) .

ويمثلون للشتائى بآيات حديث الإفك فى سورة النور : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُواْ بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ (٣) ... إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(٤)، ففى الصحيح عن عائشة : « أنها نزلت فى يوم شات » .

ومن أمثلته الآيات التى فى غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت فى شدة البرد : أخرج البيهقى فى « دلائل النبوَّة » عن حذيفة قال : « تفرَّق الناس عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثنى عشر رجلاً ، فأتانى رسول الله ﷺ فقال : قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، قلت : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء ، من البرد ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٥) ..

١٤ – ما نزل فى الحَضَر وما نزل فى السَّفَر : أكثر القرآن نزل فى الحَضَر ، ولكن حياة رسول الله ﷺ كانت عامرة بالجهاد والغزو فى سبيل الله حيث يتنزل عليه

---

(١) ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكَلالَةِ ﴾ (النساء : ١٧٦) ، والكلالة كما فى صريح الآية : الميت الذى لا ولد له ولا مال يورث .

(٢) وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم : ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُواْ فِى الحَرِّ ﴾ ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرا ، لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨١) .

(٣) النور : ١١ (٤) النور : ٢٦ (٥) الأحزاب : ٩

الوحى فى مسير ، وقد ذكر السيوطى لما نزل فى السفر كثيرًا من الأمثلة [1] . . منها أول سورة الأنفال ، نزلت ببدر عقب الواقعة ، كما أخرجه أحمد عن سعد بن أبى وقاص - وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [2] . . أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت فى بعض أسفاره ﷺ - وأول سورة الحج ، أخرج الترمذى والحاكم عن عمران بن حصين قال : « لما نزلت على النبى ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] . . . إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ [4] . . أنزلت عليه هذه وهو فى سفر ، وسورة الفتح ، أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : « نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها » .

* * *

● فوائد العلم بالمكى والمدنى :

وللعلم بالمكى والمدنى فوائد أهمها :

(أ) **الاستعانة به فى تفسير القرآن** : فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا ، وإن كانت العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب ، ويستطيع المفسِّر فى ضوء ذلك عند تعارض المعنى فى آيتين أن يُميِّز بين الناسخ والمنسوخ ، فإن المتأخر يكون ناسخًا للمتقدم .

(ب) **تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها فى أسلوب الدعوة إلى الله** : فإن لكل مقام مقالاً ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معانى البلاغة ، وخصائص أسلوب المكى فى القرآن والمدنى منه تعطى الدارس منهجًا لطرائق الخطاب فى الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب ، ويمتلك عليه لُبُّه ومشاعره ، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا

---

(١) « الإتقان » (١/١٨) وما بعدها .
(٢) التوبة : ٣٤
(٣) الحج : ١
(٤) الحج : ٢

واضحًا جليا بأساليب القرآن المختلفة فى مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

(جـ) **الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية** : فإن تتابع الوحى على رسول الله ﷺساير تاريخ الدعوة بأحداثها فى العهد المكى والعهد المدنى منذ بدأ الوحى حتى آخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذى لا يدع مجالاً للشك فيما رُوِىَ عن أهل السير موافقًا له ، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات .

* * *

معرفة المكى والمدنى وبيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء فى معرفة المكى والمدنى على منهجين أساسيين : المنهج السماعى النقلى ، والمنهج القياسى الاجتهادى .

والمنهج السماعى النقلى يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحى ، وشاهدوا نزوله ، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه ، ومعظم ما ورد فى المكى والمدنى من هذا القبيل ، وفى الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك ، وقد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور ، ومؤلفات أسباب النزول ، ومباحث علوم القرآن ، ولم يرد عن رسول الله ﷺ شىء فى ذلك ، حيث إنه ليس من الواجبات التى تجب على الأمة إلا بالقدر الذى يُعرف به الناسخ والمنسوخ ، قال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى فى «الانتصار » : « إنما يُرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن رسول الله ﷺ فى ذلك قول لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول » (١) .

والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكى وخصائص المدنى ، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدنى أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد فى السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكى أو تتضمن شيئًا

---

(١) انظر « الإتقان » (١/ ٩) .

من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وُجِدَ في السورة خصائص المكى قالوا إنها مكية ، وإذا وُجِدَ فيها خصائص المدنى قالوا إنها مدنية ، وهذا قياس اجتهادى ، ولذا قالوا مثلاً: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية ، وهكذا . قال الجعبرى : « لمعرفة المكى والمدنى طريقان : سماعى وقياسى » (١) ولا شك أن السماعى يعتمد على النقل ، والقياسى يعتمد على العقل والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى .

* * *

● **الفرق بين المكى والمدنى :**

للعلماء فى الفرق بين المكى والمدنى ثلاثة آراء اصطلاحية ، كل رأى منها بُنِىَ على اعتبار خاص .

الأول : اعتبار زمن النزول ، فالمكى : ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ، والمدنى : ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة ، فما نزل بعد الهجرة ، ولو بمكة، أو عرفة : مدنى ، كالذى نزل عام الفتح ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (٢) ، فإنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم ، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ (٣) وهذا الرأى أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده .

الثانى : اعتبار مكان النزول ، **فالمكى** : ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية ، **والمدنى** : ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقُباء وسلع .

ويترتب على هذا الرأى عدم ثنائية القسمة وحصرها ، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة (٤) ، فلا يسمى مكيا ولا مدنيا ، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيا .

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ١٧) .　　　(٢) النساء : ٥٨

(٣) فى « الصحيح » عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع - (والآية من سورة المائدة : ٣) .

(٤) فسورة « الفتح » نزلت بالسفر ، وقوله تعالى فى سورة التوبة : ٤٢ : ﴿ لَوْ كَانَ =

الثالث : اعتبار المخاطب ، فالمكى : ما كان خطابًا لأهل مكة ، **والمدنى** : ما كان خطاباً لأهل المدينة .

وينبنى على هذا الرأى عند أصحابه أن ما فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مكى ، وما فيه من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ مدنى .

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفتتح بأحد الخطابين ، وأن هذا الضابط لا يطرد ، فسورة البقرة مدنية ، وفيها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .. وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُو مُّبِينٌ ﴾ (٢) ، وسورة النساء مدنية وأولها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ سورة الحج مكية ، وفيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين ، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم ، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها .

* * *

مميزات المكى والمدنى

استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية ، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكى والمدنى ، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التى يتناولها . وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات .

● ضوابط المكى ومميزاته الموضوعية :

١ - كل سورة فيها سجدة فهى مكية .

= عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ ﴾ نزل بتبوك ، وقوله : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا ﴾ فى سورة الزخرف : ٤٥ ، نزل ببيت المقدس ليلة الإسراء .

(١) البقرة : ٢١ (٢) البقرة : ١٦٨ (٣) الحج : ٧٧

٢ - كل سورة فيها لفظ « كلا » فهى مكية ، ولم ترد إلا فى النصف الأخير من القرآن . وذُكرت ثلاثًا وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة .

٣ - كل سورة فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وليس فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهى مكية ، إلا سورة الحج ففى أواخرها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ ﴾ (١) . . ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك .

٤ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية سوى البقرة .

٥ - كل سورة فيها آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة كذلك .

٦ - كل سورة تفتح بحروف التهجى كـ « ألم » و« الر » و« حم » ونحو ذلك فهى مكية سوى الزهراوين ، وهما : البقرة وآل عمران ، واختلفوا فى سورة الرعد .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :

١ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وهولها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية ، والآيات الكونية .

٢ - وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التى يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء ، وأكل أموال اليتامى ظلمًا ، ووأد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات .

٣- ذكر قصص الأنبياء ، والأمم السابقة زجرًا لهم حتى يعتبروا بمصير المكذِّبين قبلهم ، وتسلية لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم .

٤ - قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصخ الآذان ، ويشتد

---

(١) الحج : ٧٧

قرعه على المسامع ، ويصعق القلوب ، ويؤكد المعنى بكثرة القَسَم ، كقصار المفصل إلا نادرًا .

* * *

● ضوابط المدنى ومميزاته الموضوعية :

١ - كل سورة فيها فريضة أو حد فهى مدنية .

٢ - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية .

٣ - كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهى مدنية .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :

١ - بيان العبادات ، والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواريث ، وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع .

٢ - مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم .

٣ - الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين .

٤ - طول المقاطع والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها .

* * *

- ٥ -

معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل

التعبير عن تلقى رسول الله ﷺ للقرآن بنزوله عليه يُشعر بقوة يلمسها المرء فى تصور كل هبوط من أعلى . ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التى حوّلت مجرى حياة البشرية وأحدثت فيها تغيرًا ربط السماء بالأرض ، ووصل الدنيا بالآخرة ، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامى فى مصدره الأول والأصيل - وهو القرآن- تعطى الدارس صورة عن التدرج فى الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التى نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق . وقد تناول هذا أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق ، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل فى كل تشريع من تعاليم الإسلام ، كالأطعمة ، والأشربة ، والقتال ... ونحو ذلك .

وللعلماء فى أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل كذلك أقوال ، نجملها ونُرَجِّح بينها فيما يأتى :

● أول ما نزل :

١ - أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .. ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إلَيه الخلاء فكان يأتى حِراء فيتحنث فيه اللّيالى ذوات العدد ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوِّده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه المَلَك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى

---

(١) العلق : ١ - ٥

الجَهْد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغَطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجَهْدَ ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغَطَّنى الثالثة حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ . . . حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره » . . الحديث (١) .

٢ - وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . . لما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله ، أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، قلت : أو ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ؟ قال : أُحدِّثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ : « إنى جاوزت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى ، ثم نظرتُ إلى السماء ، فإذا هو - يعنى جبريل - فأخذتنى رجفة ، فأتيتُ خديجة فأمرتهم فدثرونى ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (٢) .

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة ، فبيَّن جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها ، ويؤيد هذا ما فى الصحيحين أيضاً عن أبى سلمة عن جابر ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يُحَدِّث عن فَتْرَة الوحى فقال فى حديثه : « بيْنَا أنا أمشى سمعتُ صوتًا من السماء فرفعت رأسى فإذا المَلَك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعتُ ، فقلت : زَمِّلُونى ، فدثرونى ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . . فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء - أو تكون « المدثر » أول سورة نزلت بعد فَتْرَة الوحى - وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده فَتُقدِّم عليه رواية عائشة ، ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق :

---

(١) التحنث : التعبد ، وأصله ترك الحنث ، أى الذنب ، وغطَّنى : أى ضمنى ضمًا شديدًا ، حتى كان لى غطيط ، وهو صوت من حُبِسَت أنفاسه بما يشبه الخنق ، والجَهْد : - بفتح الجيم - يُطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة - وبضمها : يُطلق على الوسع والطاقة لا غيره .

(٢) المدثر : ١ - ٢

﴿اقْرَأْ﴾ وأول سورة نزلت كاملة ، أو أول ما نزل بعد فَتْرَة الوحى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . . أو أول ما نزل للرسالة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . . وللنبوَّة ﴿ اقْرَأْ ﴾ .

٣ - وقيل إن أول ما نزل هو سورة « الفاتحة » ولعل المراد أول سورة كاملة .

٤ - وقيل : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ والبسملة تنزل صدرًا لكل سورة ، ودليل هذين أحاديث مرسلة ، والقول الأول المؤيِّد بحديث عائشة هو القول الراجح المشهور .

وقد ذكر الزركشى فى « البرهان » حديث عائشة الذى نص على أن أول ما نزل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ وحديث جابر الذى نص على أن أول ما نزل : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ، ثم قال : « وجمع بعضهم بينهما بأن جابرًا سمع النبى ﷺ يذكر قصة بدء الوحى ، فسمع آخرها ، ولم يسمع أولها ، فتوَّهم أنها أول ما نزلت ، وليس كذلك ، نعم هى أول ما نزل بعد سورة ﴿ اقْرَأْ ﴾ وفَتْرَة الوحى ، لما ثبت فى الصحيحين أيضًا عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُحَدِّث عن فَتْرَة الوحى ، قال فى حديثه : « بينما أنا أمشى ، سمعتُ صوتًا من السماء ، فرفعتُ رأسى ، فإذا المَلَك الذى جاءنى بحِراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثتُ منه فرقًا (١) ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ .

فقد أخبر فى هذا الحديث عن المَلَك الذى جاءه بحِراء قبل هذه المرة ، وأخبر فى حديث عائشة أن نزول ﴿ اقْرَأْ ﴾ كان فى غار حِراء ، وهو أول وحى ، ثم فَتَرَ بعد ذلك ، وأخبر فى حديث جابر أن الوحى تتابع بعد نزول : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فعُلِم بذلك أن ﴿ اقْرَأْ ﴾ أول ما نزل مطلقاً ، وأن سورة المدثر بعده » ، وكذلك قال ابن حبان فى صحيحه : لا تضاد بين الحديثين ، بل أول ما نزل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ بغار حِراء ، فلما رجع إلى خديجة رضى الله عنها وصبت عليه

(١) جئثت : فزعت ، وفى « صحيح البخارى » : (فرعبت منه) .

الماء البارد ، أنزل الله عليه فى بيت خديجة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. فظهر أنه لما نزل عليه ﴿ اقْرَأْ ﴾ رجع فتدثر ، فأنزل عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ..

وقيل : أول ما نزل سورة الفاتحة : رُوِىَ ذلك من طريق أبى إسحاق عن أبى ميسرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الصوت انطلق هاربًا ، وذكر نزول المَلَك عليه وقوله : قل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ... إلى آخرها .

وقال القاضى أبو بكر فى « الانتصار » : وهذا الخبر منقطع ، وأثبت الأقاويل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ويليه فى القوة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وأول ما نزل من أوامر التبليغ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة ، وهذا كما ورد فى الحديث : « أول ما يُحاسَب به العبد الصلاة » (١) ، و« أول ما يُقْضَى فيه الدماء » (٢) ، وجمع بينهما بأن أول ما يُحكم فيه من المظالم التى بين العباد الدماء. وأول ما يُحاسَب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة .

وقيل : أول ما نزل للرسالة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. وللنبوّة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فإن العلماء قالوا : قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ دال على نبوّة محمد ﷺ ، لأن النبوّة عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان المَلَك بتكليف خاص ، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ دليل على رسالته ﷺ ، لأنها عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان المَلَك بتكليف عام » (٣) .

● آخر ما نزل :

١ – قيل : آخر ما نزل آية الربا ، لما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال :

---

(١) نقله السيوطى فى « الجامع الصغير » عن الطبرانى ، ولفظه : « أول ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح له سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله » .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الديَّات » ، ولفظه : « أول ما يُقضى بين الناس فى الدماء».

(٣) انظر : « البرهان فى علوم القرآن » للزركشى ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (٢٠٦/١) وما بعدها .

« آخر آية نزلت آية الربا » والمراد بها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُوا اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ (١) .

٢ – وقيل : آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ . . . ﴾ (٢) . . . والآية ، لما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخر شىء نزل من القرآن : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ . . .الآية .

٣ – وقيل : آخر ما نزل آية الدَّيْن ، لما روى عن سعيد بن المسيب : « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدًا بالعرش آية الدَّيْنِ » والمراد بها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَاكْتُبُوهُ ﴾ (٣) . . . الآية .

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ، آية الربا ، فآية : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ فآية الدَّيْنِ ، لأنها فى قصة واحدة ، فأخبر كل راوٍ عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح ، وبهذا لا يقع التنافر بينها .

٤ – وقيل : آخر ما نزل آية الكَلالة ، فقد روى الشيخان عن البرَّاء بن عازب قال : آخر آية نزلت : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكَلَالَةِ ﴾ (٤) . . . الآية ، وحُمِلَتْ الآخرية هنا فى قول البرَّاء على أنها مقيَّدَة بما يتعلق بالمواريث .

٥ – وقيل : آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾(٥) . . . إلى آخر السورة ، ففى المستدرك عن أُبَىّ بن كعب قال : آخر آية نزلت : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ . . . إلى آخر السورة ، وحُمِلَ هذا على أنها آخر ما نزل من سورة « براءة » .

ففيما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند عن أُبَىّ بن كعب أن رسول

---

(١) البقرة : ٢٧٨ (٢) البقرة : ٢٨١ (٣) البقرة : ٢٨٢
(٤) النساء : ١٧٦ (٥) التوبة : ١٢٨

الله ﷺ أقرأه هاتين الآيتين : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ . . . إلى قوله: ﴿ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ فى آخر سورة براءة .

٦ - وقيل : آخر ما نزل سورة المائدة ، لما رواه الترمذى والحاكم فى ذلك عن عائشة رضى الله عنها ، وأجيب بأن المراد أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام ، فلم تُنسخ فيها أحكام .

٧ - وقيل : آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ (١) . . لما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أمُ سَلَمة أنها قالت : « آخرَ آية نزلت هذه الآية : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم ﴾ . . . إلى آخرها ، وذلك أنها قالت : يا رسول الله . . أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء ، فنزلت: ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٢) ، ونزلت : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ (٣) ، ونزلت هذه الآية ، فهى آخر الثلاثة نزولاً ، وآخر ما نَزَل بعد ما كان ينزل فى الرجال خاصة » .

ويتضح من الرواية أن الآية المذكورة آخر الآيات الثلاثة نزولاً ، وأنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذُكِرَ فيه النساء .

٨ - وقيل : آخر ما نزل آية : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٤) . . لما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس قال : هذه الآية : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هى آخر ما نزل وما نسخها شىء . والتعبير بقوله : « وما نسخها شىء » يدل على أنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمدًا .

٩ - وأخرج مسلم عن ابن عباس قال : « آخر سورة نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٥) ، وحُملَ ذلك على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشْعِرًا بوفاة النبى ﷺ كما فهم بعض الصحابة ، أو أنها آخر ما نزل من السور .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ (٢) النساء : ٣٢ (٣) الأحزاب : ٣٥
(٤) النساء : ٩٣ (٥) أى سورة النصر .

وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبى ﷺ . وكل قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كُلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول ، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل فى تشريع خاص ، أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذى خرَّجنا به كل قول منها .

أما قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع ، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما رُوِىَ فى نزول آية الربا ، وآية الدَّيْن ، وآية الكَلالَة ، وغيرها بعد ذلك ، لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين فى هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، وحجهم وحدهم دون أن يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، وقد كان المشركون يحجون معهم من قبل وذلك من تمام النعمة : ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى « الانتصار » مُعَلِّقًا على اختلاف الروايات فى آخر ما نزل : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبى ﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كُلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو ، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التى هى آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك ، فيظن أنه آخر ما نزل فى الترتيب » (٢) .

* * *

● أوائل موضوعية :

وتناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة ، ومن ذلك :

---

(١) المائدة : ٣

(٢) انظر « الإتقان » (١/ ٢٧) ، ونص العبارة الأخيرة فى الزركشى : « فيؤمر برسم ما نزل معها وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرًا وتلاوته ، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل فى الترتيب » انظر « البرهان » (١/ ٢١٠) ، وفى نقل « الإتقان » شيء من التحريف .

١ - أول ما نزل فى الأطعمة : أول آية نزلت بمكة آية الأنعام : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) . .

ثم آية النحل : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) . .

ثم آية البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

ثم آية المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) . .

٢ - أول ما نزل فى الأشربة : أول آية نزلت فى الخمر آية البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (٥) . .

---

(١) الأنعام : ١٤٥ — (٢) النحل : ١١٤ - ١١٥ — (٣) البقرة : ١٧٣

(٤) المائدة : ٣ — (٥) البقرة : ٢١٩

ثم آية النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (١) . .

ثم آية المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ، فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (٢) .

عن ابن عمر قال : « نزل فى الخمر ثلاث آيات ، فأول شىء : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ . . . الآية ، فقيل : حُرِّمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى ﴾ فقيل : حُرِّمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله . . ألا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ، ثم نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : حُرِّمت الخمر » (٣) .

٣ - أول ما نزل فى القتال : عن ابن عباس قال : أول آية نزلت فى القتال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٤) .

❋ ❋ ❋

● **فوائد هذا المبحث** :

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل فوائد أهمها :

(أ) **بيان العناية التى حظى بها القرآن الكريم صيانة له وضبطًا لآياته** : فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية ، فعرفوا متى نزلت ؟ وأين نزلت ؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله ﷺ ما ينزل عليه من القرآن تلقى المؤمنين لأصول دينهم ، ومبعث

---

(١) النساء : ٤٣ (٢) المائدة : ٩٠ - ٩١ (٣) رواه الطيالسى فى مسنده .
(٤) رواه الحاكم فى « المستدرك » - (والآية من سورة الحج : ٣٩) .

إيمانهم ، ومصدر عزهم ومجدهم ، وكان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

(ب) **إدراك أسرار التشريع الإسلامى فى تاريخ مصدره الأصيل** : فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء ، وأخذت الناس بالأساليب الحكيمة التى ترقى بنفوسهم فى سلم الكمال ، وتدرجت بهم فى الأحكام التى يستقيم بها منهج حياتهم على الحق ، وتنتظم شئون مجتمعهم على الطريق الأقوم .

(ج) **تمييز الناسخ من المنسوخ** : فقد ترد الآيتان أو الآيات فى موضع واحد ، ويختلف الحكم فى إحداها عن الأخرى ، فإذا عُرِفَ ما نزل أولاً وما نزل آخرًا كان حكم ما نزل آخرًا ناسخًا لحكم ما نزل أولاً .

* * *

(١) الحجر : ٩

- ٦ -

أسباب النزول

نزل القرآن ليهدى الإنسانية إلى المحجة الواضحة ، ويرشدها إلى الطريق المستقيم ، ويقيم لها أُسس الحياة الفاضلة التى تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته ، ويقرر أحوال الماضى ، ووقائع الحاضر ، وأخبار المستقبل .

وأكثر القرآن نزل ابتداءً لهذه الأهداف العامة ، ولكن الصحابة رضى الله عنهم فى حياتهم مع رسول الله ﷺ قد شاهدوا أحداث السيرة ، وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه ، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله ﷺ عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه ، فيتنزل القرآن لذلك الحادث ، أو لهذا السؤال الطارئ ، ومثل هذا عُرف بأسباب النزول .

● عناية العلماء به :

وقد اعتنى الباحثون فى علوم القرآن بمعرفة سبب النزول ، ولمسوا شدة الحاجة إليه فى تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف ، ومن أشهرهم : « علىّ بن المدينى » شيخ البخارى ، ثم « الواحدى » (١) ، فى كتابه « أسباب النزول » ، ثم «الجعبرى » (٢) ، الذى اختصر كتاب « الواحدى » بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئاً ، ثم شيخ الإسلام « ابن حجر » (٣) الذى ألَّف كتابًا فى أسباب النزول أطلع السيوطى على جزء من مسودته ولم يتيسر له الوقوف عليه كاملاً ، ثم

---

(١) هو أبو الحسن علىّ بن أحمد النحوى المفسر ، توفى سنة ٤٢٧ هجرية .

(٢) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر ، كان له عناية بعلوم القرآن ، فألَّف « روضة الطرائف فى رسم المصاحف » ، و« كنز المعانى » وهو شرح للشاطبية فى القراءات . توفى سنة ٧٣٢ هجرية .

(٣) هو أبو الفضل شهاب الدين الحافظ ابن حجر العسقلانى واسمه أحمد بن علىّ - يُنسب إلى عسقلان بفلسطين ، كان له عناية بالحديث ، واشتهر بعلومه ، وكتبه عماد فى هذا الفن - توفى سنة ٨٥٢ هجرية .

« السيوطى » (١) الذى قال عن نفسه : « وقد أَلّفت فيه كتابًا حافلاً موجزًا محررًا لم يُؤلّف مثله فى هذا النوع ، سميته « لُباب المنقول فى أسباب النزول » (٢) .

* * *

ما يُعتَمد عليه فى معرفة سبب النزول

والعلماء يعتمدون فى معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة ، فإن إخبار الصحابى عن مثل هذا إذا كان صريحًا لا يكون بالرأى ، بل يكون له حكم المرفوع ، قال الواحدى : « لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وَجدُّوا فى الطلب » وهذا هو نهج علماء السَلَف ، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً فى ذلك دون تثبت ، قال « محمد بن سيرين » (٣) : سألت « عَبيدة » (٤) عن آية من القرآن فقال : اتَّقِ الله وقل سدادًا ، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن ، وهو يعني الصحابة ، وإذا كان هذا هو قول « ابن سيرين » من أعلام علماء التابعين تحريًا للرواية ، ودقة فى النقل ، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة ، ولذا فإن المعتمَد من ذلك فيما رُوِىَ من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند ، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول .

وذهب « السيوطى » إلى أن قول التابعى إذا كان صريحًا فى سبب النزول فإنه يُقْبَل، ويكون مُرْسلاً ، إذا صح المُسْنَد إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعِكرمة وسعيد بن جبير ، واعتضد بمرسل آخر (٥) .

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية .

(٢) انظر « الإتقان » (١/ ٢٨) .

(٣) تابعى من علماء البصرة ، اشتهر بعلوم الحديث ، وتعبير الرؤيا ، وتوفى سنة ١١٠ هجرية .

(٤) هو عَبيدة - بالفتح - بن عمرو السلمانى ، أسلم قبل وفاة النبى ﷺ بسنتين ولم يلقه ، وكان ابن سيرين من أروى الناس عنه .

(٥) انظر « الإتقان » (١/ ٣١) .

وقد أخذ « الواحدى » على علماء عصره تساهلهم فى رواية سبب النزول ، ورماهم بالإفك والكذب ، وحذَّرهم من الوعيد الشديد ، حيث يقول : « أما اليوم فكل أحد يخترع شيئاً ، ويختلق إفكًا وكذبًا ، ملقيًا زمامه إلى الجهالة ، غير مفكر فى الوعيد للجاهل بسبب الآية » .

* * *

تعريف السبب

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصرًا على أمرين :

١ - أنْ تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها ، وذلك كالذى رُوِىَ عن ابن عباس قال : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (١) . . خرج النبى ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِىَّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدىّ عذاب شديد ، فقال أبو لهب (٢) : تبًا لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام : فنزلت هذه السورة : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٣) .

٢ - أن يُسأل رسول الله ﷺ عن شىء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه ، كالذى كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظَاهَرَ (٤) منها زوجها أوس بن الصامت ، فذهبت تشتكى من ذلك ، عن عائشة قالت : « تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علىّ بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ونثرتُ له بطنى حتى إذا كبر سِنِّى وانقطع ولدى ظَاهَرَ منى ! اللَّهُمَّ إنى أشكو إليك ، قالت : فما بَرِحَتْ حتى نزل

---

(١) الشعراء : ٢١٤

(٢) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما - (والآية من سورة المسد : ١) .

(٤) الظِّهار : أن يقول الرجل لامرأته : أنتِ علىّ كظهر أمى ، واختلفوا فى غير هذه الصيغة .

جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [1] وهو أوس بن الصامت »[2] .

ولا يعنى هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سببًا ، فإن القرآن لم يكن نزوله وفقًا على الحوادث والوقائع ، أو على السؤال والاستفسار ، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً ، بعقائد الإيمان ، وواجبات الإسلام ، وشرائع الله تعالى فى حياة الفرد وحياة الجماعة، قال « الجعبرى » : « نزل القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداءً ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال » [3] .

ولذا يُعرَّف سبب النزول بما يأتى : « هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال » .

ومن الإفراط فى علم سبب النزول أن نتوسَّع فيه ، ونجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية ، والوقائع الغابرة ، قال السيوطى : « والذى يتحرر فى سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدى فى تفسيره فى سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول فى شىء ، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذلك ذكره فى قوله : ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [4] سبب اتخاذه خليلاً ، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى» [5] .

* * *

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها :

---

(١) المجادلة : ١

(٢) أخرجه ابن ماجه وابن أبى حاتم ، والحاكم ، وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى .

(٣) انظر : « الإتقان » (١/ ٢٨) .

(٤) النساء : ١٢٥

(٥) انظر : « الإتقان » (١/ ٣١) .

(أ) بيان الحكمة التى دعت إلى تشريع حكم من الأحكام وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة فى علاج الحوادث رحمة بالأمة .

(ب) تخصيص حكم ما نزل إن كان بصيغة العموم بالسبب عند مَن يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللَّفظ ، وهى مسألة خلافية سيأتى لها مزيد من الإيضاح ، وقد يُمثَّل لهذا بقوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ العَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) ، فقد رُوِىَ أن مروان قال لبوَّابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أُوتِىَ وأحب أن يُحْمَد بما لم يفعل يُعَذَّب لنعذبن أجمعون : فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ، إنما نزلت فى أهل الكتاب . ثم قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ﴾ (٢) . . . الآية . قال ابن عباس : سألهم رسول الله ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخذوا بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أُوتوا من كتمان ما سألهم عنه » (٣) .

(ج) إذا كان لفظ ما نزل عاما وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تُقصر التخصيص على ما عدا صورته ، ولا يصح إخراجها ، لأن دخول صورة السبب فى اللَّفظ العام قطعى ، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظنى ، وهذا هو ما عليه الجمهور وقد يُمثَّل لهذا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٤) . . فإنَّ هذه الآية نزلت فى عائشة خاصة ، أو فيها وفى سائر أزواج النبى ﷺ ، « عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ

---

(١) آل عمران : ١٨٨

(٢) آل عمران : ١٨٧

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٤) النور : ٢٣ - ٢٥

المُحْصَنَات ﴾ . . . الآية : نزلت فى عائشة خاصة » (١) ، وعن ابن عباس فى هذه الآية أيضاً : « هذه فى عائشة وأزواج النبى ﷺ ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى ﷺ التوبة - ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف وإن كَان مُخَصَّصًا لعموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٣) لا يتناول بالتخصيص مَن قذف عائشة ، أو قذف سائر أزواج النبى ﷺ ، فإن هذا لا توبة له ، لأن دخول صورة السبب فى اللَّفظ العام قطعى .

(د) ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معانى القرآن ، وكشف الغموض الذى يكتنف بعض الآيات فى تفسيرها ما لم يُعرف سبب نزولها ، قال الواحدى : « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » وقال ابن دقيق العيد : « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن » وقال ابن تيمية : « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » (٤) ، ومن أمثلة ذلك : ما أشكل على مروان بن الحكم فى فهم الآية الآنفة الذكر : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) حتى أورد له ابن عباس سبب النزول .

ومثله آية : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٦) ،

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه (راجع « تفسير ابن جرير» ، و« تفسير ابن كثير ») - والآيتان من سورة النور : ٤ - ٥

(٣) النور : ٢٣

(٤) انظر « الإتقان » (١/ ٢٨) .

(٥) آل عمران : ١٨٨

(٦) البقرة : ١٥٨

فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضى أن السعى فرض ، لأن رفع الجُناح يفيد الإباحة لا الوجوب ، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكًا بالظاهر [١] ، وقد ردت عائشة على عروة بن الزبير فى فهمه ذلك بما ورد فى سبب نزولها ، وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما لأنه من عمل الجاهلية ، حيث كان على الصفا أساف ، وعلى المروة نائلة ، وهما صنمان ، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما : « عن عائشة أن عروة قال لها : أرأيت قول الله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ؟ فما أرى على أحد جُناحًا أن لا يَطَّوَّف بهما ؟ فقالت عائشة : بئس ما قلت يابن أختى ، إنها لو كانت على ما أوَّلتها كانت : فلا جناح عليه أن لا يَطَّوَّف بهما ، ولكنها إنما أنزلت ، أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يُهلُّونَ لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها ، وكان مَن أهلَّ لها يتحرج أن يطوَّف بالصفا والمروة فى الجاهلية ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ .. الآية ، قالت عائشة : ثم قد بيَّن رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما » [٢] .

(هـ) ويوضح سبب النزول مَن نزلت فيه الآية حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل ، كالذى ذُكرَ فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَق فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [٣] فقد أراد « معاوية » أن يستخلف « يزيد » وكتب إلى « مروان » عامله على المدينة بذلك ، فجمع الناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة « يزيد » فأَبَى عبد الرحمن بن أبى بكر أن يبايع ، فأراده «مروان » بسوء لولا أن دخل بيت عائشة ، وقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه:

---

(١) حكى الزمخشرى فى « الكشاف » عن أبى حنيفة أنه يقول : إن السعى واجب وليس بركن وعلى تاركه دم – وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين .

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما .

(٣) الأحقاف : ١٧

﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِى ﴾ فردت عليه عائشة وبيَّنت له سبب نزولها ، « عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر شيئاً ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أُنْزِلَ فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ فقالت عائشة : « ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أَنزلَ عذرى » (١) ، وفى بعض الروايات : « إن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال : سُنَّة أبى بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : سُنَّة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذى قال الله فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ .. الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته » (٢) .

* * *

العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب

إذا اتفق ما نزل مع السبب فى العموم ، أو اتفق معه فى الخصوص ، حُمِلَ العام على عمومه ، والخاص على خصوصه

ومثال الأول قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذَىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى المَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٣) عن أنس قال : « إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت ، فسُئِلَ رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله :

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) أخرجه عبد بن حميد والنسائى ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن محمد بن زياد ، قال : لما بايع مروان لابنه قال مروان .. إلخ .

(٣) البقرة : ٢٢٢

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ . . . الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « جامعوهن فى البيوت ، واصنعوا كل شىء إلا النكاح » (١) .

ومثال الثانى قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذى يُؤْتى مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ (٢) فإنها نَزلت فى أبى بكر ، والأتقى : أفعل تفضيل مقرون : بـ « الـ » العهدية فيختص بمن نزل فيه ، وإنما تفيد « الـ » العموم إذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع على الراجح ، و« الـ » فى « الأتقى » ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل ، و« الأتقى » ليس جمعًا ، بل هو مفرد ، والعهد موجود لا سيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز ، وذلك كاف فى قصر الآية على مَن نزلت فيه ، ولذا قال الواحدى : الأتقى أبو بكر الصدِّيق فى قول جميع المفسرين : « عن عروة أن أبا بكر الصدِّيق أعتق سبعة كلهم يُعَذَّب فى الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، والنهدية وابنتها ، وأُم عيسى ، وأَمة بنى المؤمل ، وفيه نزلت : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ . . إلى آخر السورة (٣) ، ورُوِىَ نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير وزاد فيه : « فنزلت هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ (٤) . . . إلى قوله : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ (٥) .

أما إذا كان السبب خاصًا ونزلت الآية بصيغة العموم فقد اختلف الأصوليون : أتكون العبرة بعموم اللَّفظ أم بخصوص السبب ؟

١ - فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب ، فالحكم الذى يؤخذ من اللَّفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللِّعان التى نزلت فى قذف هلال بن أميَّة زوجته : « فعن ابن عباس : أن هلال ابن أُميَّة قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبى ﷺ : « البيِّنَةُ وإلا حد فى ظهرك » ، فقال : يا رسول الله . . إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً

---

(١) أخرجه مسلم وأهل السنن وغيرهم . (٢) الليل : ١٧ - ٢١
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم . (٤) الليل : ٥ (٥) أخرجه الحاكم وصححه .

ينطلق يلتمس البيِّنة ؟ فجعل رسول الله يقول : « البيِّنةُ وإلا حد فى ظهرك » ، فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولَيُنزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد ، ونزل جبريل فأنزل عليه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (١) .. حتى بلغ : ﴿ إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) ، (٣) .. فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر .

وهذا هو الرأى الراجح والأصح ، وهو الذى يتفق مع عموم أحكام الشريعة ، والذى سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها ، كنزول آية الظهار فى أوس بن الصامت ، أو سلمة بن صخر - على اختلاف الروايات فى ذلك ، والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم ، قال ابن تيمية : « قد يجئ هذا كثيراً ومن هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت فى كذا ، لا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم : إن آية الظهار نزلت فى امرأة أوس بن الصامت ، وإن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله ، وأن قوله : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم ﴾ (٤) نزلت فى بنى قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من اليهود والنصارى ، أو فى قوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق ، والناس وإن تنازعوا فى اللَّفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسُّنَّة تختص بالشخص المعيَّن ، وإنما غاية ما يُقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللَّفظ ، والآية التى لها سبب معين إن كانت أمرًا أو نهيا فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كان خبرًا بمدح أو يذم فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته » .

---

(١) النور : ٦
(٢) النور : ٩
(٣) أخرجه البخارى والترمذى وابن ماجه .
(٤) المائدة : ٤٩

٢ - وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللَّفظ ، فاللَّفظ العام دليل على صورة السبب الخاص ، ولابد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه ، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة ، ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب .

* * *

صيغة سبب النزول

صيغة سبب النزول إما أن تكون نصا صريحًا فى السببية ، وإما أن تكون محتملة .

فتكون نصا صريحًا فى السببية إذا قال الراوى : « سبب نزول هذه الآية كذا » ، أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال ، كما إذا قال : « حدث كذا » ، أو « سُئِلَ رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت الآية » - فهاتان صيغتان صريحتان فى السببية سيأتى لهما أمثلة (١) .

وتكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الراوى : «نزلت هذه الآية فى كذا » فذلك يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أنه داخل فى معنى الآية .

وكذلك إذا قال : « أحسب هذه الآية نزلت فى كذا » أو « ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى كذا » فإن الراوى بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب - فهاتان صيغتان تحتملان السببية وغيرها كذلك . ومثال الصيغة الأولى ما رُوِىَ عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلَتْ : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ (٢) . .الآية ، فى إتيان النساء فى أدبارهن » (٣) .

ومثال الصيغة الثانية ما رُوِىَ عن عبد الله بن الزبير « أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة ، وكانا

---

(١) انظر أمثلة تعدد الروايات فى سبب النزول التى ستأتى بعد هذه الفقرة .

(٢) البقرة : ٢٢٣ (٣) أخرجه البخارى .

يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصارى : سرِّح الماء يمر ، فأبى عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « اسق يا زبير ، ثم أرسِل الماء إلى جارك » ، فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله ، آن كان ابن عمتك ؟ فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجُدر ، ثم أرسِل الماء إلى جارك » ، واسترعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ رسول الله الأنصارى استرعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية إلا فى ذلك : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) قال ابن تيمية : «قولهم : نزلت هذه الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب ، وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى : «نزلت هذه الآية فى كذا » ، هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أُنزلت لأجله أو يجرى مجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ؟ فالبخارى يُدخله فى المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سببًا نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند » (٢) وقال الزركشى فى البرهان : « قد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : « نزلت هذه الآية فى كذا » فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب فى نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع » (٣) .

* * *

تعدد الروايات فى سبب النزول

قد تتعدَّد الروايات فى سبب نزول آية واحدة ، وفى مثل هذه الحالة يكون موقف المفسِّر منها على النحو الآتى :

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم - (والآية من سورة النساء : ٦٥) .
(٢) المراد بالإسناد هنا أن يكون مسندًا إلى الرسول ﷺ ، بمعنى أن يكون مرفوعاً ، وإن كان من قول الصحابى ، لأنه لا مجال للاجتهاد فيه .
(٣) انظر : « الإتقان » (١/ ٣١) .

(أ) إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة مثل : « نزلت هذه الآية فى كذا » أو « أحسبها نزلت فى كذا » ، فلا منافاة بينها ، إذ المراد التفسير ، وبيان أن ذلك داخل فى الآية ومستفاد منها ، وليس المراد ذكر سبب النزول ، إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية .

(ب) إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله : « نزلت فى كذا » وصرَّح آخر بذكر سبب مخالف فالمُعتمَد ما هو نص فى السببية ، وتُحمل الأخرى على دخولها فى أحكام الآية ، ومثال ذلك ما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [1] : « عن نافع قال : قرأتُ ذاتَ يوم : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ فقال ابن عمر : أتدرى فيم أنزلت هذه الآية ؟ قلت : لَا ، قال : نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن » [2] فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة فى السببية . وقد جاء التصريح بذكر سبب يخالفه « عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من خلفها يخالفه « عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قُبلها جاء الولد أحول ، فنزلت : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [3] » فجابر هو المعتمَد لأن كلامه نقل صريح ، وهو نص فى السبب ، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيُحمل على أنه استنباط وتفسير .

(جـ) وإذا تعدَّدت الروايات وكانت جميعها نصا فى السببية وكان إسناد أحدها صحيحًا دون غيره فالمعتمَد الرواية الصحيحة ، مثل : ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب البجلى ، قال : « اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم يقربك ليلتين أو ثلاثة ، فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [4] » وأخرج الطبرانى وابن أبى شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه ، عن أمها – وكانت خادم رسول الله ﷺ – « أن جروًا دخل بيت النبى ﷺ ، فدخل تحت السرير ،

---

(١) البقرة : ٢٢٣
(٢) أخرجه البخارى وغيره .
(٣) أخرجه البخارى وأهل السنن وغيرهم .
(٤) الضحى : ١ – ٣

فمات ، فمكث النبى ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى ، فقال : يا خولة : ما حدث فى بيت رسول الله (ﷺ) ؟ جبريل لا يأتينى ! فقلت فى نفسى : لو هيأتُ البيت وكنسته ، فأهويتُ بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ، فجاء النبى ﷺ ترعد لحيته ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فقال : يا خولة دثّرينى فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ . . إلى قوله : ﴿ فَتَرْضَى ﴾ قال ابن حجر فى « شرح البخارى » : « قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفى إسناده مَن لا يُعرف ، فالمعتمَد ما فى الصحيحين » [1] .

(د) فإذا تساوت الروايات فى الصحة وَوُجِدَ وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلاً أو كون إحداها أصح قُدِّمت الرواية الراجحة ، ومثال ذلك ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال : « كنت أمشى مع النبى ﷺ بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه ، فقالوا : حدِّثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه ، فعرفتُ أنه يُوحَى إليه ، حتى صعد الوحى ، ثم قال : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ [2] . . وقد أخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : « قالت قريش لليهود : اعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : اسألوه عن الروح ، فسألوه فأنزل الله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ . . الآية ، فهذه الرواية تقتضى أنها نزلت بمكة حيث كانت قريش ، والرواية الأولى تقتضى أنها نزلت بالمدينة ، وتُرجِّح الرواية الأولى لحضور ابن مسعود القصة ، ثم لما عليه الأمة من تَلَقِّى صحيح البخارى بالقبول وترجيحه على ما صح فى غيره .

وقد اعتبر « الزركشى » هذا المثال من باب تعدد النزول وتكرره [3] ، فتكون هذه الآية قد نزلت مرتين : مرة بمكة ، ومرة بالمدينة ، واستند فى ذلك إلى أن سورة «سبحان» مكية بالاتفاق .

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٣٢) ، وخولة : هى خادم رسول الله ﷺ .

(٢) الإسراء : ٨٥ .

(٣) انظر : « البرهان » (١/ ٣٠) .

وإنى أرى أن كون السورة مكية لا ينفى أن تكون آية منها أو أكثر مدنية ، وما أخرجه البخارى عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى، وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً ﴾ مدنية ، فالوجه الذى اخترناه من ترجيح رواية ابن مسعود على رواية الترمذى عن ابن مسعود أولى من حمل الآية على تعدد النزول وتكرره ، ولو صح أن الآية مكية وقد نزلت جوابًا عن سؤال فإن تكرار السؤال نفسه بالمدينة لا يقتضى نزول الوحى بالجواب نفسه مرة أخرى ، بل يقتضى أن يجيب الرسول ﷺ بالجواب الذى نزل عليه من قبل .

(هـ) إذا تساوت الروايات فى الترجيح جُمِعَ بينهما إن أمكن ، فتكون الآية قد نزلت بعد السببين أو الأسباب لتقارب الزمن بينها ، كآيات اللِّعان : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (١) فقد أخرج البخارى والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس أنها نزلت فى هلال بن أُميَّة ، قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، كما ذكرنا من قبل (٢) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : « جاء عويمر إلى عاصم بن عدى ، فقال : سل رسول الله ﷺ عن رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فيُقتل به أم كيف يصنع ؟ . . . » فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أولاً ، وصادف مجىء عويمر كذلك ، فنزلت فى شأنهما معًا بعد حادثتيهما . قال ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب .

(و) إن لم يكن الجمع لتباعد الزمن فإنه يُحْمَل على تعدد النزول وتكرره ، ومثاله : ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال : « لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أميّة ، فقال : أى عم ، قل : لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال : هو على ملة

---

(١) النور : ٦ - ٩ .

(٢) انظر صفحة (٧٩) ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

عبد المطلب ، فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عنه » فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وأخرج الترمذى عن علىّ قال : « سمعتُ رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت » .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال : « خرج النبى ﷺ يومًا إلى المقابر ، فجلس إلى قبر منها ، فناجاه طويلاً ثم بكى ، فقال : « إن القبر الذى جلستُ عنده قبر أمى ، وإنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى ، فأنزل علىَّ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِي وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ فجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول .

ومن أمثلته كذلك ما رُوِىَ عن أبى هريرة : « أن النبى ﷺ وقف على حمزة حين استُشهد وقد مُثِّلَ به ، فقال : « لأمَثِّلَنَّ بِسَبعين منهم مكانك » ، فنزل جبريل والنبى ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾(٢) . . . . إلى آخر السورة » (٣) فهذا يدل على نزولها يوم أُحد .

وجاء فى رواية أخرى أنها نزلت يوم فتح مكة (٤) ، والسورة مكية ، فجمع بين ذلك ، بأنها نزلت بمكة قبل الهجرة مع السورة ، ثم بأحد ، ثم يوم الفتح ، ولا مانع من ذلك لما فيه من التذكير بنعمة الله على عباده واستحضار شريعته ، قال الزركشى فى البرهان : « وقد ينزل الشىء مرتين تعظيماً لشأنه ، وتذكيرًا عند حدوث سببه خوف نسيانه ، كما قيل فى الفاتحة ، نزلت مرتين : مرة بمكة ، وأخرى بالمدينة » .

هذا ما يذكره علماء الفن فى تعدد النزول وتكرره ، ولا أرى لهذا الرأى وجهًا

---

(١) التوبة : ١١٣ (٢) النحل : ١٢٦

(٣) أخرجه البيهقى والبزار عن أبى هريرة .

(٤) أخرجها الترمذى والحاكم عن أُبَّى بن كعب .

مستساغًا ، حيث لا تتضح الحكمة من تكرار النزول ، وإنما أرى أن الروايات المتعددة في سبب النزول ولا يمكن الجمع بينهما يتأتى فيها الترجيح ، فالروايات الواردة في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾(١) . . . الآية ، ترجح فيها الرواية الأولى على الروايتين الأخيرتين ، لأنها وردت في الصحيحين دونهما ، وحسبك برواية الشيخين قوة ، فالراجح أن الآية نزلت في أبي طالب ، وكذلك الشأن في الروايات التي وردت في سبب نزول خواتيم سورة النحل ، فإنها ليست في درجة سواء ، والأخذ بأرجحها أولى من القول بتعدد النزول وتكرره .

والخلاصة . . أن سبب النزول إذا تعدَّد : فإما أن يكون الجميع غير صريح ، وإما أن يكون الجميع صريحًا ، وإما أن يكون بعضه غير صريح وبعضه صريحًا ، فإن كان الجميع غير صريح في السببية فلا ضرر حيث يُحمل على التفسير والدخول في الآية (أ) وإن كان بعضه غير صريح وبعضه الآخر صريحًا فالمعتمد هو الصريح (ب) وإن كان الجميع صريحًا فلا يخلو ، إما أن يكون أحدهما صحيحًا أو الجميع صحيحًا ، فإن كان أحدهما صحيحًا دون الآخر فالصحيح هو المعتمَد (ج) وإن كان الجميع صحيحًا فالترجيح إن أمكن (د) وإلا فالجمع إن أمكن (هـ) وإلا حُمِلَ على تعدد النزول وتكرره (و) وفي هذا القسم الأخير مقال ، وفي النفس منه شيء .

* * *

● تعدد النزول مع وحدة السبب :

قد يتعدَّد ما ينزل والسبب واحد ، ولا شيء في ذلك ، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتَّى ، ومثاله : ما أخرجه سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذي ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت : « يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء في

(١) التوبة : ١١٣

الهجرة بشيء ، فأنزل الله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ . . . الآية (١) .

وأخرج أحمد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن أم سلمة قالت : « قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال ؟ فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو قول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾(٢) . . . . إلى آخر الآية .

وأخرج الحاكم عن أم سلمة أيضاً أنها قالت : تغزو الرجال ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث ؟ فأنزل الله : ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ (٣) الآية ، وأنزل : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد .

* * *

تقدم نزول الآية على الحكم

يذكر « الزركشى » نوعًا يتصل بأسباب النزول يسميه : « تقدم نزول الآية على الحكم » (٤) والمثال الذى ذكره فى ذلك لا يدل على أن الآية تنزل فى حكم خاص ثم لا يكون العمل بها إلا مؤخرًا ، وإنما يدل على أن الآية قد تنزل بلفظ مجمل يحتمل أكثر من معنى ثم يُحمل تفسيرها على أحد المعانى فيما بعد فتكون دليلاً على حكم متأخر . جاء فى « البرهان » : « واعلم أنه قد يكون النزول سابقًا على الحكم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (٥) فإنه يُستدل بها على زكاة الفطر ، روى البيهقى بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت فى زكاة رمضان ، ثم أسند مرفوعًا نحوه ، وقال بعضهم : لا أدرى ما وجه هذا التأويل ؟ لأن هذه السورة مكية ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة » .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ . (٢) الأحزاب : ٣٥ (٣) النساء : ٣٢

(٤) انظر : « البرهان » (١/ ٣٢) . (٥) الأعلى : ١٤

وأجاب البغوى [١] فى تفسيره بأنه يجوز أن يكون النزول سابقًا على الحكم ، كما قال : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [٢] فالسورة مكية ، وظهر أثر الحلّ يوم فتح مكة ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « أُحِلَّت لى ساعة من نهار » [٣] .

وكذلك نزل بمكة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [٤] قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدرى : أى الجمع يُهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

فأنت ترى فيما ذكره صاحب البرهان أن صيغة سبب النزول محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام « روى البيهقى بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت فى زكاة رمضان » ، والآيات التى ذكرها مُجْمَلة تحتمل أكثر من معنى ، أو جاءت بصيغة الإخبار عما يحدث فى المستقبل ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

* * *

تعدد ما نزل فى شخص واحد

قد يحدث لشخص واحد من الصحابة أكثر من واقعة ، ويتنزل القرآن بشأن كل واقعة منها ، فيتعدد ما نزل بشأنه بتعدد الوقائع ، ومثاله : ما رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » فى بر الوالدين عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « نزلت فى أربع آيات من كتاب الله عز وجل : كانت أمى حلفت ألا تأكل

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد البغوى ، الفقيه الشافعى ، صاحب كتاب « مصابيح السُّنَّة » فى الحديث و« معالم التنزيل » فى التفسير ، توفى سنة ٥١٠ هجرية .

(٢) البلد : ١ - ٢

(٣) من حديث فى الصحيحين ، والآية تحتمل ثلاثة معان : أن يكون « حل » من الحلول بالمكان والنزول به ، فيكون حلوله بالبلد الأمين مناطًا لإعظامه بالإقسام به ، أو يكون « حل » من الحلال بمعنى المباح ، فإنهم قد استحلوه عليه الصلاة والسلام فى هذا البلد الحرام ، أو يكون المعنى : وأنت حِلٌّ فى المستقبل ، وهذا الرأى الأخير هو الذى يكون النزول فيه سابقًا للحكم.

(٤) القمر : ٤٥

ولا تشرب ، حتى أفارق محمدًا ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (١) .

والثانية : أنى كنت أخذت سيفًا فأعجبنى فقلتُ : يا رسول الله .. هب لى هذا السيف ، فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴾ (٢) .

والثالثة : أنى كنت مرضت فأتانى رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله .. إنى أُريد أن أُقَسِّم مالى ، أفأُوصى بالنصف ؟ فقال : لا ، فقلت : الثلث ، فسكت، فكان الثلث بَعْدُ جائزًا (٣) .

والرابعة : أنى شربت الخمر مع قوم من الأنصار ، فضرب رجل منهم أنفى بلحى جمل ، فأتيت رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل تحريم الخمر » .

ويُعتبر من هذا القبيل موافقات عمر رضى الله عنه ، فقد نزل الوحى موافقًا لرأيه فى عدة آيات .

* * *

الاستفادة من معرفة أسباب النزول
فى مجال التربية والتعليم

يعانى المربون فى مجال الحياة التعليمية كثيرًا من المتاعب فى استخدام الوسائل التربوية لإثارة انتباه الطلاب حتى تتهيأ نفوسهم للدرس فى شوق يستجمع قواهم العقلية ويرغبهم فى الاستماع والمتابعة ، والمرحلة التمهيدية من مراحل الدرس تحتاج إلى فطنة لَمَّاحة تُعين المدرس على اجتذاب مشاعر الطلاب لدرسه بشتَّى الوسائل المناسبة ، كما تحتاج إلى ممارسة طويلة تُكسبه خبرة فى حسن اختيار الربط بين معلوماتهم دون تعسف يكلفه شططًا .

---

(١) لقمان : ١٥ (٢) الأنفال : ١

(٣) نزل فى الوصية قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (البقرة : ١٨٠) ، ولم يأت التصريح بنزول الآية فى نص الحديث .

وكما تهدف المرحلة التمهيدية فى الدرس إلى إثارة انتباه الطلاب واجتذاب مشاعرهم فإنها تهدف كذلك إلى التصور الكلى للموضوع ، كى يسهل على المدرس أن ينتقل بطلابه من الكلى للجزئى إلى أن يستوعب عناصر الدرس تفصيلاً بعد أن تصوِّره طلابه جملة .

ومعرفة أسباب النزول هى السبيل الأفضل لتحقيق تلك الأهداف التربوية فى دراسة القرآن الكريم تلاوة وتفسيراً .

إن سبب النزول إما أن يكون قصة لحادثة وقعت ، وإما أن يكون سؤالاً طُرِحَ على رسول الله ﷺ لاستكشاف حكم فى موضوع ، فينزل القرآن إثر الحادثة أو السؤال، فلن يجد المدرس نفسه فى حاجة لمعالجة التمهيد للدرس بشىء يبتكره ويختاره ، إذ أنه إذا ساق سبب النزول كانت قصته كافية فى إثارة انتباه الطلاب ، واجتذاب مشاعرهم ، واستجماع قواهم العقلية ، وتهيئة نفوسهم لتقبل الدرس ، وتشويقهم للاستماع إليه ، وترغيبهم فى الحرص عليه ، فهم يتصوَّرون الدرس بمعرفة سبب النزول تصوراً عامًا بما فيه من عناصر القصة المثيرة ، فتتوق نفوسهم إلى معرفة ما نزل ملائمًا له وما يتضمنه من أسرار تشريعية وأحكام تفصيلية ، تهدى الإنسانية إلى نهج الحياة الأقوم ، وصراطها المستقيم ، وسبيل عزها ومجدها وسعادتها .

وعلى المربين فى مجال الحياة التربوية التعليمية الخاصة بمقاعد الدرس أو العامة فى التوجيه والإرشاد أن يستفيدوا من سياق أسباب النزول فى التأثير على الطلاب الدارسين وجماهير المسترشدين ، فذلك أجدى وأنفع وأهدى سبيلاً لتحقيق الأهداف التربوية بأروع معانيها وأرقى صورها .

* * *

المناسبات بين الآيات والسور

كما أن معرفة سبب النزول لها أثرها فى فهم المعنى وتفسير الآية ، فإن معرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل ، ودقة الفهم ، ولذا أفرد بعض العلماء هذا المبحث بالتصنيف (١) .

(١) ممن صنَّف فيه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى النحوى الحافظ المتوفى =

والمناسبة في اللُّغة : المقاربة ، يقال فلان يناسب فلانًا أي يقرب منه ويشاكله ، ومنه المناسبة فى العِلَّة فى باب القياس ، وهى الوصف المقارب للحكم .

والمراد بالمناسبة هنا : وجه الارتباط بين الجملة والجملة فى الآية الواحدة - أو بين الآية والآية فى الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة .

ولمعرفة المناسبة فائدتها فى إدراك اتساق المعانى ، وإعجاز القرآن البلاغى ، وإحكام بيانه ، وانتظام كلامه ، وروعة أسلوبه ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) . .

قال الزركشى : « وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء » .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى : « ارتباط آى القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المبانى ، علم عظيم » .

ومعرفة المناسبات والربط بين الآيات ليست أمرًا توقيفيًا ، ولكنها تعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد ، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى ، منسجمة مع السياق ، متفقة مع الأصول اللُّغوية فى علوم العربية ، كانت مقبولة لطيفة .

ولا يعنى هذا أن يلتمس المفسِّر لكل آية مناسبة ، فإن القرآن الكريم نزل مُنَجَّمًا حسب الوقائع والأحداث ، وقد يدرك المفسر ارتباط آياته وقد لا يدركها ، فلا ينبغى أن يعتسف المناسبة اعتسافًا ، وإلا كانت تكلفًا ممقوتًا ، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٢) : « المناسبة علم حسن ، ولكن يُشترط فى حسن ارتباط الكلام أن

= سنة ٨٠٧ هجرية فى كتاب سماه « البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » (مخطوط) ، وللشيخ برهان الدين البقاعى كتاب فى هذا سماه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، وقد طبعته دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٣٨٩هـ ، وانظر هذا المبحث فى « البرهان » للزركشى (١/ ٣٥) .

(١) هود : ١

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز ، كان عالمًا مجاهدًا ورعًا ، توفى سنة ٦٦٠ هجرية .

يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره : فإن وقع على أسباب مختلفة لم يُشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر » . ثم قال : « ومَن ربط بين ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يُصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ، ولأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض » .

وقد عَنِىَ بعض المفسرين ببيان المناسبة بين الجُمَل ، أو بين الآيات ، أو بين السور(١) واستنبطوا وجوه ارتباط دقيقة .

فالجملة قد تكون تأكيدًا لما قبلها ، أو بيانًا ، أو تفسيرًا ، أو اعتراضًا تذييليًا - ولهذا أمثلته الكثيرة .

وللآية تعلقها بما قبلها على وجه من وجوه الارتباط يجمع بينها ، كالمقابلة بين صفات المؤمنين وصفات المشركين ، ووعيد هؤلاء ووعد أُولئك ، وذكر آيات الرحمة بعد آيات العذاب ، وآيات الترغيب بعد آيات الترهيب ، وآيات التوحيد والتنزيه بعد الآيات الكونية . . . وهكذا .

وقد تكون المناسبة فى مراعاة حال المخاطبين كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٢) فجمع بين الإبل والسماء والجبال مراعاة لما جرى عليه الإلف والعادة بالنسبة إلى المخاطبين فى البادية ، حيث يعتمدون فى معايشهم على الإبل ، فتنصرف عنايتهم إليها ، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بالماء الذى يُنبت المرعى وترده الإبل ، وهذا يكون بنزول المطر ، وهو سبب تقلب وجوههم فى السماء ، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به ولا شيء أمنع كالجبال ، وهم يطلبون الكلأ والماء فيرحلون من أرض ويهبطون أخرى ، ويتنقلون من مرعى أجدب إلى مرعى أخصب ، فإذا سمع أهل البادية هذه الآيات خالطت شغاف قلوبهم بما هو حاضر لا يغيب عن أذهانهم .

---

(١) وجه الارتباط بين السور مبنى على أن ترتيب السور توقيفى ، وقد اختلف العلماء فى ذلك كما سيأتى .

(٢) الغاشية : ١٧ - ٢٠

وقد تكون المناسبة بين السورة والسورة ، كافتتاح سورة « الأنعام » بالحمد : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (١) فإنه مناسب لختام سورة « المائدة » فى الفصل بين العباد ومجازاتهم : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٢) . . . إلى آخر السورة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٣) ، وكافتتاح سورة « الحديد » بالتسبيح : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٤) فإنه مناسب لختام سورة « الواقعة » من الأمر به : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾ (٥) . . وكارتباط سورة ﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ (٦) بسورة « الفيل » فإن هلاك أصحاب الفيل كانت عاقبته تمكين قريش من رحلتيهما شتاءً وصيفًا ، حتى قال الأخفش : اتصالها بها من باب قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (٧) .

وقد تكون المناسبة بين فواتح السور وخواتمها . . وذلك ما فى سورة « القصص » فقد بدأت بقصة موسى عليه السلام ، وبيان مبدأ أمره ونصره ، ثم ما كان منه عندما وجد رجلين يقتتلان .

وحكى الله دعاءه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٨) ، ثم ختم الله السورة بتسلية رسولنا ﷺ بخروجه من مكة والوعد بعودته إليها ، ونهيه عن أن يكون ظهيرًا للكافرين : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ، قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٩) . .

وَمَنْ تَتَبَّعَ كتب التفسير وجد كثيرًا من وجوه المناسبات .

* * *

(١) الأنعام : ١ (٢) المائدة : ١١٨ (٣) الزمر : ٧٥
(٤) الحديد : ١ (٥) الواقعة : ٩٦ (٦) سورة قريش .
(٧) القصص : ٨ (٨) القصص : ١٧ (٩) القصص : ٨٥ - ٨٦

- ٧ -

نزول القـــرآن

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد ﷺ لهداية البشرية ، فكان نزوله حدثًا جللاً يؤذن بمكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض ، فإنزاله الأول فى ليلة القدر أشعر العالم العُلوى من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التى أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أُخرجت للناس ، وتنزيله الثانى مفرَّقًا على خلاف المعهود فى إنزال الكتب السماوية قبله آثار الدهشة التى حملت القوم على المماراة فيه ، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلَهية ، فلم يكن الرسول ﷺ ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صَلَف وعنَاد ، فكان الوحى يتنزَّل عليه تباعًا تثبيتًا لقلبه ، وتسلية له ، وتدرجًا مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين ، وأتم النعمة .

* * *

نزول القرآن جملة

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (٣) .

ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث ، فاللَّيلة المباركة هى ليلة القدر من شهر رمضان ، إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملى فى حياة رسول الله ﷺ ، حيث نزل القرآن عليه فى ثلاث وعشرين سنة . . وللعلماء فى هذا مذهبان أساسيان :

---

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) القدر : ١ (٣) الدخان : ٣

١ - **المذهب الأول** : وهو الذى قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء- أن المراد بنزول القرآن فى تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيمًا لشأنه عند ملائكته ، ثم نزل بعد ذلك مُنَجَّمًا على رسولنا محمد ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة (١) حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفى صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أقام فى مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات : فعن ابن عباس قال : « بُعِثَ رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَى إليه ، ثم أُمِرَ بالهجرة عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين » (٢) .

وهذا المذهب هو الذى جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس فى عدة روايات :

(أ) عن ابن عباس قال : « أُنْزِلَ القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أُنْزِلَ بعد ذلك فى عشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٣) .. ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (٤) ..

(ب) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « فُصِلَ القرآن من الذكر فوُضِعَ فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ » (٥) .

(جـ) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلَ القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى إثر بعض » (٦) .

---

(١) وقدَّر بعض العلماء مدة نزول القرآن بعشرين سنة ، وبعضهم بخمس وعشرين سنة لاختلافهم فى مدة إقامته ﷺ - بعد البعثة - بمكة ، أكانت ثلاث عشرة سنة ، أم عشر سنين، أم خمس عشرة سنة ؟ مع اتفاقهم على أن إقامته بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات - والصواب الأول - انظر « الإتقان » (١/ ٣٩) .

(٢) رواه البخارى .

(٣) الفرقان : ٣٣

(٤) رواه الحاكم والبيهقى والنسائى - (والآية من سورة الإسراء : ١٠٦) .

(٥) رواه الحاكم .

(٦) رواه الحاكم والبيهقى .

(د) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلَ القرآن فى ليلة القدر فى شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أُنْزِلَ نُجومًا » (١) .

٢ - **المذهب الثانى** : وهو الذى رُوِىَ عن الشعبى (٢) - أن المراد بنزول القرآن فى الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ ، فقد ابتدأ نزوله فى ليلة القدر فى شهر رمضان ، وهى الليلة المباركة ، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجًا مع الوقائع والأحداث فى قرابة ثلاث وعشرين سنة ، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجَّمًا على رسول الله ﷺ ، لأن هذا هو الذى جاء به القرآن : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (٣) وجادل فيه المشركون الذين نُقِلَ إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (٤) . ولا يظهر للبشر مزية لشهر رمضان وليلة القدر التى هى الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله ﷺ ، وهذا يوافق ما جاء فى قوله تعالى بغزوة بدر : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) ، وقد كانت غزوة بدر فى رمضان ، ويؤيد هذا ما عليه المحققون فى حديث بدء الوحى ، عن عائشة قالت : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يأتى حِراء فيتحنث فيه اللَّيالى ذوات العدد ويتزوَّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوِّده لمثلها ، حتى فاجأه الحق وهو فى غار حِراء ، فجاءه المَلَكُ فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ

(١) رواه الطبرانى .

(٢) الشعبى : هو عامر بن شراحيل ، من كبار التابعين - وأكبر شيوخ أبى حنيفة - كان إمامًا فى الحديث والفقه ، وتوفى سنة ١٠٩ هجرية .

(٣) الإسراء : ١٠٦ (٤) الفرقان : ٣٢ - ٣٣ (٥) الأنفال : ٤١

فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فَغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطَّني الثالثة حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ . . حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) » فإن المحققين من الشرَّاح على أن الرسول ﷺ نُبئَ أولاً بالرؤيا فى شهر مولده شهر ربيع الأول ، ثم كانت مدتها ستة أشهر ، ثم أُوحِىَ إليه يقظة فى شهر رمضان بـ « اقرأ » وبهذا تتآزر النصوص على معنى واحد .

٣- **وهناك مذهب ثالث** : يرى أن القرآن أُنْزِلَ إلى السماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر (٢) فى كل ليلة منها ما يُقَدِّر الله إنزاله فى كل السنة ، وهذا القدر الذى ينزل فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك مُنجَّمًا على رسول الله ﷺ فى جميع السنة .

وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين ، ولا دليل عليه .

أما المذهب الثانى الذى رُوِىَ عن الشعبى فأدلته - مع صحتها والتسليم بها - لا تتعارض مع المذهب الأول الذى رُوِىَ عن ابن عباس ، فيكون نزول القرآن جملة وابتداء نزوله مفرقًا فى ليلة القدر من شهر رمضان ، وهى اللَّيلة المباركة .

فالراجح أن القرآن الكريم له تنزلان :

الأول : نزوله جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

والثانى : نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرَّقًا فى ثلاث وعشرين سنة .

وقد نقل القرطبى عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث فى نزول القرآن والواقع العملى فى حياة الرسول ﷺ بنزول القرآن فى ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان : عن ابن عباس : « أنه سأله

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما - (والآيات من سورة العلق : ١ - ٥) .

(٢) أو عشرين ، أو خمس وعشرين ليلة قدر ، بناء على الخلاف السابق فى مدة إقامته بمكة .

عطية بن الأسود فقال : أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾ (٢) ، وهذا أُنزل فى شوَّال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرَّم ، وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس : إنه أُنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ثم أُنزل على مواقع النجوم (٣) رَسْلاً (٤) فى الشهور والأيام » (٥)

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك فى تعظيم شأن القرآن ، وتشريف المُنَزَّل عليه ، قال السيوطى : « قيل : السر فى إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر مَن نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزَّلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قرَّبناه إليهم لينزله عليهم ، ولو أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنَجَّما بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزَّلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبينها ، فجعل له الأمرين : إنزاله جملة ، ثم إنزاله مفرَّقًا ، تشريفاً للمُنَزَّل عليه » ، وقال السخاوى فى جمال القراء : « فى نزوله إلى السماء جملة تكريم بنى آدم وتعظيم شأنه عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم ، ورحمته لهم ، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة أن تُشيِّع سورة الأنعام (٦) ، وزاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السَفَرَةِ الكرام، وإنساخهم إياه ، وتلاوتهم له » (٧) .

٤ - ومن العلماء مَن يرى أن القرآن نزل أولاً جملة إلى اللَّوح المحفوظ مستدلاً

---

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) القدر : ١

(٣) على مواقع النجوم : أى على مثل مساقطها فى نزوله مفرقًا يتلو بعضه بعضًا .

(٤) رَسْلاً : أى على تؤدة ورفق .

(٥) أخرجه ابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات .

(٦) المشيَّع من القرآن : ما نزل منه محفوفًا بالملائكة ، أخرج الطبرانى وأبو عبيد فى فضائل القرآن ، عن ابن عباس قال : « نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة حولها سبعون ألف مَلَك يجأرون بالتسبيح » .

(٧) انظر : « الإتقان » (١/ ٤٠ - ٤١) .

بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (١) . . ثم نزل من اللَّوح المحفوظ جملة كذلك إلى بيت العزة ، ثم نزل مفرَّقًا ، فهذه تنزلات ثلاثة.

وهذا لا يتعارض مع ما سبق أن رجحناه ، فالقرآن الكريم مثبت فى اللَّوح المحفوظ شأن سائر المغيِّبات المثبتة فيه ، والقرآن الكريم نزل جملة من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا - كما رُوِىَ عن ابن عباس - فى ليلة القدر ، والقرآن الكريم بدأ نزوله مُنجَّمًا - كما يرى الشعبى - على رسول الله ﷺ فى الليلة المباركة ليلة القدر من شهر رمضان ، إذ لا مانع يمنع من نزوله جملة ، ومن ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ مفرَّقًا فى ليلة واحدة ، وبهذا ينتفى التعارض بين الأقوال كلها إذا استثنينا المذهب الاجتهادى الثالث الذى لا دليل له .

* * *

نزول القرآن مُنَجَّمًا

يقول الله تعالى فى التنزيل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (٥) .

ويقول : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية ، وأن جبريل نزل به

---

(١) البروج : ٢١ - ٢٢ (٢) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥ (٣) النحل : ١٠٢
(٤) الجاثية : ٢ (٥) البقرة : ٢٣ (٦) البقرة : ٩٧

على قلب رسول الله ﷺ ، وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا فالمراد به نزوله مُنجَّمًا ، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم ، فإن علماء اللُّغة يُفَرِّقون بين الإنزال والتنزيل ، فالتنزيل لما نزل مفرَّقًا ، والإنزال أعم (١) .

وقد نزل القرآن مُنجَّمًا فى ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأى الراجح ، وعشر بالمدينة ، وجاء التصريح بنزوله مفرَّقًا فى قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (٢) أى جعلنا نزوله مفرَّقًا كى تقرأه على الناس على مهل وتثبت ، ونزَّلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث .

أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة والإنجيل والزبور - فكان نزولها جملة ، ولم تنزل مفرَّقة ، يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٣) فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة ، وهو ما عليه جمهور العلماء ، ولو كان نزولها مفرَّقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن مُنجَّمًا ، فمعنى قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ : هَلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب ؟ وماله أُنزل على التنجيم ؟ ولِمَ أُنزل مفرَّقًا ؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سُنَّته فى إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم فى قولهم : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ ﴾ (٤) بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الأَسْوَاقِ ﴾ (٥) ، وكما رد عليهم فى قولهم : ﴿ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً ﴾ (٦) بقوله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً ﴾ (٧) وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ (٨) بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة فى تنزيل القرآن مُنجَّمًا بقوله :

---

(١) انظر : « مفردات الراغب » .
(٢) الإسراء : ١٠٦
(٣) الفرقان : ٣٢
(٤) الفرقان : ٧
(٥) الفرقان : ٢٠
(٦) الإسراء : ٩٤
(٧) الإسراء : ٩٥
(٨) الأنبياء : ٧

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى كذلك أنزل مفرَّقًا لحكمة هى تقوية قلب رسول الله ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أى قدَّرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض ، أو بيَّناه تبيينًا ، فإن إنزاله مفرَّقًا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبيت .

والذى استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل ، وقد صح نزول العشر آيات فى قصة الإفك جملة ، وصح نزول عشر آيات فى أول المؤمنين جملة ، وصح نزول : ﴿ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ ﴾ وحدها وهى بعض آية » (١) .

* * *

حكمة نزول القرآن مُنَجَّمًا

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم مُنجَّمًا من النصوص الواردة فى ذلك ، ونُجملها فيما يأتى :

١ - الحكمة الأولى - تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ :

لقد وجَّه رسول الله ﷺ دعوته إلى الناس ، فوجد منهم نفورًا وقسوة ، وتصدَّى له قوم غلاظ الأكباد فُطِرُوا على الجفوة ، وجُبِلوا على العناد ، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت ، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخير الذى يحمله إليهم ، حتى قال الله فيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٢) ، فكان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ فترة بعد فترة ، بما يُثبِّت قلبه على الحق ، ويُشحذ عزمه للمضى قُدمًا فى طريق دعوته ، لا يبالى بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه ، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع .

يُبيِّن الله له سُنَّته فى الأنبياء السابقين الذين كُذِّبوا وأُوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر

---

(١) نقل هذا السيوطى عن « مكى بن أبى طالب » ، المتوفى سنة ٣٦٧ هجرية ، فى كتاب له يسمى « الناسخ والمنسوخ » - انظر « الإتقان » (١/ ٤٢) - (والآية من سورة النساء : ٩٥) .

(٢) الكهف : ٦

الله ، وأن قومه لم يكذِّبوه إلا علواً واستكباراً ، فيجد عليه الصلاة والسلام فى ذلك السُّنَّة الإلهية فى موكب النبوَّة عبَر التاريخ التى يتأسى بها تسلية له إزاء أذى قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (١) ، ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ المُنِيرِ ﴾ (٢) .

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) . .

ويطمئن نفسه بما تكفَّل الله به من كفايته أمر المكذِّبين : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً * وَذَرْنِى وَالمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (٤) . .

وهذا هو ما جاء فى حكمة قصص الأنبياء بالقرآن : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٥) . .

وكلما اشتد ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه ، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعمًا وتسلية له ، يهدد المكذِّبين بأن الله يعلم أحوالهم ، وسيجازيهم على ما كان منهم : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ (٧) .

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٨) ، ﴿ وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (٩) ، ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١٠) .

---

(١) الأنعام : ٣٣ - ٣٤ (٢) آل عمران : ١٨٤ (٣) الأحقاف : ٣٥
(٤) المزمل : ١٠ - ١١ (٥) هود : ١٢٠ (٦) يس : ٧٦
(٧) يونس : ٦٥ (٨) المائدة : ٦٧
(٩) الفتح : ٣ (١٠) المجادلة : ٢١

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله ﷺ تباعًا تسلية له بعد تسلية ، وعزاء بعد عزاء ، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه ولا يستبد به الأسى ، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً ، فله فى قصص الأنبياء أُسوة ، وفى مصير المكذِّبين سلوى ، وفى العدة بالنصر بُشرى ، وكلما عرض له شيء من الحزن بمقتضى الطبع البَشرى تكررت التسلية ، فثبت قلبه على دعوته ، واطمأن إلى النصر .

وهذه الحكمة هى التى رد الله بها على اعتراض الكفار فى تنجيم القرآن بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

قال أبو شامة (٢) : « فإن قيل : ما السر فى نزوله مُنجَّمًا ؟ وهل أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (٣) . . يعنون : كما أنزل على مَنْ قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى أنزلناه مفرَّقًا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى لنقوِّى به قلبك ، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى لِلقلب ، وأشد عناية بالمرسَل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلَك إليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل » (٤) .

٢ - الحكمة الثانية - التحدى والإعجاز :

فالمشركون تمادوا فى غيهم ، وبالغوا فى عُتوِّهم ، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحد يمتحنون بها رسول الله ﷺ فى نبوَّته ، ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم ، كعلم الساعة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ (٥) ، واستعجال العذاب :

---

(١) الفرقان : ٣٢

(٢) أبو شامة : هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، الفقيه الشافعى ، له « الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز » ، و« شرح على الشاطبية » المشهورة فى القراءات ، توفى سنة ٦٦٥ هجرية .

(٣) الفرقان : ٣٢ (٤) انظر « الإتقان » (١/ ٤١) . (٥) الأعراف : ١٨٧

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ (١) فيتنزل القرآن بما يبيِّن وجه الحق لهم ، وبما هو أوضح معنى فى مؤدى أسئلتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٢) أى ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق ، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التى هى مثل فى البطلان .

وحيث عجبوا من نزول القرآن مُنجَّمًا بيَّن الله لهم الحق فى ذلك ، فإن تحديهم به مفرَّقًا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل فى الإعجاز ، وأبلغ فى الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم : جيئوا بمثله ، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا وبما هو أبين معنى فى إعجازهم ، وذلك بنزوله مفرَّقًا ، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات فى حديث ابن عباس عن نزول القرآن : « فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جوابًا » (٣) .

٣ - الحكمة الثالثة - تيسير حفظه وفهمه :

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ، سجلها ذاكرة حافظة ، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدوِّن ، ثم تحفظ وتفهم : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ ﴾ (٥) فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة ، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته ، فكان نزوله مفرَّقًا خير عون لها على حفظه فى صدورها وفهم آياته ، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة ،

---

(١) الحج : ٤٧
(٢) الفرقان : ٣٣
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس .
(٤) الجمعة : ٢
(٥) الأعراف : ١٥٧

وتدبروا معانيها ، ووقفوا عند أحكامها ، واستمر هذا منهجًا للتعليم فى حياة التابعين ، عن أبى نضرة قال : « كان أبو سعيد الخدرى يعلِّمنا القرآن خمس آيات بالغَداة ، وخمس آيات بالعَشى ، ويُخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات » (١) ، وعن خالد بن دينار قال : « قال لنا أبو العالية : تعلَّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا » (٢) .

وعن عمر قال : « تعلَّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ﷺ خمسًا خمسًا » (٣) .

٤ – الحكمة الرابعة – مسايرة الحوادث والتدرج فى التشريع :

فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمه ، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطبون بها من الفساد والرذيلة ، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يُجَلِّى لهم صبحها ويرشدهم إلى الهُدى ، ويضع لهم أُصول التشريع حسب المقتضيات أصلاً بعد آخر فكان هذا طبا لقلوبهم .

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذى بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام .

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التى تزكو بها النفس ويستقيم عوجها ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر ، ويبيِّن قواعد الحلال والحرام التى يقوم عليها صرح الدين ، وترسو دعائمه فى المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء .

ثم تدرَّج التشريع بالأمة فى علاج ما تأصل فى النفوس من أمراض اجتماعية ،

---

(١) أخرجه ابن عساكر .　　(٢) أخرجه البيهقى .

(٣) أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » .

بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان ، خالصة لله ، تعبده وحده لا شريك له .

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التى تمر بالمسلمين فى جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله .

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه .

ففى مكة شُرِعَت الصلاة ، وشُرِعَ الأصل العام للزكاة مقارنًا بالربا : ﴿ فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (١) .

ونزلت سورة الأنعام - وهى مكية - تبيِّن أصول الإيمان ، وأدلة التوحيد ، وتندِّد بالشرك والمشركين ، وتوضِّح ما يحل وما يحرم من المطاعم ، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام .

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة ، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المداينة وآيات تحريم الربا .

وأسس العلاقات الأُسرية نزلت بمكة ، أما بيان حقوق كل من الزوجين ،

---

(١) الروم : ٣٨ - ٣٩

(٢) الأنعام : ١٥١ - ١٥٢

وواجبات الحياة الزوجية ، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق ، أو انتهائها بالموت ثم الإرث - أما بيان هذا فقد جاء فى التشريع المدنى .

وأصل الزنا حُرِّم بمكة : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

وأصل حُرمة الدماء نزل بمكة : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (٢) ولكن تفصيل عقوباتها فى الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة .

وأوضح مثال لذلك التدرج فى التشريع : تحريم الخمر .

فقد نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) فى مقام الامتنان بنعمه سبحانه - وإذا كان المراد بالسكر ما يُسْكِرُ من الخمر ، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب - وهذا ما عليه جمهور المفسرين - فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السُكر يُشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السُكر .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (٤) فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح ، ومضارها فى إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر فى الجسم ، وفساد فى العقل ، وضياع للمال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان ، ونفَّرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ (٥) فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر فى الأوقات التى يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة ، حيث جاء النهى عن قربان الصلاة فى حال السُكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه فى صلاتهم .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ

---

(١) الإسراء : ٣٢ (٢) الإسراء : ٣٣ (٣) النحل : ٦٧
(٤) البقرة : ٢١٩ (٥) النساء : ٤٣

وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (١) فكان هذا تحريمًا قاطعًا للخمر فى الأوقات كلها :

ويوضح هذه الحكمة ما رُوِىَ عن عائشة رضى الله عنها قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المُفصَّل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : « لا تشربوا الخمر » لقالوا : لا ندع الخمر أبدًا ، ولو نزل : « لا تزنوا » لقالوا : لا ندع الزنا أبدًا » (٢) .

وهكذا كان التدرج فى تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث ، فقد استشار رسول الله ﷺ صحابته فى أسرى بدر ، فقال عمر : اضرب أعناقهم ، وقال أبو بكر : أرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، وأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل : لن نُغْلَب من قلة ، فتلقوا درسًا قاسيًا فى ذلك ، ونزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ، إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٩٠ - ٩١ (٢) أخرجه البخارى .

(٣) من حديث أخرجه أحمد عن أنس - (والآيتان من سورة الأنفال : ٦٧ - ٦٨) .

(٤) أخرجه البيهقى فى « الدلائل » - (والآيات من سورة التوبة : ٢٥ - ٢٧) .

ولما توفى عبد الله بن أُبَىّ – رأس المنافقين – « دُعِىَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه ، فلما وقف قال عمر : أعلى عدو الله عبد الله بن أُبَىّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ يُعَدِّد أيامه ، ورسول الله ﷺ يبتسم ، ثم قال له : « إنى قد خُيِّرتُ ، قد قيل لى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ (١) فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غُفِرَ له لزدت عليها » ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فُرِغَ منه ، قال عمر : فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل » (٢) .

وحين تخلَّف نفر من المؤمنين الصادقين فى غزوة تبوك ، وأقاموا بالمدينة ، ولم يجد رسول الله ﷺ لديهم عذرًا هجرهم وقاطعهم حتى ضاقوا ذرعًا بالحياة ثم نزل القرآن لقبول توبتهم : ﴿ لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) ، ويشير إلى هذا

---

(١) التوبة : ٨٠ .

(٢) أخرجه البخارى وأحمد والنسائى والترمذى وابن ماجه وغيرهم ، (والآيتان من سورة التوبة : ٨٤ – ٨٥) .

(٣) من حديث طويل أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، والثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار (والآيتان من سورة التوبة : ١١٧ – ١١٨) .

ما رُوِىَ عن ابن عباس فى نزول القرآن : « ونزَّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم » [(١)] .

٥ - الحكمة الخامسة - الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد :

إن هذا القرآن الذى نزل مُنجَّمًا على رسول الله ﷺ فى أكثر من عشرين عاما تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسج ، دقيق السبك ، مترابط المعانى ، رصين الأسلوب ، متناسق الآيات والسور ، كأنه عقد فريد نظمت حبَّاته بما لم يُعْهَد له مثيل فى كلام البشر : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [(٢)] . ولو كان هذا القرآن من كلام البَشر قيل فى مناسبات متعددة ، ووقائع متتالية ، وأحداث متعاقبة ، لوقع فيه التفكك والانفصام ، واستعصى أن يكون بينه التوافق والانسجام : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [(٣)] .

فأحاديث رسول الله ﷺ - وهى فى ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم - لا تنتظم حباتها فى كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض فى وحدة وترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقًا وانسجامًا . فكيف بكلام سائر البَشر وأحاديثهم : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [(٤)] .

* * *

---

(١) أخرجه الطبرانى والبزار عن ابن عباس ، وأخرجه ابن أبى حاتم من وجه آخر .

(٢) هود : ١ (٣) النساء : ٨٢

(٤) انظر هذه الحكمة فى « مناهل العرفان » للزرقانى (١/ ٥٤) - (والآية من سورة الإسراء : ٨٨) .

الاستفادة من نزول القرآن مُنَجَّمًا فى التربية والتعليم

تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين : مراعاة المستوى الذهنى للطلاب ، وتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلى الخير والرشاد .

ونحن نلحظ فى حكمة نزول القرآن مُنَجَّمًا ما يفيدنا فى مراعاة هذين الأمرين على النحو الذى ذكرناه آنفًا ، فإن نزول القرآن الكريم تدرج فى تربية الأُمة الإسلامية تدرجًا فطريا لإصلاح النفس البشرية ، واستقامة سلوكها ، وبناء شخصيتها ، وتكامل كيانها ، حتى استوت على سوقها ، وآتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة .

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه ، والعمل بما فيه .

وبين نزول القرآن فى مطلع الوحى بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) ، ونزول آيات الربا والمواريث فى نظام المال ، أو نزول آيات القتال فى المفاصلة التامة بين الإسلام والشرك - بين ذاك وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التى تلائم مستوى المجتمع الإسلامى فى تدرجه من الضعف إلى القوة ، ومن القوة إلى شدة البأس .

والمنهج الدراسى الذى لا يُراعَى فيه المستوى الذهنى للطلاب فى كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والانتقال من الإجمال إلى التفصيل ، أو لا يُراعى تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسمية منهج فاشل لا تجنى منه الأمة ثمرة علمية سوى الجمود والتخلف .

والمدرس الذى لا يعطى طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيُثقل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظًا أو فهمًا أو يحدثهم بما لا يدركون ، أو لا يراعى

---

(١) العلق : ١ - ٥

حالهم فى علاج ما يعرض لهم من شذوذ خُلُقى ، أو يفشو من عادات سيئة ، فيقسو ويتعسف ، ويأخذ الأمر دون أناة ورويَّة ، وتدرج وحكمة - المدرس الذى يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك ، يُحَوِّل العملية التعليمية إلى متاهات موحشة ، ويجعل غرف الدراسة قاعات منفرة .

وقِسْ على هذا الكتاب المدرسى ، فالكتاب الذى لا تنتظم موضوعاته وفصوله ، ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب ، ولا تترتب جزئياته ترتيبًا محكمًا منسقًا ، ولا يكون أسلوبه واضحاً فى أداء المعنى المقصود ، كتاب ينفر الطالب من قراءته ، ويحرمه من الاستفادة منه .

والهَدى الإلهى فى حكمة نزول القرآن مُنجَّمًا هو الأسوة الحسنة فى صياغة مناهج التعليم ، والأخذ بأمثل الطرق فى الأساليب التربوية بقاعة الدرس ، وتأليف الكتاب المدرسى .

* * *

- ٨ -

جمع القرآن وترتيبه

يُطلق جمع القرآن ويُراد به عند العلماء أحد معنيين :

المعنى الأول : جمعه بمعنى حفظه ، وجماع القرآن : حفاظه ، وهذا المعنى هو الذى ورد فى قوله تعالى فى خطابه لنبيه ﷺ ، وقد كان يُحَرِّك شَفَتيه ولسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصاً على أن يحفظه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١) ، عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يُحَرِّك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال : يقول إن علينا أن نجمعه فى صدرك ، ثم نقرأه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك : ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أن نبينه بلسانك ، وفى لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق - وفى لفظ : استمع - فإذا ذهب قرأه كما وعد الله (١) .

المعنى الثانى : جمع القرآن بمعنى كتابته كله ، مفرَّق الآيات والسور ، أو مرتب الآيات فقط ، وكل سورة ، فى صحيفة على حدة ، أو مرتب الآيات والسور فى صحائف مجتمعة تضم السور جميعًا وقد رُتِبَ إحداها بعد الأخرى .

١ - (أ) جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبى ﷺ :

كان رسول الله ﷺ مولعًا بالوحى ، يترقب نزوله عليه بشوق ، فيحفظه ويفهمه، مصدقًا لوعد الله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٣) فكان بذلك أول

---

(١) القيامة : ١٦ - ١٩

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، عن ابن عباس .   (٣) القيامة : ١٧

الحُفّاظ ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة ، شغفًا بأصل الدين ومصدر الرسالة ، وقد نزل القرآن فى بضع وعشرين سنة ، فربما نزلت الآية المفردة ، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر ، وكلما نزلت آية حُفِظت فى الصدور ، ووعتها القلوب ، والأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة ، تستعيض عن أميتها فى كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها .

وقد أورد البخارى فى صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفّاظ ، هم : عبد الله ابن مسعود ، وسالم بن معقل مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد بن السكن ، وأبو الدرداء .

١ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأُبَىّ بن كعب » [١] وهؤلاء الأربعة : اثنان من المهاجرين هما : عبد الله بن مسعود وسالم ، واثنان من الأنصار هما : معاذ وأُبَىّ .

٢ - وعن قتادة قال : « سألتُ أنس بن مالك : مَن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أربعة ، كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ ابن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت : مَن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى » [٢] .

٣ - ورُوِىَ من طريق ثابت عن أنس كذلك قال : « مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » [٣] .

وأبو زيد المذكور فى هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد على شرط البخارى عن أنس : أن أبا زيد الذى جمع القرآن اسمه : قيس بن السكن ، قال : وكان رجلاً منا من بنى عدى بن النجار أحد عمومتى ، ومات ولم يدع عقبًا ونحن ورثناه .

---

(١) رواه البخارى .　(٢) رواه البخارى .　(٣) رواه البخارى .

وبيَّن ابن حجر فى ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحفَّاظ ، وأنه كان يُلقَّب بالقارئ (١) .

وذكر هؤلاء الحفَّاظ السبعة ، أو الثمانية ، لا يعنى الحصر ، فإن النصوص الواردة فى كتب السير والسُنَن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون فى حفظ القرآن ، ويُحَفِّظونه أزواجهم وأولادهم ، ويقرأونْ به فى صلواتهم بجوف اللَّيل ، حتى يُسمع لهم دوى كدوىٍّ النحل ، وكان رسول الله ﷺ يمر على بيوت الأنصار ، ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة فى بيوتهم ، عن أبى موسى الأشعرى : « أن رسول الله ﷺ قال له : لو رأيتنى البارحة وأنا أستمع لقراءتك ؟ لقد أعطِيتَ مزماراً من مزامير داود » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : « جمعتُ القرآن ، فقرأتُ به كل ليلة ، فبلغ النبى ﷺ فقال : اقرأه فى شهر » (٣) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف رفقة الأشعريين باللَّيل حين يدخلون ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن باللَّيل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » (٤) .

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره فإن رسول الله ﷺ كان يشجعهم على ذلك ، ويختار لهم مَن يعلمهم القرآن ، عن عبادة بن الصامت قال : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبى ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » (٥) .

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخارى بالروايات الثلاث الآنفة الذكر محمول

---

(١) « الإصابة » (٢/ ٢٨) .

(٢) رواه البخارى ، وفى رواية لمسلم بزيادة : « فقلت : لو علمتُ والله يا رسول الله أنك تسمع لقراءتى لحبَّرته لك تحبيراً » .

(٣) أخرجه النسائى بسند صحيح .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) « مناهل العرفان » للزرقانى (١/ ٢٣٤) .

على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله فى صدورهم ، وعرضوه على النبى ﷺ ، واتصلت بنا أسانيدهم ، أما غيرهم من حفظة القرآن - وهم كثر - فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها ، لا سيما وأن الصحابة تفرَّقوا فى الأمصار ، وحفظ بعضهم عن بعض ، ويكفى دليلاً على ذلك أن الذين قُتلوا فى بئر معونة من الصحابة كان يُقال لهم القُرَّاء ، وكانوا سبعين رجلاً كما فى الصحيح ، قال القرطبى : « قد قُتلَ يوم اليمامة سبعون من القُرَّاء - وقُتلَ فى عهد النبى ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد » وهذا هو ما فهمه العلماء وأوَّلوا به الأحاديث الدالة على حصر الحُفَّاظ فى السبعة المذكورين ، قال الماوردى [1] معلقًا على رواية أنس : « لم يجمع القرآن غير أربعة » : « لا يلزم من قول أنس : لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع فى نفس الأمر كذلك ، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد وهذا لا يتم إلا إن كان لقى كل واحد منهم على انفراده ، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع فى عهد النبى ﷺ ، وهذا فى غاية البُعد فى العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما فى علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى » [2] .

والماوردى بهذا ينفى الشُبَه التى توهم قلة عدد الحُفَّاظ بأسلوب مقنع ، ويبيِّن الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر فى حديث أنس بيانًا شافيًا .

وقد ذكر أبو عبيد [3] فى كتاب « القراءات » القُرَّاء من أصحاب النبى ﷺ فعدَّ من المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعدًا ، وابن مسعود ، وحذيفة ،

---

(١) هو أبو الحسن علىّ بن حبيب الشافعى ، صاحب كتاب « الأحكام السلطانية » ، وكتاب « أدب الدنيا والدين » توفى سنة ٤٥٠ هجرية .

(٢) يرد الماوردى بالفقرة الأخيرة على الملاحدة الذين يتمسكون برواية أنس الدالة على الحصر فى أن القرآن غير متواتر ، ونضيف إلى رد الماوردى عليهم أنه بجانب الحفظ كانت الكتابة كما سيأتى ، وانظر : « الإتقان » (١/ ٧٢) .

(٣) أبو عبيد : هو القاسم بن سلام الهروى الأزدى الخزاعى ، من أئمة الحديث واللُّغة ، صاحب كتاب « الأموال » المشهور ، توفى سنة ٢٢٤ هجرية .

وسالمًا ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة [1] ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ، ومعاذًا الذى يُكَنَّى أبا حليمة ، ومجمع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلد ، وصرَّح بأن بعضهم إنما كمَّله بعد النبى ﷺ [2] .

وذكر الحافظ الذهبى [3] فى « طبقات القراء » أن هذا العدد من القُرَّاء هم الذين عرضوه على النبى ﷺ ، واتصلت بنا أسانيدهم ، وأما مَن جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير .

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن فى عهد الرسول ﷺ كانوا جمعًا غفيرًا ، فإن الاعتماد على الحفظ فى النقل من خصائص هذه الأمة ، قال ابن الجزرى [4] شيخ القُرَّاء فى عصره : « إن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » .

(ب) جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول ﷺ :

اتخذ رسول الله ﷺ كُتَّابًا للوحى من أجلَّاء الصحابة ، كعلىّ ، ومعاوية ، وأُبَىّ ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها ، حتى تُظاهِر الكتابةُ فى السطور ، الجمع فى الصدور ، كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم ، دون أن يأمرهم النبى ﷺ ، فيخطونه فى العسب ، واللِّخاف ، والكرانيف ، والرقاع ، والأقتاب ،

---

(١) العبادلة الأربعة المشهورون بالإفتاء هم : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

(٢) انظر : « الإتقان » (١/ ٧٢) .

(٣) اسمه محمد بن أحمد بن عثمان من كبار المحدِّثين فى القرن الثامن ، توفى سنة ٧٤٨ هجرية .

(٤) هو محمد بن محمد الشهير بابن الجزرى ، صاحب كتاب « النشر فى القراءات العشر » توفى سنة ٨٣٣ هجرية .

وقطع الأديم ، والأكتاف [١] ، عن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله ﷺ نُؤلِّف القرآن من الرقاع » [٢] .

وهذا يدل على مدى المشقة التى كان يتحملها الصحابة فى كتابة القرآن ، حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل ، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ .

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل سنة فى ليالى رمضان ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » [٣] .

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله ﷺ ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة كذلك .

ولم تكن هذه الكتابة فى عهد النبى ﷺ مجتمعة فى مصحف عام ، بل عند هذا ما ليس عند ذاك ، وقد نقل العلماء أن نفرًا منهم : علىّ بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود - قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ ، وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخرًا عن الجميع .

وقُبِضَ رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ فى الصدور ، ومكتوب فى الصحف على نحو ما سبق ، مفرَّق الآيات والسور ، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة فى صحيفة

---

(١) العسب : جمع عسيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض ، واللِّخاف : جمع لخفة ، وهى صفائح الحجارة ، والكرانيف : جمع كرنافة ، وهى أصول السعف الغلاظ ، والرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو رق ، والأقتاب : جمع قتب ، وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليُركب عليه ، والأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم الذى للبعير أو الشاة ، كانوا إذا جف كتبوا عليه .

(٢) أخرجه الحاكم فى « المستدرك » بسند على شرط الشيخين ، نؤلِّف القرآن : أى نجمعه، لترتيب آياته .

(٣) متفق عليه .

على حدة ، بالأحرف السبعة الواردة (١) ، ولم يُجمع فى مصحف عام ، حيث كان الوحى يتنزل تباعًا فيحفظه القرَّاء ، ويكتبه الكَتَبة ، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه فى مصحف واحد ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحى من حين لآخر ، وقد يكون منه الناسخ لشىء نزل من قبل ، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تُكتب الآية بعد نزولها حيث يشير ﷺ إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا فى سورة كذا ، ولو جُمِعَ القرآن كله بين دفتى مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شىء من الوحى ، قال الزركشى : « وإنما لم يُكتب فى عهد النبى ﷺ مصحف لئلا يُفضى إلى تغييره فى كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ » وبهذا يُفسِّر ما رُوِىَ عن زيد بن ثابت ، قال : « قُبِضَ النبى ﷺ ولم يكن القرآن جُمِعَ فى شىء » ، أى لم يكن جُمِعَ مرتب الآيات والسور فى مصحف واحد ، قال الخطابى : « إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة (٢) فكان ابتداء ذلك على يد الصدِّيق بمشورة عمر » (٣) .

ويسمى هذا الجمع فى عهد النبى ﷺ : (أ) حفظًا . (ب) وكتابة : « الجمع الأول » .

* * *

٢ - جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، وواجهته أحداث جسام فى ارتداد جمهرة العرب ، فجهَّز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين ، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة تضم عددًا كبيرًا من الصحابة القُرَّاء ، فاستشهد فى هذه الغزوة سبعون قارئًا من الصحابة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب ، ودخل على

---

(١) سيأتى بيان الأحرف السبعة .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

(٣) انظر : « الإتقان » (١/ ٥٧) .

أبى بكر رضى الله عنه وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع ، فإن القتل قد استحر [(١)] يوم اليمامة بالقُرَّاء - ويُخشى إن استحر بهم فى المواطن الأخرى أن يضيع القرآن ويُنسَى ، فنفر أبو بكر من هذه المقالة وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ، وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبى بكر لهذا الأمر ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته فى القراءة والكتابة والفهم والعقل ، وشهوده العرضة الأخيرة ، وقصَّ عليه قول عمر - فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل ، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة ، وبدأ زيد بن ثابت فى مهمته الشاقة معتمداً على المحفوظ فى صدور القُرَّاء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف عند أبى بكر ، حتى إذا توفى سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر ، وظلت عنده حتى مات - ثم كانت عند حفصة ابنته صدراً من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة .

عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلىَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرَّاء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقرَّاء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أريد أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر - قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنتَ تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلَّفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعتُ القرآن أجمعه من العسب واللِّخاف وصدور الرجال ، ووجدتُ آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [(٢)] حتى خاتمة براءة ، فكانت

---

(١) استحر : اشتد .

(٢) التوبة : ١٢٨

الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » [١] .

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت ، فكان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة ، وقوله فى الحديث : « ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره » لا ينافى هذا ، ولا يعنى أنها ليست متواترة ، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره ، وكان زيد يحفظها ، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك ، لأن زيدًا كان يعتمد على الحفظ والكتابة معًا ، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم ، ويشهدون بأنها كُتِبَت ، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبى خزيمة الأنصارى .

أخرج ابن أبى داود [٢] من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، قال : « قدم عمر ، فقال : مَن كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شهيدان » ، وهذا يدل على أن زيدًا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوبًا حتى يشهد به مَن تلَقَّاه سماعًا ، مع كون زيد كان يحفظ ، فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط ، وأخرج ابن أبى داود أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه : « أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه » ورجاله ثقات مع انقطاعه ، قال ابن حجر : « وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتاب » وقال السخاوى [٣] فى « جمال القراء » : « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدى رسول الله ﷺ ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التى نزل بها القرآن » قال أبو شامة : « وكان

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدى السجستانى ، من كبار حفَّاظ الحديث ، له من الكتب : المصاحف ، والمسند ، والسنن ، والتفسير ، والقراءات ، والناسخ والمنسوخ - انظر « الأعلام » للزركلى (٤/ ٢٢٤) .

(٣) هو علىٌّ بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوى ، له منظومة فى القراءات تُعرف بالسخاوية ، توفى سنة ٦٤٣ هجرية .

غرضهم أن لا يُكتب إلا من عين ما كُتِبَ بين يدى النبى ﷺ ، لا من مجرد الحفظ ، ولذلك قال فى آخر سورة التوبة : « لم أجدها مع غيره » أى لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة » (١) .

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوبًا من قبل فى عهد النبى ﷺ ، ولكنه كان مفرّقًا فى الرقاع والأكتاف والعسب ، فأمر أبو بكر بجمعه فى مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، فكان أبو بكر رضى الله عنه أول مَن جمع القرآن بهذه الصفة فى مصحف ، وإن وُجِدَت مصاحف فردية عند بعض الصحابة ، كمصحف علىّ ، ومصحف أُبَىّ ، ومصحف ابن مسعود ، فإنها لم تكن على هذا النحو ، ولم تنل حظها من التحرى والدقة ، والجمع والترتيب ، والاقتصار على ما لم تُنسخ تلاوته ، والإجماع عليها ، بمثل ما نال مصحف أبى بكر ، فهذه الخصائص تميَّز بها جمع أبى بكر للقرآن ، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين فى عهد أبى بكر بهذا الجمع ، وعن علىّ قال : « أعظم الناس أجرًا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول مَن جمع كتاب الله » .

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثانى .

٣ - جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه :

اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وتفرّق القُرَّاء فى الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته ، ووجوه القراء التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التى نزل عليها ، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف ، وقد يقنع بأنها جميعاً مسندة إلى رسول الله ﷺ ، ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التى لم تدرك الرسول ، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها ، وذلك يؤدى إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه ، ثم إلى اللجاج والتأثيم ، وتلك فتنة لا بد لها من علاج .

---

(١) انظر « الإتقان » (١/ ٥٨) .

فلما كانت غزوة « أرمينية » وغزوة « أذربيجان » من أهل العراق ، كان فيمن غزاهما « حذيفة بن اليمان » فرأى اختلافًا كثيراً فى وجوه القراءة ، وبعض ذلك مشوب باللَّحن ، مع إلف كل لقراءته ، ووقوفه عندها ، ومماراته مخالفة لغيره ، وتكفير بعضهم الآخر ، حينئذ فزع إلى عثمان رضى الله عنه ، وأخبره بما رأى ، وكان عثمان قد نمى إليه أن شيئاً من ذلك الخلاف يحدث لمن يُقرئون الصبية ، فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم ، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل ، وأجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التى كانت عند أبى بكر ، ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد ، فأرسل عثمان إلى حفصة ، فأرسلت إليه بتلك الصحف ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصارى ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين ، فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف ، وأن يُكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم .

عن أنس : « أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك - فأرسلت بها حفصة إلى عثمان - فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق، قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع

خزيمة بن ثابت الأنصارى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ (١) فألحقناها فى سورتها فى المصحف (٢) .

ودلت الآثار على أن الاختلاف فى وجوه القراءة لم يفزع منه حذيفة بن اليمان وحده ، بل شاركه غيره من الصحابة فى ذلك ، عن ابن جرير قال : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، قال : حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة ، قال : لما كان فى خلافة عثمان جعل المعلم يُعلِّم قراءة الرجل ، والمعلم يعلِّم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلِّمين - قال أيوب : فلا أعلمه إلا قال - حتى كفر بعضهم بقراءة بعض ، فبلغ ذلك عثمان ، فقام خطيبًا ، فقال : « أنتم عندى تختلفون فيه وتلحنون ، فمن نأى عنى من أهل الأمصار أشد فيه اختلافًا وأشد لحنًا ، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا» قال أبو قلابة : فحدثنى أنس بن مالك قال : كنت فيمن يُمْلَى عليهم ، قال : فربما اختلفوا فى الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله ﷺ ، ولعله أن يكون غائبًا فى بعض البوادى ، فيكتبون ما قبلها وما بعدها ، ويدعون موضعها ، حتى يجئ أو يرسل إليه ، فلما فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار : إنى قد صنعت كذا وكذا ، ومحوت ما عندى ، فامحوا ما عندكم (٣) .

وأخرج ابن أشتة (٤) من طريق أيوب عن أبى قلابة مثله ، وذكر ابن حجر فى الفتح أن ابن داود أخرجه فى المصاحف من طريق أبى قلابة .

وعن سويد بن غفلة قال : « قال علىّ : لا تقولوا فى عثمان إلا خيرًا ، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصحف إلا عن ملأ منا . قال : ما تقولون فى هذه القراءة ؟

---

(١) الأحزاب : ٢٣ (٢) رواه البخارى .

(٣) انظر الجزء الأول من تفسير الطبرى ، تحقيق وتخريج الأخوين محمد محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ، طبعة دار المعارف (ص٦١ - ٦٢) .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أشتة ، من المحققين الثقات ، الذين اشتغلوا بعلوم القرآن ، توفى سنة ٣٦٠ هجرية .

قد بلغنى أن بعضهم يقول : إن قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرًا ، قلنا : فما ترى ؟ قال : أرى أن يُجْمَعَ الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا : فَنِعْمَ ما رأيت » (١) .

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة ، كُتِبَت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ليجتمع الناس على قراءة واحدة ، ورد عثمان الصحف إلى حفصة ، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف ، واحتبس بالمدينة واحدًا هو مصحفه الذى يسمى الإمام ، وتسميته بذلك لما جاء فى بعض الروايات السابقة من قوله : « اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا » وأمر أن يُحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف ، وتلقت الأُمة ذلك بالطاعة ، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأُخرى ، ولا ضير فى ذلك ، فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة ، ولو أوجب رسول الله ﷺ على الأمة القراءة بها جميعاً لوجب نقل كل حرف منها نقلاً متواترًا تقوم به الحجة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة ، وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة ، وهذا هو كما كان .

قال ابن جرير فيما فعله عثمان : « وجمعهم على مصحف واحد ، وحرف واحد ، وخرق ما عدا المصحف الذى جمعهم عليه ، وعزم على كل مَن كان عنده مصحف « مخالف » المصحف الذى جمعهم عليه ، أن يحرقه (٢) ، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها ، طاعة منها له ، نظرًا منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها ، وتعفت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدثورها وعفو آثارها ،

---

(١) أخرجه ابن أبى داود بسند صحيح .

(٢) انظر هذا النص فى « تفسير ابن جرير الطبرى » (١/ ٦٤ - ٦٥) ، وفى التعليق ، قال ابن حجر فى « الفتح » (٩/ ١٨) فى « شرح حديث البخارى » : « فى رواية الأكثر « أن يخرق » بالخاء المعجمة ، وللمروزى بالمهملة ، ورواه الأصيلى بالوجهين ، والمعجمة أثبت ، وخرق الكتاب أو الثوب : شقه ومزقه .

وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها ، من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها ، ولكن نظرًا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها ، فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض مَن ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ ، وأمرهم بقراءتها ؟

قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورُخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة ، عند مَن يقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره العذر ، ويزيل الشك من قرأة [1] الأمة ، وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيَّرين ، بعد أنْ يكون فى نقلة القرآن مَن الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة .

وإذا كان ذلك كذلك ، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع ، تاركين ما كان عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا ، إذ كان الذى فعلوا من ذلك ، كان هو النظر للإسلام وأهله ، فكان القيام بفعل الواجب عليهم، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه ، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة ، من ذلك » .

* * *

● الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان :

يتبين من النصوص أن جمع أبى بكر يختلف عن جمع عثمان فى الباعث والكيفية .

فالباعث لدى أبى بكر رضى الله عنه لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته ، حين استحر القتل بالقُرَّاء .

---

(١) « من قرأة الأمة » . القرأة : جمع قارئ .

والباعث لدى عثمان رضى الله عنه كثرة الاختلاف فى وجوه القراءة ، حين شاهد هذا الاختلاف فى الأمصار وخطأ بعضهم بعضًا .

وجمع أبى بكر للقرآن كان نقلاً لما كان مفرَّقًا فى الرِقاع والأكتاف والعسب ، وجمعاً له فى مصحف واحد مرتب الآيات والسور ، مقتصرًا على ما لم تُنسخ تلاوته ، مشتملاً على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .

وجمع عثمان للقرآن كان نسخًا له على حرف واحد من الحروف السبعة ، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد ، وحرف واحد يقرأون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى ، قال ابن التين وغيره : « الفرق بن جمع أبى بكر وجمع عثمان ، أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعًا فى موضع واحد ، فجمعه فى صحائف ، مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى ﷺ ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللُّغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعضه ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك ، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبًا لسوره ، واقتصر من سائر اللُّغات على لغة قريش ، محتجًا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسَّع فى قراءته بلغة غيرهم رفعًا للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة » ، وقال الحارث المحاسبى : « المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد ، على اختيار وقع بينه وبين مَن شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصِدِّيق» (١) .

وبهذا قطع عثمان دابر الفتنة ، وحسم مادة الخلاف ، وحصَّن القرآن من أن يتطرق إليه شىء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان .

وقد اختلف العلماء فى عدد المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق :

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٥٩ - ٦٠) .

(أ) فقيل : كان عددها سبعة ، أُرسلت إلى : مكة ، والشام ، والبصرة ، والكوفة ، واليمن ، والبحرين ، والمدينة ، قال ابن أبى داود : سمعتُ أبا حاتم السجستانى يقول : كتب سبعة مصاحف ، فأرسل إليى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحدًا .

(ب) وقيل : كان عددها أربعة ، العراقى ، والشامى ، والمصرى ، والمصحف الإمام ، أو الكوفى ، والبصرى ، والشامى ، والمصحف الإمام ، قال أبو عمرو الدانى فى المقنع [(١)] : « أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدة : الكوفة ، والبصرة ، والشام ، وترك واحدًا عنده » .

(جـ) وقيل : كان عددها خمسة ، وذهب السيوطى إلى أن هذا هو المشهور .

أما الصحف التى رُدَّت إلى حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت ، ثم غُسِلت غسلاً [(٢)] وقيل : أخذها مروان بن الحكم وأحرقها .

والمصاحف التى كتبها عثمان لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم ، والذى يُرْوَى عن ابن كثير [(٣)] فى كتابه « فضائل القرآن » أنه رأى واحدًا منها بجامع دمشق بالشام ، فى رق يظنه من جلود الإبل ، ويُرْوَى أن هذا المصحف الشامى نُقِلَ إلى انجلترا بعد أن ظل فى حوزة قياصرة الروس فى دار الكتب فى لينينجراد فترة ، وقيل: إنه احترق فى مسجد دمشق سنة ١٣١٠ هجرية .

وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث ، وكان سنة ٢٥ هجرية .

* * *

---

(١) هو عثمان بن سعيد ، من أئمة القرَّاء ، له من الكتب : « التيسير فى القراءات السبع»، و« المقنع فى رسم القرآن » ، و« المحكم فى نقط المصاحف » توفى سنة ٤٤٤ هجرية .

(٢) « تفسير الطبرى » (١/ ٦١) .

(٣) عماد الدين أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، صاحب « تفسير القرآن » ، و«البداية والنهاية فى التاريخ » ، توفى سنة ٧٧٤ هجرية .

شُبَه مردودة

هناك شُبَه يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن ، والتشكيك فى دقة جمعه ، ونحن نورد أهمها ونرد عليها :

١ - قالوا : إن الآثار قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شيء لم يُكتب فى المصاحف التى بأيدينا اليوم :

(أ) عن عائشة قالت : « سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ فى المسجد فقال : يرحمه الله ، لقد أذكرنى كذا وكذا آية من سورة كذا » ، وفى رواية : « أسقطتهن من آية كذا وكذا » ، وفى رواية : « كنت أنسيتها » (١) .

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول ﷺ بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسيانًا لا يشكك فى جمع القرآن ، فإن الرواية التى جاء فيها التعبير بالإسقاط تفسرها الرواية الأخرى : « كنت أنسيتها » ، وهذا يدل على أن المراد بإسقاطها نسيانها ، كما يدل عليه لفظ : « أذكرنى » والنسيان جائز على رسول الله ﷺ فيما لا يخل بالتبليغ ، وكانت هذه الآيات قد حفظها رسول الله ، واستكتبها كُتّاب الوحى ، وحفظها الصحابة فى صدورهم ، وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر ، فنسيان الرسول ﷺ لها بعد ذلك لا يؤثر فى دقة جمع القرآن ، وهذا هو غاية ما يدل عليه الحديث ، ولذا كانت قراءة هذا الرجل - وهو أحد الحفظة الذين يبلغ عددهم حد التواتر - مذكرة لرسول الله ﷺ : « لقد أذكرنى كذا وكذا آية » .

(ب) وقال تعالى فى سورة الأعلى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى * إلا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ (٢) والاستثناء يدل على أن رسول الله ﷺ أُنسِىَ بعض الآيات .

ويُجاب عن ذلك بأن الله تعالى قد وعد رسوله بإقراء القرآن وحفظه ، وأمَّنه من النسيان فى قوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ﴾ ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك ، والله تعالى فاعل مختار ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (٣) جاء الاستثناء

---

(١) الحديث فى الصحيحين بألفاظ متقاربة .
(٢) الأعلى : ٦ - ٧
(٣) الأنبياء : ٢٣

﴿ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ للدلالة على أن هذا الإخبار بإقراء الرسول القرآن وتأمينه من النسيان ليس خارجًا عن إرادته تعالى ، فإنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، يقول الشيخ محمد عبده فى تفسير الآية : « ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم ، ربما يوهم أن قدرة الله لا تتسع غيره ، وأن ذلك خارج عن إرادته جل شأنه ، جاء بالاستثناء فى قوله : ﴿ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئًا لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو نفى النسيان رأسًا ، وقالوا : إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه : « أنت سهيمى فيما أملك إلا ما شاء الله » لا يقصد استثناء شيء ، وهو من استعمال القلة فى معنى النفى ، وعلى ذلك جاء الاستثناء ، فى قوله تعالى فى سورة هود : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (١) أى غير مقطوع ، فالاستثناء فى مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد ، بكرم من الله وسعة جوده ، لا بتحتيم عليه وإيجاب ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

وما ورد من أنه ﷺ نسى شيئًا كان يذكره ، فذلك إن صح ، فهو فى غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التى أُمرَ بتبليغها ، وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين ، التى جازت على عقول المغفلين ، فلوَّثوا بها ما طهَّره الله ، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشيء من ذلك » .

٢ - وقالوا : إن فى القرآن ما ليس منه ، واستدلوا على ذلك بما رُوِىَ من أن ابن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن .

ويُجاب عن ذلك بأن ما نُقِلَ عن ابن مسعود رضى الله عنه لم يصح ، وهو مخالف لإجماع الأمة ، قال النووى فى شرح المهذب : « وأجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن مَن جحد شيئاً منها كفر ، وما نُقِلَ عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » ، وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع » .

---

(١) هود : ١٠٨

وعلى فرض صحته ، فالذى يُحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبى ﷺ فتوقف فى أمرهما .

وإنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر .

ومثل هذا يُجاب به على ما قيل من أن مصحف ابن مسعود قد أُسقطت منه الفاتحة ، فإن الفاتحة هى أم القرآن ، ولا تخفى قرآنيتها على أحد .

٣ - ويزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان حرَّفوا القرآن ، وأسقطوا بعض آياته وسوره ، فحرَّفوا لفظ : ﴿ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (١) والأصل : « أئمة هى أزكى من أئمتكم » ، وأسقطوا من سورة « الأحزاب » آيات فضائل أهل البيت وقد كانت فى طولها مثل سورة « الأنعام » ، وأسقطوا سورة الولاية بتمامها من القرآن .

ويُجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها ، ودعاوى لا بيِّنة عليها ، والكلام فيها حمق وسفاهة ، وقد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السخف ، والمنقول عن علىّ رضى الله عنه الذى يدَّعون التشيع له ، يناقضه ، ويدل على انعقاد الإجماع بتواتر القرآن الذى بين دفتى المصحف ، فقد أُثِرَ عنه أنه قال فى جمع أبى بكر : « أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول مَن جمع كتاب الله » ، وقال فى جمع عثمان : « يا معشر الناس ، اتَّقوا الله ، وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم : حرَّاق مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ » ، وقال : « لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » .

فهذا الذى أُثِرَ عن علىٍّ نفسه يقطع ألسنة أولئك المفترين الذين يزعمون نُصرته فيهرفون بما لا يعرفون تشيعًا له ، وهو منهم براء (٢) .

* * *

(١) النحل : ٩٢ .

(٢) انظر : « مناهل العرفان » (١/ ٤٦٤) .

ترتيب الآيات والسور

• ترتيب الآيات :

القرآن سور وآيات منها القصار والطوال ، والآية : هى الجملة من كلام الله المندرجة فى سورة من القرآن ، والسورة : هى الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع ، وترتيب الآيات فى القرآن الكريم توقيفى عن رسول الله ﷺ ، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك : منهم : الزركشى فى « البرهان » ، وأبو جعفر ابن الزبير [1] فى « مناسباته » إذ يقول : « ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف بين المسلمين » وجزم السيوطى بذلك فقال : « الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك » فقد كان جبريل يتنزل بالآيات على رسول الله ﷺ ويرشده إلى موضعها من السورة أو الآيات التى نزلت قبل ، فيأمر الرسول كتبة الوحى بكتابتها فى موضعها ويقول لهم : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يُذكر فيها كذا أو كذا ، أو ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، كما بلّغها أصحابه كذلك ، عن عثمان بن أبى العاص قال : « كنتُ جالسًا عند رسول الله ﷺ إذ شَخَصَ ببصره ثم صوَّبه ، ثم قال: أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ﴾ [2] ... إلى آخرها»[3].

ووقف عثمان فى جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها فى القرآن ، ولو كانت منسوخة الحكم ، لا يغيرها ، وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقيفية ، عن ابن الزبير قال : « قلتُ لعثمان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى ، كان من النحاة الحفَّاظ ، توفى سنة ٨٠٧ هجرية .

(٢) النحل : ٩٠ (٣) أخرجه أحمد بإسناد حسن .

مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ (١) قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ (٢) قال : « يابن أخى ، لا أغيِّر شيئاً من مكانه » (٣) .

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها ، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفيًا ، إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث ، عن أبى الدرداء مرفوعًا : « مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال » ، وفى لفظ : « مَن قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ... » (٤) كما جاءت الأحاديث الدالة على آية بعينها فى موضعها ، عن عمر قال : « ما سألتُ النبى ﷺ عن شىء أكثر مما سألته عن الكَلالة ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » (٥) .

وثبتت قراءة رسول الله ﷺ لسور عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة ، أو فى خطبة الجمعة ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء ، وصح أنه قرأ « الأعراف » فى المغرب ، وأنه كان يقرأ فى صبح الجمعة : ﴿ الم * تَنْزِيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (السجدة) (٦) ، و﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾ (الدهر) (٧) وكان يقرأ سورة « ق » فى الخطبة ، ويقرأ « الجمعة » ، و« المنافقون » فى صلاة الجمعة .

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل عام مرة فى رمضان ، وعارضه فى العام الأخير من حياته مرتين ، وكان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن .

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو فى المصحف المتداول فى أيدينا توقيفيًا ، لا مراء فى ذلك ، قال السيوطى بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة : « تدل قراءته ﷺ لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفى وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبًا سمعوا النبى ﷺ يقرأ على خلافه ، فبلغ ذلك مبلغ التواتر » (٨) .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٤٠

(٢) أى لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم أنها منسوخة ؟

(٣) أخرجه البخارى . (٤) رواه مسلم . (٥) رواه مسلم .

(٦) أى سورة السجدة . (٧) أى سورة الإنسان . (٨) انظر « الإتقان » (١/ ٦١) .

● **ترتيب السور :**

اختلف العلماء في ترتيب السور :

(أ) فقيل : إنه توقيفى ، تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه ، فكان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتب السور ، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذى لدينا اليوم ، وهو ترتيب مصحف عثمان الذى لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع عليه .

ويؤيد هذا الرأى : أن رسول الله ﷺ قرأ بعض السور مرتبة فى صلاته ، روى ابن أبى شيبة : أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفصَّل فى ركعة ، وروى البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهن من العتاق الأول ، وهن من تِلادى » فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها .

ورُوِىَ من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : « سمعتُ ربيعة يسأل : لِمَ قُدِّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة مكية ، وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قُدِّمتا وألِّف القرآن على علم ممن ألَّفه به ، ثم قال : فهذا مما ينتهَى إليه ولا يُسأل عنه » (١) .

وقال ابن الحصار : « ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى ، كان رسول الله ﷺ يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف » (٢) .

(ب) وقيل : إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم فى الترتيب .

فمصحف « علىّ » كان مرتبًا على النزول ، أوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم (ن) والقلم ، ثم المزمل وهكذا . . . إلى آخر المكى والمدنى .

---

(١) أخرجه ابن أشته فى كتاب « المصاحف » والمراد بالتأليف : الجمع .

(٢) انظر « الإتقان » (١/ ٦٢) .

وكان أول مصحف ابن مسعود : البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

وأول مصحف أُبَيّ : الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

وقد روى ابن عباس قال : « قلتُ لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ووضعتموها فى السبع الطوال ، فقال : كان رسولَ الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض مَن يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبيِّن لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ووضعتها فى السبع الطوال » (١) .

(جـ) وقيل : إن بعض السور ترتيبه توقيفى وبعضها باجتهاد الصحابة : حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور فى عهد النبوَّة ، فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصَّل فى حياته عليه الصلاة والسلام .

رُوِىَ أن رسول الله ﷺ قال : « اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران » (٢) .

ورُوِىَ « أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، فقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ و« المعوذتين » (٣) .

وقال ابن حجر : « ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيًا » واستدل على ذلك بحديث حذيفة الثقفى حيث جاء فيه : « فقال لنا رسول الله ﷺ : « طرأ علىّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه » ، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تُحَزِّبون القرآن ؟ قالوا : نُحَزِّبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ،

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم .

(٢) رواه مسلم . (٣) رواه البخارى .

وحزب المفصّل من « ق » حتى نختم [١] ، قال ابن حجر : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : ويحتمل أن الذى كان مرتبًا حينئذ حزب المفصّل خاصة بخلاف ما عداه » .

وإذا ناقشنا هذه الآراء الثلاثة يتبين لنا :

أن الرأى الثانى الذى يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يُعتمد عليه .

فاجتهاد بعض الصحابة فى ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارًا منهم قبل أن يُجمع القرآن جمعًا مرتبًا ، فلما جُمِعَ فى عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم ، ولو كان الترتيب اجتهاديا لتمسكوا بها .

وحديث سورتى : الأنفال والتوبة الذى رُوِىَ عن ابن عباس يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسي » الذى يذكره البخارى فى الضعفاء ، وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور . كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : « إنه حديث لا أصل له » .

وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط [٢] .

أما الرأى الثالث الذى يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفى ، وبعضها ترتيبه اجتهادى ، فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفى ، أما القسم الاجتهادى فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادى ، إذ أن ثبوت التوقيفى بأدلته لا يعنى أن ما سواه اجتهادى ، مع أنه قليل جدًا .

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات ، قال أبو بكر

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود ، وانظر : « الإتقان » (١/ ٦٣) .

(٢) وحُكِىَ أن البسملة ثابتة لبراءة فى مصحف ابن مسعود ، وفى « المستدرك » للحاكم أن على بن أبى طالب سُئِلَ : لِمَ لَمْ تُكتب فى براءة : ﴿ بِسم اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف .

ابن الأنبارى : « أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرَّقه فى بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابًا لمستخبِر ، ويوقف جبريل النبى ﷺ على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبى ﷺ . فمن قدَّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن » وقال الكرمانى فى « البرهان » : « ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللَّوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه . وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين . وكان آخر الآيات نزولاً : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ﴾ (١) فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدَّيْن » (٢) .

ومال السيوطى إلى ما ذهب إليه البيهقى قال : « كان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان » .

* * *

سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة : ١ – الطوال . ٢ – والمئين .
٣ – والمثانى . ٤ – والمفصل . نوجز أرجح الآراء فيها :

١ – **فالطوال** : سبع : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والسابعة ، قيل : هى الأنفال وبراءة معًا لعدم الفصل بينهما بالبسملة ، وقيل : هى يونس .

٢ – **والمئون** : التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

٣ – **والمثانى** : هى التى تليها فى عدد الآيات ، سميت بذلك لأنها تُثَنَّى فى القراءة وتُكَرَّر أكثر من الطوال والمئين .

٤ – **والمفصَّل** : قيل : من أول سورة « ق » ، وقيل : « من أول « الحجرات » ، وقيل غير ذلك – وأقسامه ثلاثة – طواله ، وأوساطه ، وقصاره .

---

(١) البقرة : ٢٨١ (٢) انظر : « الإتقان » (١/ ٦٢) .

فطواله : من « ق » أو « الحجرات » إلى « عم » أو « البروج » ، **وأوساطه** : من « عم » أو « البروج » إلى « الضحى » أو إلى « لم يكن » ، **وقصاره** : من « الضحى » ، أو « لم يكن » إلى آخر القرآن ، على خلاف فى ذلك .

وتسميته بالمفصَّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة .

وتعداد السور : مائة وأربع عشرة سورة ، وقيل : وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة .

أما تعداد الآيات : فستة آلاف ومائتا آية ، واختلفوا فيما زاد عن ذلك .

وأطول الآيات : آية الدَّيْن ، **وأطول السور** : سورة البقرة .

وهذه التجزئة تُيَسِّر على الناس الحفظ ، وتحملهم على الدراسة ، وتُشعر القارئ لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطًا وافيًا وطائفة مستقلة من أصول دينه وأحكام شريعته .

* * *

الرسم العثمانى

سبق الحديث عن جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وقد اتبع زيد بن ثابت والثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة فى الكتابة ارتضاها لهم عثمان ، ويسمى العلماء هذه الطريقة بـ « الرسم العثمانى للمصحف » نسبة إليه ، واختلف العلماء فى حكمه :

١ - فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثمانى للقرآن توقيفى يجب الأخذ به فى كتابة القرآن ، وبالغوا فى تقديسه ، ونسبوا التوقيف فيه إلى النبى ﷺ ، فذكروا أنه قال لمعاوية - أحد كتبة الوحى : « ألق الدواة ، وحَرِّف القلم ، وانصب الباء ، وفرّق السين ، ولا تُعَوِّر الميم ، وحسّن الله ، ومَدّ الرحمن ، وجَوِّد الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فإنه أذكر لك » ونقل ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال له : « ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبى وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول ، وهو سر من الأسرار خَصَّ

الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية ، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز » .

والتمسوا لذلك الرسم أسرارًا تجعل للرسم العثمانى دلالة على معان خفية دقيقة ، كزيادة « الياء » فى كتابة كلمة « أيد » من قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْد ﴾ [1] إذ كتبت هكذا « بأييد » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التى بنى بها السمَاء ، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة ، وهى : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى [2] .

وهذا الرأى لم يرد فيه شىء عن رسول الله ﷺ حتى يكون الرسم توقيفيًا ، وإنما اصطلح الكتبة على هذا الرسم فى زمن عثمان برضا منه ، وجعل لهم ضابطًا لذلك بقوله للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم » وحين اختلفوا فى كتابة « التابوت » فقال زيد : « التابوه » ، وقال النفر القرشيون : « التابوت » وترافعوا إلى عثمان ، قال : « اكتبوا « التابوت » فإنما أُنْزِلَ القرآن على لسان قريش » .

٢ - وذهب كثير من العلماء إلى أن الرسم العثمانى ليس توقيفيًا عن النبى ﷺ ، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان ، وتلقته الأمة بالقبول ، فجب التزامه والأخذ به ، ولا تجوز مخالفته ، قال أشهب : « سُئِلَ مالك : هل يُكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ قال : لا ، إلا على الكتبة الأولى » رواه أبو عمرو الدانى فى « المقنع » ثم قال : « ولا مخالف له من علماء الأمة » ، وقال فى موضع آخر : سُئِلَ مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن تُغَيَّر من المصحف إذا وُجِدا فيه كذلك قال : لا ، قال أبو عمرو : يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللَّفظ نحو « أولوا » وقال الإمام أحمد : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك » [3] .

---

(١) الذاريات : ٤٧ .

(٢) انظر : « مناهل العرفان » للزرقانى (٢/ ٣٧٠) وما بعدها .

(٣) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٦٧) ، و« البرهان » للزركشى (١/ ٣٧٩) .

٣ - وذهب جماعة إلى أن الرسم العثمانى اصطلاحى ، ولا مانع من مخالفته إذا اصطلح الناس على رسم خاص للإملاء وأصبح شائعًا بينهم . قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه « الانتصار » : « وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئًا ، أو لم يأخذ على كُتَّاب القرآن وخُطَّاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يُدْرَكَ إلا بالسمع والتوقيف ، وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وَحَدٍّ محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا فى نص السُّنَّة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السُّنَّة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبيِّن لهم وجهًا معينًا ولا نهى أحدًا عن كتابته ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم مَن كان يكتب الكلمة على مخرج اللّفظ ، ومنهم مَن كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز أن يُكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يُجعل الكلام على صورة الكاف ، وأن تُعَوَّج الألفات ، وأن يُكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يُكتب بالخطوط والهجاء المحدَثة ، وجاز أن يُكتب بين ذلك ، وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأثيم ولا تناكر ، عُلِمَ أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أُخِذَ عليهم فى القراءة ، والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دال على الكلمة مقيِّد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت . . وبالجملة فكل مَن ادَّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنَّى له ذلك » .

وانطلاقًا من هذا الرأى يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن الكريم وفق القواعد الإملائية الشائعة المصطلَح عليها ، حتى تسهل قراءته على القارئين من

الطلاب والدارسين ، ولا يشعر الطالب أثناء قراءته للقرآن باختلاف رسمه عن الرسم الإملائى الاصطلاحى الذى يدرسه .

والذى أراه أن الرأى الثانى هو الرأى الراجح ، وأنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثمانى المعهود فى المصحف .

فهو الرسم الاصطلاحى الذى توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضى الله عنه ، والحفاظ عليه ضمان قوى لصيانة القرآن من التغيير والتبديل فى حروفه ، ولو أبيحت كتابته بالاصطلاح الإملائى لكل عصر لأدى هذا إلى تغيير خط المصحف من عصر لآخر ، بل إن قواعد الإملاء نفسها تختلف فيها وجهات النظر فى العصر الواحد ، وتتفاوت فى بعض الكلمات من بلد لآخر .

واختلاف الخطوط الذى يذكره القاضى أبو بكر الباقلانى شىء والرسم الإملائى شىء آخر ، فاختلاف الخط تغير فى صورة الحرف لا فى رسم الكلمة .

وحجة تيسير القراءة على الطلاب والدارسين بانتفاء التعارض بين رسم القرآن والرسم الإملائى الاصطلاحى لا تكون مبررًا للتغيير الذى يؤدى إلى التهاون فى تحرى الدقة بكتابة القرآن .

والذى يعتاد القراءة فى المصحف يألف ذلك ويفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعة على الكلمات ، والذين يمارسون هذا فى الحياة التعليمية أو مع أبنائهم يدركون أن الصعوبة التى توجد فى القراءة بالمصحف أول الأمر تتحوَّل بالمران بعد فترة قصيرة إلى سهولة تامة .

قال البيهقى فى شُعَب الإيمان : « مَن يكتب مصحفًا فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يُغَيِّر مما كتبوه شيئاً ، فإنهم كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم » (١) .

* * *

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٦٧) .

تحسين الرسم العثمانى

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل ، اعتماداً على السليقة العربية السليمة التى لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجام بالنقط ، فلما تطرَّق إلى اللِّسان العربى الفساد بكثرة الاختلاط أحس أُولو الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة .

واختلف العلماء فى أول جهد بُذِلَ فى ذلك السبيل .

فيرى كثير منهم أن أول مَن فعل ذلك أبو الأسود الدؤلى الذى يُنسب إليه وضع ضوابط للعربية بأمر علىّ بن أبى طالب ، ويُرْوَى فى ذلك أنه سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (١) فقرأها بجر اللام من كلمة « رسوله » فأفزع هذا اللَّحن أبا الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ، ثم ذهب إلى زياد والى البصرة ، وقال له : قد أجبتك إلى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ فى الجواب حتى راعه هذا الحادث ، وهنا جد جده ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين .

ويذكر السيوطى فى « الإتقان » أن أبا الأسود الدؤلى أول مَن فعل ذلك بأمر عبد الملك بن مروان لا بأمر زياد ، حيث ظل الناس يقرأون فى مصحف عثمان بضعًا وأربعين سنة ، حتى خلافة عبد الملك حين كثرت التصحيفات وانتشرت فى العراق ففكر الولاة فى النقط والتشكيل .

وهناك روايات أخرى تنسب هذا الفعل إلى آخرين ، منهم : الحسن البصرى ، ويحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم الليثى ، وأبو الأسود الدؤلى هو الذى اشتهر عنه ذلك ، وربما كان للآخرين المذكورين جهود أخرى بُذِلَت فى تحسين الرسم وتيسيره .

---

(١) التوبة : ٣

وقد تدرج تحسين رسم المصحف ، فكان الشكل فى الصدر الأول نقطًا ، فالفتحة نقطة على أول الحرف ، والضمة على آخره ، والكسرة تحت أوله .

ثم كان الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف ، وهو الذى أخرجه الخليل ، فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف ، والكسر كذلك تحته ، والضم واو صغرى فوقه ، والتنوين زيادة مثلها ، وتُكتب الألف المحذوفة والمبدَّل منها فى محلها حمراء ، والهمزة المحذوفة تُكتب همزة بلا حرف حمراء أيضاً ، وعلى النون والتنوين قبل الباء علامة الإقلاب حمراء ، وقبل الحلق سكون ، وتعرى عند الإدغام والإخفاء ، ويسكن كل مسكن ، ويعرى المدغم ويشدَّد ما بعده إلا الطاء قبل التاء فيكتب عليها السكون نحو « فرطْت » (١) .

ثم كان القرن الثالث الهجرى فجاد رسم المصحف وتحسن ، وتنافس الناس فى اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميَّزة ، فجعلوا للحرف المشدَّد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها ، على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة .

ثم تدرج الناس بعد ذلك فى وضع أسماء السور وعدد الآيات ، والرموز التى تشير إلى رؤوس الآى ، وعلامات الوقف اللازم (م) والممنوع (لا) والجائز جوازًا مستوى الطرفين (ج) والجائز مع كون الوصل أولى (صلى) والجائز مع كون الوقف أولى (قلى) وتعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر (.·. .·.) والتجزئة ، والتحزيب ، إلى غير ذلك من وجوه التحسين .

وكان العلماء فى بداية الأمر يكرهون ذلك خوفًا من وقوع زيادة فى القرآن مستندين إلى قول ابن مسعود : « جرِّدُوا القرآن ولا تخلطوه بشىء » ، ويفرِّق بعضهم بين النقط الجائز ، والأعشار والفواتح التى لا تجوز ، قال الحليمى : « تُكره كتابة الأعشار والأخماس ، وأسماء السور وعدد الآيات فيه لقول ابن مسعود :

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٧١) .

« جرِّدوا القرآن » وأما النقط فيجوز ، لأنه ليس له صورة فيَتَوهَّم لأجلها ما ليس بقرآن قرآنًا ، وإنما هى دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها » .

ثم انتهى الأمر فى ذلك إلى الإباحة والاستحباب ، أخرج ابن أبى داود عن الحسن ، وابن سيرين أنهما قالا : « لا بأس بنقط المصاحف » ، وأخرج عن ربيعة ابن أبى عبد الرحمن : أنه قال : « لا بأس بشكله » ، وقال النووى : « نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللَّحن والتحريف » (١) .

وقد وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها فى الخط العربى .

* * *

الفواصل ورؤوس الآى

تميز القرآن الكريم بمنهج فريد فى فواصله ورؤوس آياته ، ونعنى بالفاصلة : الكلام المنفصل مما بعده ، وقد يكون رأس آية وقد لا يكون ، وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابى ، سميت بذلك لأن الكلام ينفصل عندها .

ونعنى برأس الآية : نهايتها التى توضع بعدها علامة الفصل بين آية وآية ، ولهذا قالوا (٢) : « كل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية ، فالفاصلة تعم النوعين ، وتجمع الضربين » ، لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها .

ومثل هذا قد يُسمى فى كلام الناس سجعًا على النحو المعروف فى علم البديع ، ولكن كثيرًا من العلماء (٣) لا يطلق هذا الوصف على القرآن الكريم سمُوا به عن كلام الأدباء ، وعبارات الأنبياء ، وأسلوب البلغاء ، وفرَّقوا بين الفواصل والسجع، بأن الفواصل فى القرآن : هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة لذاتها .

أما السجع : فهو الذى يُقصد فى نفسه ثم يحيل المعنى عليه ، لأنه : موالاة

---

(١) انظر : « الإتقان » (١٧٢/٢) . (٢) انظر : « البرهان » للزركشى (٥٣/١) .

(٣) على رأس هؤلاء « الرمانى » فى كتاب « إعجاز القرآن » والقاضى أبو بكر الباقلانى فى كتاب « إعجاز القرآن » كذلك .

الكلام على وزن واحد ، ورد القاضى أبو بكر الباقلانى على مَن أثبت السجع فى القرآن فقال : « وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يُقال : هو سجع مُعْجِز لجاز لهم أن يقولوا : شِعر معجز ، وكيف ؟ والسجع مما كانت كهَّان العرب تألفه ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حُجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تخالف النبوَّات بخلاف الشِعر ، وما توَّهموا أنه سجع باطل [1] ، لأن مجيئه على صورته لا يقتضى كونه هو ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللَّفظ الذى يؤدى بالسجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى معنى السجع من القرآن ، لأن اللَّفظ وقع فيه تابعًا للمعنى ، وفرق بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظمًا دون اللَّفظ » [2] .

والذى أراه أنه إذا كان المراد بالسجع مراعاة موالاة الكلام على وزن واحد دون مراعاة المعنى فإن هذا تكلف ممقوت فى كلام الناس فضلاً عن كلام الله . أما إذا روعيت المعانى وجاء الاتفاق فى الوزن تابعًا لها دون تكلف فهذا ضرب من ضروب البلاغة ، قد يأتى فى القرآن كما يأتى فى غيره ، وإذا سمينا هذا فى القرآن بالفواصل دون السجع فذلك لتلافى إطلاق السجع على القرآن بالمعنى الأول .

والفواصل فى القرآن الكريم أنواع :

(أ) **فمنها الفواصل المتماثلة** : كقوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ *

(1) أقوى ما استدل به الذين يثبتون السجع فى القرآن أن موسى أفضل من هارون ، ولما كان السجع بالألف اللَّينة قيل فى موضع : ﴿ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (طه : ٧٠) ، ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (الشعراء : ٤٨) ، وأجيب بأن التقديم والتأخير لإعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدًا ، وليس للسجع .

(2) « البرهان » : للزركشى (١/ ٥٨) .　　　(3) الطور : ١ - ٤

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (٢) .

(ب) **ومنها الفواصل المتقاربة فى الحروف** : كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣) للتقارب بين الميم والنون فى المقطع ، وقوله : ﴿ ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءَهُم مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٤) بتقارب مقطعى الدال والباء (٥) .

(جـ) **ومنها المتوازى** : وهو أن تتفق الكلمتان فى الوزن وحروف السجع ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (٦) .

(د) **ومنها المتوازن** : وهو أن يراعى فى مقاطع الكلام الوزن فقط كقوله تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (٧) .

وقد يراعَى فى الفواصل زيادة حرف كقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ (٨) بإلحاق ألف ، لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين فى الوقف ، فزيد على النون ألف لتساوى المقاطع ، وتناسب نهايات الفواصل ، أو حذف حرف ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ ﴾ (٩) بحذف الياء ، لأن مقاطع الفواصل السابقة واللاحقة بالراء ، أو تأخير ما حقه التقديم لنكتة بلاغية أخرى كتشويق النفس إلى الفاعل فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ (١٠) لأن الأصل فى الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول ، لكن أخَّرَ الفاعل هنا وهو « موسى » للنكتة البلاغية السابقة على رعاية الفاصلة .

* * *

---

(١) الفجر : ١ - ٤
(٢) التكوير : ١٥ - ١٨
(٣) الفاتحة : ٣ - ٤
(٤) سورة ق : ١ - ٢
(٥) هذا لا يسمى سجعًا عند القائلين بإطلاق السجع فى القرآن ، لأن السجع ما تماثلت حروفه .
(٦) الغاشية : ١٣ - ١٤
(٧) الغاشية : ١٥ - ١٦
(٨) الأحزاب : ١٠
(٩) الفجر : ٤
(١٠) طه : ٦٧

- ٩ -

نزول القرآن على سبعة أحرف

لقد كان للعرب لهجات شتَّى تنبع من طبيعة فطرتهم فى جرسها وأصواتها وحروفها تعرضت لها كتب الأدب بالبيان والمقارنة ، فكل قبيلة لها من اللحن فى كثير من الكلمات ما ليس للآخرين ، إلا أن قريشًا من بين العرب قد تهيأت لها عوامل جعلت للغتها الصدارة بين فروع العربية الأخرى من جوار البيت وساقية الحاج وعمارة المسجد الحرام والإشراف على التجارة ، فأنزلها العرب جميعًا لهذه الخصائص وغيرها منزلة الأب للغاتهم ، فكان طبيعيًا أن يتنزل القرآن بلغة قريش على الرسول القرشى تأليفًا للعرب وتحقيقًا لإعجاز القران حين يسقط فى أيديهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه .

وإذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم فى المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت فالقرآن الذى أوحى الله به لرسوله محمد ﷺ يكمل له معنى الإعجاز إذا كان مستجمعًا بحروفه وأوجه قراءته للخالص منها ، وذلك مما ييسر عليهم القراءة والحفظ والفهم .

ونصوص السُّنَّة قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، ومن ذلك :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « قال رسول الله ﷺ : أقرأنى جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ، ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » (١) .

وعن أبَىٍّ بن كعب : « أن النبى ﷺ كان عند أضاة (٢) بنى غفار ، قال : فأتاه جبريل فقال : إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حرف . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن

(١) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٢) الأضاة : الغدير .

تقرئ أمتك القرآن على حرفين - فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة ، فقال : إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا » (١) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعتُ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعتُ لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فانتظرته حتى سَلَّم ، ثم لببته بردائه فقلت : مَن أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، قلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها ، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ، فقلت : يا رسول الله . . إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها ، وأنت أقرأتنى سورة الفرقان ، فقال رسول الله ﷺ : أرسْلهُ يا عمر ، اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التى سمعته يقرؤها ، فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأ يا عمر ، فقرأتُ القراءة التى أقرأنى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيَّسر منها » (٢) .

والأحاديث فى ذلك مستفيضة استقرأ معظمها ابن جرير فى مقدمة تفسيره ، وذكر السيوطى أنها رويت عن واحد وعشرين صحابيا ، وقد نَصَّ أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتر حديث نزول القرآن على سبعة أحرف (١) .

واختلف العلماء فى تفسير هذه الأحرف اختلافًا كثيرًا ، حتى قال ابن حبان : « اختلف أهل العلم فى معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً » (٤) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وأحمد وابن جرير .

(٣) انظر : « الإتقان » (١/ ٤١) .

(٤) وقال السيوطى : اختُلِفَ فى معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً (١/ ٤٥) .

وأكثر هذه الآراء متداخل ، ونحن نورد هنا ما هو ذو بال منها :

(أ) ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد ، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب فى التعبير عن معنى من المعانى يأتى القرآن مُنَزَّلاً بألفاظ على قدر هذه اللُّغات لهذا المعنى الواحد ، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتى بلفظ واحد أو أكثر .

واختلفوا فى تحديد اللُّغات السبع .

فقيل : هى لغات : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن .

وقال أبو حاتم السجستانى : نزل بلغة قريش ، وهذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر .

ورُوِىَ غير ذلك (١) .

(ب) وقال قوم : إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه فى جملته لا يخرج فى كلماته عن سبع لغات هى أفصح لغاتهم ، فأكثره بلغة قريش ، ومنه ما هو بلغة هذيل ، أو ثقيف ، أو هوازن ، أو كنانة ، أو تميم ، أو اليمن ، فهو يشتمل فى مجموعه على اللُّغات السبع .

وهذا الرأى يختلف عن سابقه ، لأنه يعنى أن الأحرف السبعة إنما هى أحرف سبعة متفرقة فى سور القرآن ، لا أنها لغات مختلفة فى كلمة واحدة باتفاق المعانى .

قال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات ، بل اللُّغات السبع مفرَّقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن ، وغيرهم ، قال : وبعض اللُّغات أسعد به من بعض وأكثر نصيبًا » (٢) .

(جـ) وذكر بعضهم أن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة : من الأمر ، والنهى ، والوعد ، والوعيد ، والجدل ، والقصص ، والمثل . أو من : الأمر ، والنهى ، والحلال ، والحرام ، والمُحْكَم ، والمتشابه ، والأمثال .

(١ ، ٢) انظر : « الإتقان » (١/ ٤٧) .

عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب ، على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، ومُحْكَم ، ومتشابه ، وأمثال » (١) .

(د) وذهب جماعة إلى أن المراد بالأحرف السبعة ، وجوه التغاير السبعة التى يقع فيها الاختلاف ، وهى :

١ - **اختلاف الأسماء بالإفراد ، والتذكير وفروعهما** : « التثنية ، والجمع ، والتأنيث » كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٢) قرئ « لأماناتهم » بالجمع ، وقرئ « لأمانتهم » بالإفراد . . ورسمها فى المصحف « لأمَنَتِهِمْ » يحتمل القراءتين ، لخلوها من الألف الساكنة ، ومآل الوجهين فى المعنى واحد ، فيراد بالجمع الاستغراق الدال على الجنسية ، ويراد بالإفراد الجنس الدال على معنى الكثرة ، أى جنس الأمانة ، وتحت هذا جزئيات كثيرة .

٢ - **الاختلاف فى وجوه الإعراب** : كقوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ (٣) قرأ الجمهور بالنصب ، على أن « ما » عاملة عمل « ليس » وهى لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن ، وقرأ ابن مسعود : « ما هذا بشرٌ » بالرفع ، على لغة بنى تميم ، فإنهم لا يعملون « ما » عمل « ليس » وكقوله : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ (٤) - (برفع « آدم » وجر « كلمات ») - وقُرِئَ بنصب « آدم » ورفع « كَلمات » : « فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ » .

٣ - **الاختلاف فى التصريف** : كقوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ (٥) قُرِئَ بنصب « ربَّنَا » على أنه منادى مضاف ، و« باعِد » بصيغة الأمر ، وقُرِئَ « ربُّنَا » بالرفع ، و« باعَد » بفتح العين ، على أنه فعل ماض ، وقُرِئَ « بعَّد » بفتح العين مشددة مع رفع « ربُّنا » أيضًا .

ومن ذلك ما يكون بتغيير حرف ، مثل « يعلمون ، وتعلمون » بالياء

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى . (٢) المؤمنون : ٨ (٣) يوسف : ٣١
(٤) البقرة : ٣٧ (٥) سبأ : ١٩

والتاء ، و« الصراط » ، و« السراط » فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) .

٤ - **الاختلاف بالتقديم والتأخير** : إما فى الحرف ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَايْئَسِ ﴾ (٢) وقرئ : « أفلم يأيس » وإما فى الكلمة كقوله تعالى : ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ (٣) بالبناء للفاعل فى الأول ، وللمفعول فى الثانى ، وقُرِئَ بالعكس ، أى بالبناء للمفعول فى الأول ، وللفاعل فى الثانى .

أما قراءة « وجاءت سكرة الحق بالموت » بدلاً من قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ (٤) فقراءة أحادية أو شاذة ، لم تبلغ درجة التواتر .

٥ - **الاختلاف بالإبدال** : سواء أكان إبدال حرف بحرف ، كقوله تعالى : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ (٥) قُرِئَ بالزاى المعجمة مع ضم النون ، وقُرِئَ بالراء المهملة مع فتح النون ، أو إبدال لفظ بلفظ ، كقوله تعالى : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (٦) قرأ ابن مسعود وغيره « كالصوف المنفوش » ، وقد يكون هذا الإبدال مع التقارب فى المخارج كقوله تعالى : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ (٧) قُرِئَ « طلع » ومخرج الحاء والعين واحد ، فهما من حروف الحلق .

٦ - **الاختلاف بالزيادة والنقص** : فالزيادة كقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ (٨) قُرِئَ « من تحتها الأنهار » بزيادة « من » وهما قراءتانِ متواترتان ، والنقصان كقوله تعالى : « قالوا اتخذ الله ولدًا » بدون واو ، وقراءة الجمهور : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾ (٩) وبالواو ، وقد يمثل للزيادة فى قراءة الآحاد ، بقراءة ابن عباس : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا » بزيادة « صالحة » وإبدال كلمة « أمام » بكلمة « وراء » وقراءة الجمهور : ﴿ وَكَانَ

---

(١) الفاتحة : ٦
(٢) الرعد : ٣١
(٣) التوبة : ١١١
(٤) سورة ق : ١٩
(٥) البقرة : ٢٥٩
(٦) القارعة : ٥
(٧) الواقعة : ٢٩
(٨) التوبة : ١٠٠
(٩) البقرة : ١١٦

وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (١) كما يمثل للنقصان بقراءة « والذكر والأنثى » بدلاً من قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ (٢) .

٧ - **اختلاف اللَّهجات بالتفخيم والترقيق ، والفتح والإمالة ، والإظهار والإدغام ، والهمز والتسهيل ، والإشمام ونحو ذلك** : كالإمالة وعدمها فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (٣) قرىء بإمالة « أتى » و« موسى » وترقيق الراء فى قوله : ﴿ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (٤) وتفخيم اللام فى « الطلاق » وتسهيل الهمزة فى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ (٥) وإشمام الغين ضمة مع الكسر فى قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ (٦) وهكذا .

(هـ) وذهب بعضهم إلى أن العدد سبعة لا مفهوم له ، وإنما هو رمز إلى ما ألِفَهُ العرب من معنى الكمال فى هذا العدد ، فهو إشارة إلى القرآن فى لغته وتركيبه كأنه حدود وأبواب لكلام العرب كله مع بلوغه الذروة فى الكمال ، فلفظ السبعة يُطلق على إرادة الكثرة والكمال فى الآحاد ، كما يُطلق السبعون فى العشرات ، والسبعمائة فى المئتين ، ولا يُراد العدد المعيَّن (٧) .

(و) وقال جماعة : إن المراد بالأحرف السبعة : القراءات السبع .

والراجح من هذه الآراء جميعًا هو الرأى الأول ، وأن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد ، نحو : أقْبِل وتعال ، وهلم ، وعَجِّل ، وأسرع ، فهى ألفاظ مختلفة لمعنى واحد ، وإليه ذهب سفيان بن عيينة ، وابن جرير ، وابن وهب ، وخلائق ، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء ويدل له ما جاء فى حديث أبى بكرة : « أن جبريل قال : يا محمد ، اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : على حرفين ، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف ، فقال : كلها شاف كاف ، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة ، أو آية رحمة بآية عذاب ،

---

(١) الكهف : ٧٩ (٢) الليل : ٣ (٣) طه : ٩
(٤) الإسراء : ١٧ (٥) المؤمنون : ١ (٦) هود : ٤٤
(٧) انظر : « الإتقان » (١/ ٤٥) .

وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعَجِّل » (١) قال ابن عبد البر : « إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التى نزل القرآن عليها ، وأنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها ، لا يكون فى شيء منها معنى وضده ، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافًا ينفيه ويضاده ، كالرحمة التى هى خلاف العذاب » (٢) .

ويؤيده أحاديث كثيرة :

« قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فغيَّر عليه ، فقال : لقد قرأتُ على رسول الله ﷺ فلم يُغَيِّر علىّ ، قال : فاختصما عند النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ألم تُقرئنى آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ! قال : فوقع فى صدر عمر شيء ، فعرف النبى ﷺ ذلك فى وجهه ، قال : فضرب صدره وقال : « ابعد شيطانًا » - قالها ثلاثًا - ثم قال : « يا عمر ، إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذابًا أو عذابًا رحمة » (٣) .

وعن بسر بن سعيد : « أن أبا جهيم الأنصارى أخبره : أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن ، فقال هذا : تلقيتها من رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا رسول الله ﷺ عنها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن القرآن نزل عل سبعة أحرف ، فلا تماروا فى القرآن ، فإن المراء فيه كفر » (٤) .

وعن الأعمش قال : « قرأ أنس هذه الآية : « إن ناشئة اللَّيل هى أشد وطأ وأصوب قيلاً » (٥) ، فقال له بعض القوم : يا أبا حمزة ، إنما هى « وأقوم » ، فقال : أقوم وأصوب وأهيأ واحد » (٦) .

---

(١) أخرجه أحمد والطبرانى ، بإسناد جيد ، وهذا اللَّفظ لأحمد .

(٢) انظر : « الإتقان » (١/ ٤٧) .

(٣) أخرجه أحمد بإسناد رجاله ثقات ، وأخرجه الطبرى .

(٤) رواه أحمد فى « المسند » ورواه الطبرى ، ونقله ابن كثير فى « الفضائل » ، والهيثمى فى « مجمع الزوائد » ، وقال : رجاله رجال الصحيح .

(٥) المزمل : ٦ بلفظ : « وأقوم » .

(٦) رواه الطبرى ، وأبو يعلى ، والبزار ، ورجاله رجال الصحيح .

وعن محمد بن سيرين قال : نُبئْتُ أن جبرائيل وميكائيل أتيا النبى ﷺ ، فقال له جبرائيل : اقرأ القرآن على حرفين ، فقال له ميكائيل : استزده ، قال : حتى بلغ سبعة أحرف ، قال محمد : لا تختلف فى حلال ولا حرام ، ولا أمر ولا نهى ، هو كقولك : تعال ، وهلم ، وأقبل ، قال : وفى قراءتنا : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ (١) فى قراءة ابن مسعود : « إن كانت إلا زقية واحدة » (٢) .

ويُجاب عن الرأى الثانى (ب) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن ، على معنى أنه فى جملته لا يخرج فى كلماته عنها فهو يشتمل فى مجموعه عليها - بأن لغات العرب أكثر من سبع ، وبأن عمر ابن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشى من لغة واحدة ، وقبيلة واحدة ،وقد اختلفت قراءتهما ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته ، فدل ذلك على أن المراد بالأحرف السبعة غير ما يقصدونه ، ولا يكون هذا إلا باختلاف الألفاظ فى معنى واحد ، وهو ما نرجحه .

قال ابن جرير الطبرى بعد أن ساق الأدلة ، مبطلاً هذا الرأى : « بل الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، هن لغات سبع فى حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلىَّ ، وقصدى ، ونحوى ، وقُربى ، ونحو ذلك ، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق وتتفق فيه المعانى ، وإن اختلفت بالبيان به الألسن ، كالذى روينا آنفًا عن رسول الله ﷺ ، وعمن روينا ذلك عنه من الصحابة ، أن ذلك بمنزلة قولك : « هلم وتعال وأقبل » ، وقوله : « ما ينظرون إلا زقية » ، و« إلا صيحة » .

وأجاب الطبرى عن تساؤل مفتَرَض : ففى أى كتاب الله نجد حرفًا واحدًا مقروءًا بلغات سبع مختلفات الألفاظ متفقات المعنى ؟ - أجاب : بأننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم - وعن تساؤل مفتَرَض آخر : فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ؟ - بأن الأمة أُمِرَت بحفظ القرآن ، وخُيِّرت فى قراءته وحفظه بأى تلك

---

(١) يس : ٢٩ ، ٥٣

(٢) رواه الطبرى ، ومحمد - هو ابن سيرين التابعى - فالحديث مرسل .

الأحرف السبعة شاءت كما أُمِرَت ، ثم دعت الحاجة إلى التزام القراءة بحرف واحد مخافة الفتنة فى زمن عثمان ، ثم اجتمع أمر الأمة على ذلك ، وهى معصومة من الضلالة (١) .

ويجاب عن الرأى الثالث (جـ) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه : من الأمر ، والنهى ، والحلال ، والحرام ، والمُحْكَم ، والمتشابه ، والأمثال - بأن ظاهر الأحاديث يدل على أن المراد بالأحرف السبعة أن الكلمة تُقرأ على وجهين أو ثلاثة إلى سبعة توسعة للأمة ، والشىء الواحد لا يكون حلالاً وحرامًا فى آية واحدة ، والتوسعة لم تقع فى تحريم حلال ، ولا تحليل حرام ، ولا فى تغيير شىء من المعانى المذكورة .

والذى ثبت فى الأحاديث السابقة أن الصحابة الذى اختلفوا فى القراءة احتكموا إلى النبى ﷺ ، فاستقرأ كل رجل منهم ، ثم صوَّب جميعهم فى قراءتهم على اختلافها ، حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم ، فقال ﷺ للذى ارتاب منهم عند تصويبه جميعهم : « إن الله أمرنى أن أقرأ على سبعة أحرف » .

« ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك ، لو كان تماريًا واختلافًا فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك ، لكان مستحيلاً أن يصوّب جميعهم ، ويأمر كل قارىء منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على النحو الذى هو عليه ، لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحًا وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شىء بعينه وفَرَضَهُ ، - فى تلاوة مَن دلت تلاوته على فَرْضه - ونهى عن فعل ذلك الشىء بعينه وزَجَر عنه - فى تلاوة الذى دلت تلاوته على النهى والزجر عنه - وأباح وأطلق فعل ذلك الشىء بعينه ، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فعله ، ولمن شاء منهم أن يتركه تركه ، فى تلاوة مَن دلت تلاوته على التخيير .

وذلك من قائله - إن قاله - إثبات ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله ومحكم كتابه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (٢) .

---

(١) انظر « تفسير الطبرى » (١/ ٥٧) وما بعدها .

(٢) النساء : ٨٢

وفى نفى الله جل ثناؤه ذلك عن محكم كتابه أوضح الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد ﷺ إلا بحكم واحد متفق فى جميع خلقه لا بأحكام فيهم مختلفة » (١) .

ويجاب عن الرأى الرابع (د) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التغاير التى يقع فيها الاختلاف (٢) - بأن هذا وإن كان شائعًا مقبولاً لكنه لا ينهض أمام أدلة الأول التى جاء التصريح فيها باختلاف الألفاظ مع اتفاق المعنى ، وبعض وجوه التغاير والاختلاف التى يذكرونها ورد بقراءات الآحاد ، ولا خلاف فى أن كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواترًا ، وأكثرها يرجع إلى شكل الكلمة أو كيفية الأداء مما لا يقع به التغاير فى اللَّفظ ، كاختلاف فى الإعراب ، أو التصريف ، أو التفخيم والترقيق والفتح والإمالة والإظهار والإدغام والإشمام فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوَّع فى اللَّفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظًا واحدًا .

وأصحاب هذا الرأى يرون أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، بمعنى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من هذه الأحرف ، فآية : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٣) ، التى تُقرأ بصيغة الجمع وتقرأ بصيغة الإفراد جاءت فى الرسم العثمانى ﴿ لأَمَنَتِهِمْ ﴾ - موصولة وعليها ألف صغيرة - وآية : ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ (٤) جاءت فى الرسم العثمانى ﴿ بَعدْ ﴾ - موصولة كذلك وعليها ألف صغيرة ، وهكذا . .

وهذا لا يسلم لهم فى كل وجه من وجوه الاختلاف التى يذكرونها .

كالاختلاف بالزيادة والنقص ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ (٥) . وقُرِئَ : « من تحتها الأنهار » بزيادة « من » ، وقوله :

---

(١) « تفسير الطبرى (١/٤٨ - ٤٩)

(٢) هذا الرأى هو أقوى الآراء بعد الرأى الذى اخترناه ، وإليه ذهب « الرازى » وانتصر له من المتأخرين الشيخ محمد بخيت المطيعى ، والشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى .

(٣) المؤمنون : ٨ (٤) سبأ : ١٩ (٥) التوبة : ١٠٠

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ (١) ، وقُرِىءَ : « والذكر والأُنثى » بنقص « ما خلق » .

والاختلاف بالتقديم والتأخير في مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ (٢) وقُرِىءَ : « وجاءت سكرت الحق بالموت » .. والاختلاف بالإبدالَ في مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ (٣) وقُرِىءَ : « وتكون الجبال كالصوف المنفوش » .

ولو كانت هذه الأحرف تشتمل عليها المصاحف العثمانية لما كان مصحف عثمان حاسمًا للنزاع في اختلاف القراءات ، إنما كان حسم هذ النزاع بجمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ولولا هذا لظل الاختلاف في القراءة قائمًا ، ولما كان هناك فرق بين جمع عثمان وجمع أبي بكر ، والذى دلت عليه الآثار أن جمع عثمان رضى الله عنه للقرآن كان نسخًا له على حرف واحد من الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد ، حيث رأى أن القراءة بالأحرف السبعة كانت لرفع الحرج والمشقة في بداية الأمر ، وقد انتهت الحاجة إلى ذلك ، وترجح عليها حسم مادة الاختلاف في القراءة ، يجمع الناس على حرف واحد ، ووافقه الصحابة على ذلك ، فكان إجماعًا ، ولم يحتج الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى جمع القرآن على وجه ما جمعه عثمان ، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان ، وبهذا يكون عثمان قد وُفِّقَ لأمر عظيم ، رفع الاختلاف ، وجمع الكلمة ، وأراح الأمة .

ويجاب عن الرأى الخامس (هـ) الذى يرى أن العدد سبعة لا مفهوم له – بأن الأحاديث تدل بنصها على حقيقة العدد وانحصاره : « أقرأني جبريل على حرف ، فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » (٤) ، « وإن ربى أرسل إلىَّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت عليه أن هَوِّن على أمتى – فأرسل إلىَّ أن اقرأ على سبعة أحرف » (٥) ، فهذا يدل على حقيقة العدد المعيَّن المحصور في سبعة .

---

(١) الليل : ٣ (٢) سورة ق : ١٩ (٣) القارعة : ٥
(٤) أخرجه البخارى ، ومسلم . (٥) أخرجه مسلم .

ويجاب عن الرأى السادس (و) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع - بأن القرآن غير القراءات ، فالقرآن : هو الوحى المُنَزَّل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز ، والقراءات : هى اختلاف فى كيفية النطق بألفاظ الوحى ، من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك ، قال أبو شامة : « ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل » (١) .

وقال الطبرى : « وأما ما كان من اختلاف القراءة فى رفع حرف وجره ونصبه وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، فمن معنى قول النبى ﷺ : « أمِرْتُ أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بمعزل ، لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن - مما اختلفت القراءة فى قراءته بهذا المعنى يوجب المراء به كفر الممارى به فى قول أحد من علماء الأمة ، وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء فيه الكفر ، من الوجه الذى تنازع فيه المتنازعون إليه ، وتظاهرت عنه بذلك الرواية » .

ولعل الذى أوقعهم فى هذا الخطأ الاتفاق فى العدد سبعة ، فالتبس عليهم الأمر ، قال ابن عمار : « لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغى له ، وأشكل الأمر على العامة بإبهامه كل مَن قل نظره أن هذه القراءات هى المذكورة فى الخبر ، وليته إذا اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشُبهة » .

وبهذه المناقشة يتبين لنا أن الرأى الأول (أ) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد هو الذى يتفق مع ظاهر النصوص ، وتسانده الأدلة الصحيحة .

عن أُبَىّ بن كعب قال : « قال لى رسول الله ﷺ : إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : رَبِّ خَفِّفْ عن أمتى ، فأمرنى ، قال : اقرأ على حرفين ، فقلت : رَبِّ خَفِّفْ عن أمتى ، فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة ، كلها شاف كاف » (٢) .

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٨٠) .

(٢) رواه مسلم والطبرى .

قال الطبرى : « والسبعة الأحرف : هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة ، والأبواب السبعة من الجنة هى المعانى التى فيها ، من الأمر والنهى والترغيب والترهيب والقصص والمثل ، التى إذا عمل بها العامل ، وانتهى إلى حدودها المنتهى ، استوجب به الجنة ، وليس والحمد لله فى قوله مَن قال ذلك من المتقدمين خلاف لشىء مما قلناه » ، ومعنى : « كلها شاف كاف » كما قال جل ثناؤه فى صفة القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .. جعله الله للمؤمنين شفاء ، يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم من وساوس الشيطان وخطراته ، فيكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته » (٢) .

* * *

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف فى أمور :

١ - تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين ، لكل قبيل منهم لسان ولا عهد لهم بحفظ الشرائع ، فضلاً عن أن يكون ذلك مما ألفوه - وهذه الحكمة نصت عليها الأحاديث فى عبارات :

عن أُبَىّ قال : « لقى رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء فقال : إنى بُعِثْتُ إلى أمة أميين ، منهم الغلام والخادم والشيخ العاس والعجوز ، فقال جبريل : فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف » (٣) ، « إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف ، فقلت : اللَّهُم رَبِّ خَفِّفْ عن أمتى » ، « إن الله يأمرك أن تُقرىء أمتك القرآن على حرف ، قال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك » .

٢ - إعجاز القرآن للفطرة اللّغوية عند العرب - فتعدد مناحى التأليف

---

(١) يونس : ٥٧ (٢) انظر : « الطبرى » (١/ ٤٧ ، ٦٧) .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والطبرى بإسناد صحيح ، وأحجار المراء : موضع بقباء ، وعسا الشيخ : كبر وأسن وضعف .

الصوتى للقرآن تعددًا يكافىء الفروع اللِّسانية التى عليها فطرة اللُّغة فى العرب حتى يستطيع كل عربى أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطرى ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذى تحدى به الرسول العرب ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازًا للسان دون آخر ، وإنما يكون إعجازًا للفطرة اللُّغوية نفسها عند العرب .

٢ - إعجاز القرآن فى معانيه وأحكامه - فإن تقلب الصور اللَّفظية فى بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التى تجعل القرآن ملائمًا لكل عصر - ولهذا احتج الفقهاء فى الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة .

* * *

- ١٠ -

القراءات والقرَّاء

القراءات : جمع قراءة ، مصدر قرأ فى اللُّغة ، ولكنها فى الاصطلاح العلمى : مذهب من مذاهب النطق فى القرآن يذهب به إمام من الأئمة القرَّاء مذهبًا يخالف غيره.

وهى ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ ، ويرجع عهد القرَّاء الذين أقاموا الناس على طرائقهم فى التلاوة إلى عهد الصحابة ، فقد اشتهر بالإقراء منهم : أُبَىٌّ ، وعلىّ ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى ، وغيرهم ، وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين فى الأمصار ، وكلهم يسند إلى رسول الله ﷺ .

وقد ذكر الذهبى فى « طبقات القرَّاء » أن المشتهرين بإقراء القرآن من الصحابة سبعة : عثمان ، وعلىّ ، وأُبَىّ ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى ، قال : وقد قرأ على « أُبَىّ » جماعة من الصحابة ، منهم : أبو هريرة ، وابن عباس ، وعبد الله بنُ السائب ، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضاً .

وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين فى كل مصر من الأمصار .

كان منهم « بالمدينة » : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان وعطاء ابنا يسار ، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارىء ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وابن شهاب الزهرى ، ومسلم بن جندب ، وزيد ابن أسلم .

وكان منهم « بمكة » : عبيد بن عمير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس ، ومجاهد ، وعِكرمة ، وابن أبى مليكة .

وكان منهم « بالكوفة » : علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، وعمرو بن شرحبيل ، والحارث بن قيس ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وسعيد بن جبير ، والنخعى ، والشعبى .

وكان منهم « بالبصرة » : أبو عالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى ابن يعمر ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة .

وكان منهم « بالشام » : المغيرة بن أبى شهاب المخزومى ، صاحب عثمان ، وخليفة بن سعد ، صاحب أبى الدرداء .

وفى عهد التابعين على رأس المائة الأولى تجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة ، حين دعت الحاجة إلى ذلك ، وجعلوها علمًا كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى ، وصاروا أئمة يُقتدى بهم ويُرحَل إليهم ، واشتهر منهم ومن الطبقة التى تلتهم الأئمة السبعة الذين تُنسب إليهم القراءات إلى اليوم ، فكان منهم « بالمدينة » : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم نافع بن عبد الرحمن ، وكان منهم « بمكة » : عبد الله بن كثير ، وحميد بن قيس الأعرج ، وكان منهم « بالكوفة » : عاصم ابن أبى النجود ، وسليمان الأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائى ، وكان منهم «بالبصرة » : عبد الله بن أبى إسحاق ، وعيسى بن عمرو ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعاصم الجحدرى ، ثم يعقوب الحضرمى ، وكان منهم « بالشام » : عبد الله بن عامر ، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر ، ثم يحيى بن الحارث ، ثم شريح بن يزيد الحضرمى .

والأئمة السبعة الذين اشتهروا من هؤلاء فى الآفاق هم : أبو عمرو ، ونافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى ، وابن عامر ، وابن كثير [1] .

والقراءات : غير الأحرف السبعة - على أصح الآراء - وإن أوهم التوافق العددى الوحدة بينهما ، لأن القراءات مذاهب أئمة ، وهى باقية إجماعًا يقرأ بها الناس ، ومنشؤها اختلاف فى اللَّهجات وكيفية النطق وطرق الأداء من تفخيم ، وترقيق ، وإمالة ، وإدغام ، وإظهار ، وإشباع ، ومد ، وقصر ، وتشديد ، وتخفيف ... إلخ ، وجميعها فى حرف واحد هو حرف قريش .

أما الأحرف السبعة فهى بخلاف ذلك على نحو ما سبق لك ، وقد انتهى الأمر بها إلى ما كانت عليه العرضة الأخيرة حين اتسعت الفتوحات ، ولم يعد للاختلاف فى

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٧٢ - ٧٣) .

الأحرف وجه خشية الفتنة والفساد ، فحمل الصحابة الناس فى عهد عثمان على حرف واحد هو حرف قريش وكتبوا به المصاحف كما تقدم .

* * *

كثرة القرَّاء والسبب فى الاقتصار على السبعة

قراءات أولئك السبع هى المتفَق عليها ، وقد اختار العلماء من أئمة القراءة غيرهم ثلاثة صحت قراءتهم وتواترت ، وهم : أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ، ويعقوب بن إسحاق الحضرمى ، وخلف بن هشام ، وهؤلاء وأولئك هم أصحاب القراءات العشر ، وما عداها فشاذ ، كقراءة : اليزيدى ، والحسن ، والأعمش ، وابن جبير ، وغيرهم ، ولا تخلو إحدى القراءات العشر حتى السبع المشهورة من شواذ ، فإن فيها من ذلك أشياء ، واختيار القرَّاء السبع إنما هو للعلماء المتأخرين فى المائة الثالثة ، وإلا فقد كان الأئمة الموثوق بعلمهم كثيرين ، وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة ابن عمرو ، ويعقوب ، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم ، وبالشام على قراءة ابن عامر ، وبمكة على قراءة ابن كثير ، وبالمدينة على قراءة نافع ، وكان هؤلاء هم السبعة ، فلما كان على رأس المائة الثالثة أثبت أبو بكر ابن مجاهد (١) اسم الكسائى ، وحذف منهم اسم يعقوب .

قال السيوطى : « أول من صنَّف فى القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام ، ثم أحمد بن جبير الكوفى ، ثم إسماعيل بن إسحاق المالكى صاحب فالون ، ثم أبو جعفر بن جرير الطبرى ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجونى ، ثم أبو بكر بن مجاهد ، ثم قام الناس فى عصره وبعده بالتأليف فى أنواعها جامعًا ومفردًا ، وموجزًا ومسهبًا ، وأئمة القراءات لا تُحصى ، وقد صنَّف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبى ، ثم حافظ القرَّاء أبو الخير بن الجزرى » (٢) .

وقال الإمام ابن الجزرى فى « النشر » : « أول إمام معتبر جمع القراءات فى

---

(١) مقرىء أهل العراق ، وممن ألَّفوا فى هذا الفن ، وكان من المتقنين ، توفى سنة ٣٢٤ هجرية .

(٢) « الإتقان » (ص٧٣) .

كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام ، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئًا ، مع هؤلاء السبعة ، وتوفى سنة (٢٢٤ هـ) ثم قال : وكان فى أثره أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد أول مَن اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط ، وتوفى سنة (٣٢٤ هـ) ثم قال : وإنما أطلنا فى هذا الفصل لما بلغنا عن بعض مَن لا علم له أن القراءات الصحيحة هى التى عن هؤلاء السبعة ، بل غلب على كثير من الجهَّال أن القراءات الصحيحة هى التى فى الشاطبية والتيسير » (١) .

والسبب فى الاقتصار على السبعة مع أنه فى أئمة القرَّاء مَن هو أجَلُّ منهم قدرًا أو مثلهم إلى عدد أكثر من السبعة ، هو أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرًا جدًا - فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به ، فنظروا إلى مَن اشتهر بالثقة والأمانة ، وطول العمر فى ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إمامًا واحدًا ، ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة بها ، كقراءة يعقوب الحضرمى ، وأبى جعفر المدنى ، وشيبة بن نصاع ، وغيرهم .

وقد أسهم المؤلفون فى القراءات فى الاقتصار على عدد معين ، لأنهم إذ يؤلفون مقتصرين على عدد مخصوص من أئمة القرَّاء يكون ذلك من دواعى شهرتهم وإن كان غيرهم أجَلُّ منهم قدرًا ، فيتوهم الناس بعد أن هؤلاء الذين اقتصر التأليف على قراءاتهم هم الأئمة المعتبرون فى القراءات ، وقد صنَّف ابن جبر المكى كتابًا فى القراءات فاقتصر على خمسة ، اختار من كل مصر إمامًا ، وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التى أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار ، ويقال : إنه وَجَّه سبعة ، هذه الخمسة ومصحفًا إلى اليمن ، ومصحفًا إلى البحرين ، لكن لما لم

(١) نقل ابن حجر فى « الفتح » هذا ، وأثبته الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على « تفسير الطبرى » (١/ ٦٥) هامش ، وابن الجزرى : هو محمد بن محمد بن محمد ، أبو الخير شمس الدين الشهير بابن الجزرى ، شيخ القرَّاء فى زمانه ، من أشهر كتبه : « النشر فى القراءات العشر » توفى سنة ٨٣٣ هجرية - والشاطبية : هى المنظومة المنسوبة إلى الإمام أبى محمد القاسم الشاطبى المتوفى سنة ٥٩٠ هجرة ، نظم فيها كتاب « التيسير » فى ١١٧٣ بيتًا ، وسماها « حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات السبع المثانى » ، وكتاب « التيسير فى القراءات السبع » لأبى عمرو الدانى ، من أئمة القُرَّاء ، توفى سنة ٤٤٤ هجرية .

يُسمع لهذين المصحفين خبر وأراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف استبدلوا من مصحف البحرين ومصحف اليمن قارئين كمل بهما العدد - ولذا قال العلماء : إن التمسك بقراءة سبعة من القرَّاء ، دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سُنَّة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر ، فلو أن ابن مجاهد مثلاً كتب عن غير هؤلاء السبعة بالإضافة إليهم لاشتهروا ، قال أبو بكر بن العربى : « ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبى جعفر وشيبة والأعمش ونحوهم ، فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم » وكذا قال غير واحد من أئمة القرَّاء ، وقال أبو حيان : « ليس فى كتاب ابن مجاهد ومن تبعه من القراءات المشهورة إلا النزر اليسير ، فهذا أبو عمرو بن العلاء اشتهر عنه سبعة عشر راويًا ، ثم ساق أسماءهم ، واقتصر فى كتاب ابن مجاهد على اليزيدى ، واشتهر عن اليزيدى عشرة أنفس ، فكيف يقتصر على السوسى ، والدورى ، وليس لهما مزية على غيرهما ، لأن الجميع مشتركون فى الضبط والإتقان والاشتراك فى الأخذ ، قال : ولا أعرف لهذا سببًا إلا ما قضى من نقص العلم » (١) .

* * *

أنواع القراءات وحكمها وضوابطها

ذكر بعض العلماء أن القراءات : متواترة ، وآحاد ، وشاذة ، وجعلوا المتواتر السبع ، والآحاد الثلاث المتممة لعشرها ، ثم ما يكون من قراءات الصحابة ، وما بقى فهو شاذ ، وقيل : العشر متواترة ، وقيل : المعتمَد فى ذلك الضوابط سواء أكانت القراءات من القراءات السبع ، أو العشر ، أو غيرها ، قال أبو شامة فى « المرشد الوجيز » : « لا ينبغى أن يغتر بكل قراءة تُعْزَى إلى أحد السبعة ويُطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنْزِلَت هكذا إلا إذا دخلت فى ذلك الضابط ، وحينئذ لا ينفرد بنقلها مُصَنِّف عن غيره ، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم ، بل إن نُقلت عن غيرهم من القرَّاء فذلك لا يُخرجها عن الصحة - فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على مَن تُنسب إليه ، فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٨٠ - ٨١) .

وغيرهم منقسمة إلى المُجْمَع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المُجْمَع عليه فى قراءتهم تركن النفس إلى ما نُقِلَ عنهم فوق ما يُنقل عن غيرهم » (١) .

والقياس عندهم فى ضوابط القراءة الصحيحة ما يأتى :

١ - موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه : سواء أكان أفصح أم فصيحًا ، لأن القراءة سُنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها بالإسناد لا بالرأى .

٢ - وأن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً : لأن الصحابة فى كتابة المصاحف العثمانية اجتهدوا فى الرسم على حسب ما عرفوا من لغات القراءات ، فكتبوا « الصراط » مثلاً فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) بالصاد » المبدَّلة بالسين - وعدلوا عن « السين » التى هى الأصل ، لتكون قراءة السين) « السراط » وإن خالفت الرسم من وجه ، فقد أتت على الأصل اللُّغوى المعروف ، فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام محتملة لذلك .

والمراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا ، كقراءة : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣) فإن لفظة « مالك » كُتِبَت فى جميع المصاحف بحذف الألف ، فتُقرأ « مَلِكِ » وهى توافق الرسم تحقيقًا ، وتُقرأ « مالك » وهى توافقه احتمالاً وهكذا ، فى غير ذلك من الأمثلة .

ومثال ما يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ بالتاء والياء ، و﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بالياء والنون ، ونحو ذلك ، مما يدل تجرده عن النقط والشكل فى حذفه وإثباته على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم فى علم الهجاء خاصة ، وفهم ثاقب فى تحقيق كل علم .

ولا يشترط فى القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لجميع المصاحف ، ويكفى الموافقة لما ثبت فى بعضها ، وذلك كقراءة ابن عامر : « وبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ » (٤) بإثبات الباء فيهما ، فإن ذلك ثابت فى المصحف الشامى .

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٧٥) . (٢) الفاتحة : ٦

(٣) الفاتحة : ٤ (٤) آل عمران : ١٨٤ ، بدون الباء فى الكلمتين .

٣ - وأن تكون القراءة مع ذلك صحيحة الإسناد ، لأن القراءة سُنَّة متَّبعة يُعتمد فيها على سلامة النقل وصحة الرواية ، وكثيراً ما ينكر أهل العربية قراءة من القراءات لخروجها عن القياس ، أو لضعفها فى اللُّغة ، ولا يحفل أئمة القرَّاء بإنكارهم شيئاً .

تلك هى ضوابط القراءة الصحيحة ، فإن اجتمعت الأركان الثلاثة :

١ - موافقة العربية . ٢ - ورسم المصحف .

٣ - وصحة السند ، فهى القراءة الصحيحة ، ومتى اختل ركن منها أو أكثر أُطْلِقَ عليها أنها ضعيفة ، أو شاذة ، أو باطلة .

ومن عجب أن يذهب بعض النحاة بعد ذلك إلى تخطئة القراءة الصحيحة التى تتوافر فيها تلك الضوابط لمجرد مخالفتها لقواعدهم النحوية التى يقيسون عليها صحة اللُّغة ، فإنه ينبغى أن نجعل القراءة الصحيحة - حكماً على القواعد اللُّغوية والنحوية ، لا أن نجعل هذه القواعد حكمًا على القرآن ، إذ القرآن هو المصدر الأول الأصيل لاقتباس قواعد اللُّغة ، والقرآن يعتمد على صحة النقل والرواية فيما استند إليه القرَّاء ، على أى وجه من وجوه اللُّغة ، قال ابن الجزرى معلقاً على الشرط الأول من ضوابط القراءة الصحيحة : « فقولنا - فى الضابط : « ولو بوجه » نريد به وجهاً من وجوه النحو ، وسواء أكان أفصح أم فصيحًا ، مجمَعًا عليه أم مختلفًا فيه اختلافًا لا يضر مثله ، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح ، إذ هو الأصل الأعظم ، والركن الأقوم ، وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يُعتَبر إنكارهم ، كإسكان « بارئكم » و« يأمركم » وخفض : « والأرحام » ونصب « ليجزى قومًا » . والفصل بين المضافين فى : «قتل أولادهم شركائهم » وغير ذلك » (١) .

---

(١) انظر « الإتقان » (١/ ٧٥) ، وراجع كتب التفسير فى هذه الآيات : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ (النساء : ١) ، ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (الجاثية : ١٤)، ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ (الأنعام : ١٣٧) .

وقال أبو عمرو الداني : « وأئمة القرّاء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللُّغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، وإذا ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سُنَّة متبعة، يلزم قبولها والمصير إليها » .

وعن زيد بن ثابت قال : « القراءة سُنَّة متبعة » [1] قال البيهقي : « أراد أن اتباع مَن قبلنا في الحروف سُنَّة متبعة ، لا يجوز مخالفة المصحف الذي هو إمام ، ولا مخالفة القراءات التي هي مشهورة ، وإن كان غير ذلك سائغًا في اللُّغة » .

واستخلص بعض العلماء أنواع القراءات فجعلها ستة أنواع :

الأول - المتواتر : وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه - وهذا هو الغالب في القراءات .

الثاني - المشهور : وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر ، ووافق العربية والرسم ، واشتهر عند القرّاء فلم يعدوه من الغلط ، ولا من الشذوذ - وذكر العلماء في هذا النوع أنه يُقرأ به .

الثالث - الآحاد : وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم ، أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ، وهذا لا يُقرأ به ، ومن أمثلته ما رُوِيَ عن أبي بكرة : « أن النبي ﷺ قرأ : « متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان » [2] . وما رُوِيَ عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ [3] - بفتح الفاء » .

الرابع - الشاذ : وهو ما لم يصح سنده ، كقراءة « ملك يوم الدين » [4] بصيغة الماضي ، ونصب « يوم » .

الخامس - الموضوع : وهو ما لا أصل له .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في « سننه » .

(٢) أخرجه الحاكم - (والآية من سورة الرحمن : ٧٦) بلفظ : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ .

(٣) أخرجه الحاكم - (والآية من سورة التوبة : ١٢٨) .

(٤) الفاتحة : ٤ .

السادس - المدرج : وهو ما زيد فى القراءات على وجه التفسير - كقراءة ابن عباس : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فى مواسم الحج ، فإذا أفضتم من عرفات » (١) فقوله : « فى مواسم الحج » تفسير مدرج فى الآية .

والأنواع الأربعة الأخيرة لا يُقرأ بها .

والجمهور على أن القراءات السبع متواترة ، وأن غير المتواتر المشهور لا تجوز القراءة به فى الصلاة ولا فى غيرها ، قال « النووى » فى شرح المهذب » : « لا تجوز القراءة فى الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة ، لأنها ليست قرآنًا ، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والقراءة الشاذة ليست متواترة ، ومَن قال غيره فغالط أو جاهل ، فلو خالف وقرأ بالشاذ أُنْكِرَ عليه قراءته فى الصلاة وغيرها ، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة مَن قرأ بالشواذ ، ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ ، ولا يُصَلَّى خلف مَن يقرأ بها » .

* * *

فوائد الاختلاف فى القراءات الصحيحة

ولاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها :

١ - الدلالة على صيانة كتاب الله وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة .

٢ - التخفيف عن الأمة وتسهيل القراءة عليها .

٣ - إعجاز القرآن فى إيجازه ، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعى دون تكرر اللّفظ كقراءة : ﴿ وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (٢) بالنصب والخفض فى « أرجلكم » ففى قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل ، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

---

(١) أخرجها البخارى - (والآية من سورة البقرة : ١٩٨) بدون عبارة : « فى مواسم الحج» .

(٢) المائدة : ٦

الْمَرَافِقِ ﴾ وقراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه ، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح : ﴿ وَامْسَحُواْ بِرءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ فنستفيد الحكمين من غير تطويل ، وهذا من معانى الإعجاز فى الإيجاز بالقرآن .

٤ - بيان ما يُحتمل أن يكون مجملاً فى قراءة أخرى كقراءة : « يطهرن » فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ [١] قُرِىءَ بالتشديد والتخفيف ، فقراءة التشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف ، عند الجمهور ، فالحائض لا يحل وطؤها لزوجها بالطُّهر من الحيض ، أى بانقطاع الدم ، حتى تتطهر بالماء - وقراءة : «فامضوا إلى ذكر الله » فإنها تبيِّن أن المراد بقراءة « فاسعوا » الذهاب لا المشى السريع فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ [٢] - وقراءة « والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما » [٣] بدلاً من «أيديهما » فقد بيَّنت ما يُقطع - وقراءة : « وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس » [٤] فقد بيَّنت أن المراد الإخوة لأم ، ولذا قال العلماء : « باختلاف القراءات يظهر الاختلاف فى الأحكام » .

قال أبو عبيد فى « فضائل القرآن » : المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها ، كقراءة عائشة وحفصة : « والصلاة الوسطى صلاة العصر»[٥] ، وقراءة ابن مسعود : « فاقطعوا أيمانهما » ، وقراءة جابر : « فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم » [٦] . . . قال : « فهذه الحروف وما شاكلها قد صارت مفسِّرة للقرآن ، وقد كان يُرْوَى مثل هذا عن التابعين فى التفسير فيُستحسَن ، فكيف إذا رُوِىَ عن كبار الصحابة ، ثم صار فى نفس القراءة ، فهو أكثر من التفسير وأقوى، فأدنى ما يُستنبط من هذه الحروف معرفة صحة التأويل » [٧] .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ . (٢) الجمعة : ٩

(٣) المائدة : ٣٨ ، بلفظ : « أيديهما » .

(٤) النساء : ١٢ بدون عبارة : « من أم » .

(٥) البقرة : ٢٣٨ بدون عبارة : « صلاة العصر » .

(٦) النور : ٣٣ بدون عبارة : « لهن » .

(٧) انظر : « الإتقان » (١/ ٨٢) .

والقرّاء السبعة المشهورون الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد وخصَّهم بالذكر لما اشتهروا به عنده من الضبط والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنهم هم :

١ - أبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة : وهو زيان بن العلاء بن عمار المازنى البصرى ، وقيل اسمه يحيى ، وقيل : اسمه كنيته ، وتوفى بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة (١٥٤ هـ) وراوياه :

الدورى ، والسوسى ، فأما الدورى : فهو أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز الدورى النحوى ، والدور : موضع ببغداد ، توفى سنة ست وأربعين ومائتين (٢٤٦ هـ) .

وأما السوسى : فهو أبو شعيب صالح بن زياد بن عبد الله السوسى ، توفى سنة إحدى وستين ومائتين (٢٦١ هـ) .

٢ - ابن كثير : هو عبد الله بن كثير المكى ، وهو من التابعين ، وتوفى بمكة سنة عشرين ومائة (١٢٠ هـ) وراوياه :

البزى : وقنبل ، أما البزى ، فهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بزة المؤذن المكى ، ويكنى أبا الحسن ، وتوفى بمكة سنة خمسين ومائتين (٢٥٠ هـ) .

وأما قنبل : فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد المكى المخزومى ، ويكنى أبا عمرو ، ويلقب قنبلاً ، ويقال : هم أهل البيت بمكة ، يعرفون بالقنابلة ، وتوفى بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين (٢٩١ هـ) .

٣ - نافع المدنى : وهو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم اللِّيثى ، أصله من أصفهان ، وتوفى بالمدينة سنة تسع وستين ومائة (١٦٩ هـ) وراوياه :

قالون : وورش ، أما قالون : فهو عيسى بن منيا « بالمد والقصر » المدنى معلم العربية ، ويكنى أبا موسى ، وقالون لقب له أيضًا ، يروى أن نافعاً لقَّبه به لجودة قراءته ، لأن « قالون » بلسان الروم « جيد » . وتوفى بالمدينة سنة عشرين ومائتين (٢٢٠ هـ) .

وأما ورش : فهو عثمان بن سعيد المصرى ، ويكنى أبا سعيد ، وورش لقب له ، لقب به فيما يقال لشدة بياضه ، وتوفى بمصر سنة سبع وتسعين ومائة (١٩٧ هـ) .

٤ - ابن عامر الشامى : هو عبد الله بن عامر اليحصبى قاضى دمشق فى خلافة الوليد بن عبد الملك . ويكنى أبا عمران ، وهو من التابعين ، وتوفى بدمشق سنة ثمان عشرة ومائة (١١٨ هـ) وراوياه :

هشام ، وابن ذكوان ، فأما هشام : فهو هشام بن عمار بن نصير القاضى الدمشقى ، ويكنى أبا الوليد ، وتوفى بها سنة خمس وأربعين ومائتين (٢٤٥ هـ) .

وأما ابن ذكوان : فهو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشى الدمشقى ، ويكنى أبا عمرو ، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة (١٧٣ هـ) ، وتوفى بدمشق سنة اثنتين وأربعين ومائتين (٢٤٢ هـ) .

٥ - عاصم الكوفى : هو عاصم بن أبى النجود ، ويقال له ابن بهدلة ، أبو بكر ، وهو من التابعين ، وتوفى بالكوفة سنة ثمان وعشرين ومائة (١٢٨ هـ) وراوياه :

شعبة ، وحفص ، فأما شعبة : فهو أبو بكر شعبة بن عباس بن سالم الكوفى، وتوفى بالكوفة سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣ هـ) .

وأما حفص : فهو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفى ، ويكنى أبا عمرو ، وكان ثقة ، قال ابن معين : هو أقرأ من أبى بكر ، وتوفى سنة ثمانين ومائة (١٨٠ هـ) .

٦ - حمزة الكوفى : هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضى التيمى ، ويكنى أبا عمارة وتوفى بحلوان فى خلافة أبى جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة (١٥٦ هـ) وراوياه :

خلف ، وخلاد ، فأما خلف : فهو خلف بن هشام البزاز ، ويكنى أبا محمد ، توفى ببغداد سنة تسع وعشرين ومائتين (٢٢٩ هـ) .

وأما خلاد ، فهو خلاد بن خالد ، ويقال ابن خليد ، الصيرفى الكوفى ، ويكنى أبا عيسى ، وتوفى بها سنة عشرين ومائتين (٢٢٠ هـ) .

٧ - الكسائى الكوفى : هو علىّ بن حمزة إمام النحاة الكوفيين ، ويكنى أبا الحسن ، وقيل له : « الكسائى » من أجل أنه أحرم فى كساء - توفى بـ « رنبوية » قرية من قرى الرى حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة (١٨٩ هـ) وراوياه :

أبو الحارث ، وحفص الدورى : فأما أبو الحارث فهو اللّيث بن خالد البغدادى، توفى سنة أربعين ومائتين (٢٤٠ هـ) .

وأما حفص الدورى : فهو الراوى عن أبى عمرو ، وقد سبق ذكره .

أما الثلاثة تكملة العشرة فهم :

٨ - أبو جعفر المدنى : هو يزيد بن القعقاع ، وتوفى بالمدينة سنة ثمان وعشرين ومائة (١٢٨ هـ) - وقيل (١٣٢ هـ) - وراوياه :

ابن وردان ، وابن جماز : فأما ابن وردان : فهو أبو الحارث عيسى بن وردان المدنى ، وتوفى بالمدينة فى حدود الستين ومائة (١٦٠ هـ) .

وأما ابن جماز : فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز المزنى ، توفى بها بعد السبعين ومائة (١٧٠ هـ) .

٩ - يعقوب البصرى : هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمى ، وتوفى بالبصرة سنة خمس ومائتين (٢٠٥ هـ) - وقيل (١٨٥ هـ) - وراوياه :

رويس ، وروح ، فأما رويس : فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى ، ورويس لقب له ، وتوفى بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين (٢٣٨ هـ) .

وأما روح : فهو أبو الحسن روح بن عبد المؤمن البصرى النحوى ، وتوفى سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين (٢٣٤ هـ) - أو (٢٣٥ هـ) .

١٠ - خلف : هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادى ، وتوفى سنة تسع وعشرين ومائتين (٢٢٩ هـ) - وقيل : لم يوقف على تاريخ وفاته - وراوياه :

إسحاق ، وإدريس ، أما إسحاق ، فهو : أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان الوراق المروزى ، ثم البغدادى ، توفى سنة ست وثمانين ومائتين (٢٨٦ هـ) .

وأما إدريس ، فهو : أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغدادى الحداد ، توفى يوم الأضحى سنة اثنتين وتسعين ومائتين (٢٩٢ هـ) .

ويزيد بعضهم أربع قراءات على هاتيك العشر ، وهن :

١- قراءة الحسن البصرى ، مولى الأنصار ، أحد كبار التابعين المشهورين بالزهد ، توفى سنة ١١٠ هجرية .

٢ - وقراءة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن ، توفى سنة ١٢٣ هجرية ، وكان شيخًا لأبى عمرو .

٣ - وقراءة يحيى بن المبارك اليزيدى النحوى ، من بغداد ، أخذ عن أبى عمرو وحمزة ، وكان شيخًا للدورى والسوسى ، توفى سنة ٢٠٢ هجرية .

٤ - وقراءة أبى الفرج محمد بن أحمد الشنبوذى ، توفى سنة ٣٨٨ هجرية .

* * *

الوقف والابتداء (١)

لمعرفة الوقف والابتداء أهمية كبرى فى كيفية أداء القرآن حفاظًا على سلامة معانى الآيات ، وبُعدًا عن اللَّبس والوقوع فى الخطأ ، وهذا يحتاج إلى دراية بعلوم العربية ، وعلم القراءات ، وتفسير القرآن ، حتى لا يفسد المعنى ، ولهذا أمثلته :

فيجب الوقف مثلاً على قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ (٢) ثم يبتدئ : ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ (٣) لئلا يتوهم أن قوله : « قيمًا » صفة لقوله « عوجًا » إذ العوج لا يكون قيمًا .

وعلى ما آخره هاء سكت فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَه * هَّلَكَ عَنِّى

(١) أفرده بالتأليف جماعة ، منهم : ابن النحاس ، وابن عباد ، والدانى ، وانظر : «البرهان » للزركشى (١/ ٣٤٢) .

(٢) الكهف : ١ (٣) الكهف : ٢ (٤) الحاقة : ٢٥ - ٢٦

سُلْطَانِيَهْ ﴾ (١) فإنك فى غير القرآن تثبت هذه الهاء إذا وقفت ، وتحذفها إذا وصلت، وهى مكتوبة فى المصحف بـ « الهاء » ، فلا يوصل ، لأنه يلزم فى حكم العربية إسقاط « الهاء » فى الوصل ، فإثباتها إذا وصلت مخالفة للعربية ، وحذفها مخالفة للمصحف ، وفى الوقف عليها اتباع للمصحف والعربية معًا ، وجواز الوصل بـ « الهاء » إنما يكون على نية الوقف .

ويجب الوقف مثلاً على قوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (٢) ، ثم يبتدئ : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (٢) كي يستقيم المعنى ، لأنه إذا وصل أوهم هذا أن القول الذى يُحزنه هو قولهم : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وليس كذلك .

ولا شك أن معرفة الوقف والابتداء لها فائدتها فى فهم المعانى وتدبر الأحكام ، عن ابن عمر قال : « لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتَى الإيمان قبل القرآن ، ولقد رأينا اليوم رجالاً يؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ، ما يدرى ما آمره ولا زاجره ، ولا ما ينبغى أن يوقف عنده ، وكل حرف منه ينادى : أنا رسول الله إليك لتعمل بى ، وتتعظ بمواعظى » (٤) .

* * *

● **أقسام الوقف** : اختلف العلماء فى أقسام الوقف :

فقيل : ينقسم الوقف إلى ثمانية أضرب : تام ، وشبيه به ، وناقص ، وشبيه به ، وحسن ، وشبيه به ، وقبيح ، وشبيه به .

وقيل : ينقسم إلى ثلاثة : تام ، وجائز ، وقبيح .

وقيل : ينقسم إلى قسمين : تام ، وقبيح .

والمشهور أنه ينقسم إلى أربعة أقسام : تام مختار ، وكاف جائز ، وحسن مفهوم، وقبيح متروك .

١ - فالتام : هو الذى لا يتعلق بشىء مما بعده ، وأكثر ما يوجد عند رؤوس

---

(١) الحاقة : ٢٨ - ٢٩ (٢) يونس : ٦٥

(٣) انظر هامش : « البرهان » (١/ ٣٤٢) .

الآى ، كقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) ثم يبتدئ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (٢) ، وقد يوجد قبل انقضاء الفاصلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ (٣) حيث انتهى بهذا كلام بلقيس ، ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) وهو رأس الآية .

٢ - والكافى الجائز : هو الذى يكون اللَّفظ فيه منقطعًا ، ويكون المعنى متصلاً ، ومن أمثلته : كل رأس آية بعدها لام كى : كقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

٣ - والحسن : هو الذى يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده لتعلقه به فى اللَّفظ والمعنى كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٦) .

٤ - والقبيح : هو الذى لا يُفهم منه المراد ، كالوقوف على قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ ﴾ (٧) والابتداء بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٨) لأن المعنى على الابتداء يكون كفرًا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ (٩) فلا يقف على « قالوا » وهكذا . .

* * *

التجويد وآداب التلاوة

كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قارئًا ندى الصوت ، يجيد تلاوة القرآن ، وللتلاوة الجيدة أثرها لدى القارىء والمستمع فى فهم معانى القرآن وإدراك أسرار إعجازه ، فى خشوع وضراعة ، وقد قال ﷺ فيه : « مَن أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنْزِلَ فَليقرأه على قراءة ابن أم عبد » يعنى ابن مسعود ، وذلك لما أعطيه من حسن الصوت وتجويد القرآن .

---

(١) البقرة : ٥ (٢) البقرة : ٦ (٣) النمل : ٣٤
(٤) النمل : ٣٤ (٥) يس : ٦٩ - ٧٠ (٦) الفاتحة : ٢ - ٣
(٧) المائدة : ١٧ ، ٧٢ (٨) المائدة : ١٧ ، ٧٢ (٩) المائدة : ٧٣

وللعلماء قديمًا وحديثًا عناية بتلاوة القرآن حتى يكون النطق صحيحًا ، ويُعرف هذا عندهم بتجويد القرآن ، وأفرده جماعة بالتصنيف نظمًا ونثرًا ، وعرَّفوا التجويد بأنه : « إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله ، وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف » .

والتجويد وإن كان صناعة علمية لها قواعدها التى تعتمد على إخراج الحروف من مخارجها مع مراعاة صلة كل حرف بما قبله وما بعده فى كيفية الأداء فإنه لا يُكتسب بالدراسة بقدر ما يُكتسب بالممارسة والمران ومحاكاة مَن يجيد القراءة ، قال ابن الجزرى : « ولا أعلم لبلوغ النهاية فى التجويد مثل رياضة الألسن والتكرار على اللَّفظ المتلقى من فم المحسن ، وقاعدته ترجع إلى كيفية الوقف والإمالة والإدغام وإحكام الهمز والترقيق والتفخيم ومخارج الحروف » (١) .

وقد عَدَّ العلماء القراءة بغير تجويد لحنًا ، واللَّحن : خلل يطرأ على الألفاظ ، ومنه الجلى والخفى ، فالجلى : هو الذى يخل باللَّفظ إخلالاً ظاهرًا يشترك فى معرفته علماء القراءة وغيرهم ، وذلك كالخطأ الإعرابى أو الصرفى ، والخفى : هو الذى يخل باللَّفظ إخلالاً يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء الذين تلقوه من أفواه العلماء وضبطوه من ألفاظ الأداء .

والمبالغة فى التجويد إلى حد الإفراط والتكلف ليست أقل من اللَّحن ، لأنها زيادة للحروف فى غير موضعها ، كأولئك الذين يقرأون القرآن اليوم بنغم شجى يتردد فيه الصوت تردد الوقع الموسيقى والعزف على آلات الطرب ، وقد نبَّه العلماء على ما ابتدعه الناس من ذلك بما يسمى : بـ « الترعيد ، أو الترقيص ، أو التطريب ، أو التحزين ، أو الترديد ، ونقل ذلك السيوطى فى الإتقان ، وعبَّر عنه الرافعى فى «إعجاز القرآن » بقوله : « ومما ابتُدِعَ فى القراءة والأداء هذا التلحين الذى بقى إلى اليوم يتناقله المفتونة قلوبهم وقلوب مَن يعجبهم شأنهم ، ويقرأون به على ما يشبه الإيقاع ، وهو الغناء ! . . ومن أنواعه عندهم فى أقسام النغم « الترعيد » وهو أن يرعد القارئ صوته ، قالوا : كأنه يرعد من البرد أو الألم . . . و« الترقيص » وهو

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ١٠٠) .

أن يروم السكوت على الساكن ثم ينقر مع الحركة كأنه فى عدو أو هرولة ، و« التطريب » وهو أن يترنم بالقرآن ويتنغم به فيمد فى سير مواضع المد ، ويزيد فى المد إن أصاب موضعه ، و« التحزين » ، وهو أن يأتى القراءة على وجه حزين يكاد يبكى مع خشوع وخضوع ، ثم « الترديد » وهو رد الجماعة على القارئ فى ختام قراءته بلحن واقد على وجه من تلك الوجوه .

وإنما كانت القراءة - تحقيقًا - وهو إعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما قرره العلماء مع ترتيل وتؤدة - أو حدرًا - وهو إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة - أو تدويرًا - وهو التوسط بين التحقيق والحدر .

وقراءة القرآن سُنَّة من سُنَن الإسلام ، والإكثار منها مستَحب حتى يكون المسلم حى القلب مستنير الفؤاد بما يقرأ من كتاب الله ، عن ابن عمر قال : « قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه فى آناء اللَّيل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء اللَّيل وآناء النهار » (١) .

والتلاوة مع إخلاص النية وحسن القصد عبادة يؤجر عليها المسلم ، عن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : « مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها » (٢) ، وجاء فى حديث أبى أمامة : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه » (٣) .

وكان السَلَف رضوان الله عليهم يحافظون على تلاوة القرآن ، ومنهم مَن كان يختم فى اليوم واللَّيلة ، ومنهم من كان يختم فى أكثر ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : « قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ القرآن فى شهر ، قلت : إنى أجد قوَّة ، قال : اقرأه فى عشر ، قلت : إنى أجد قوَّة ، قال : اقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك » (٤) .

وحذَّر رسول الله ﷺ من نسيان القرآن ، فقال : « تعاهدوا القرآن ، فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتًا من الإبل فى عقلها » (٥) .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم . (٢) رواه الترمذى . (٣) أخرجه مسلم .
(٤) رواه البخارى ومسلم . (٥) رواه البخارى ومسلم .

والأمر فى كثرة القراءة وختم القرآن يختلف باختلاف الأشخاص لاختلاف قدراتهم ، وتفاوت المصالح العامة التى تُناط بهم ، قال النووى فى « الأذكار » : «المختار أن ذلك مختلف باختلاف الأشخاص ، فمَن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ ، وكذلك مَن كان مشغولاً بنشر العلم أو فصل الحكومات أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة ، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له ، ولا فوات كماله - وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليُكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة فى القراءة » .

* * *

● **آداب التلاوة :**

ويستحب لقارئ القرآن :

١ - أن يكون على وضوء ، لأن ذلك من أفضل الذكر ، وإن كانت القراءة للمُحْدِث جائزة .

٢ - وأن يكون فى مكان نظيف طاهر ، مراعاة لجلال القراءة .

٣ - وأن يقرأ بخشوع وسكينة ووقار .

٤ - وأن يستاك قبل البدء فى القراءة .

٥ - وأن يتعوَّذ فى بدايتها ، لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١) ، وأوجب الاستعاذة بعض العلماء .

٦ - وأن يحافظ على البسملة فى مطلع كل سورة سوى « براءة » لأنها آية على الرأى الراجح .

٧ - وأن تكون قراءته ترتيلاً ، يعطى الحروف حقها من المد والإدغام ، قال تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (٢) ، وعن أنس أنه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : « كانت مدًا ، ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يمد الله ،

---

(١) النحل : ٩٨

(٢) المزمل : ٤

ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم » (١) ، وعن ابن مسعود : « أن رجلاً قال له : إنى أقرأ المفصَّل فى ركعة واحدة ، فقال : أهذًا كَهَذ الشعر ؟ (٢) ، إن قومًا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع » (٣) ، وقال الزركشى فى « البرهان » : « كمال الترتيل تفخيم ألفاظه ، والإبانة عن حروفه ، وأن لا يُدغم حرف فى حرف ، وقيل : هذا أقله ، وأكمله أن يقرأه على منازله ، فإن قرأ تهديدًا لفظ به لفظ التهديد ، أو تعظيمًا لفظ به على التعظيم » .

٨ - وأن يتدبر ما يقرأ ، لأن هذا هو المقصود الأعظم ، والمطلوب الأهم ، وذلك بأن يُشغل قلبه بالتفكير فى معنى ما يقرأ ، ويتجاوب مع كل آية بمشاعره وعواطفه ، دعاءً واستغفارًا ، ورحمة ، وعذابًا ، قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاته ﴾ (٤) ، وعن حذيفة قال : « صليتُ مع النبى ﷺ ذات ليلة ، فافتتح البقرة فقرأها ، ثم النساء فقرأها ، ثم آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلاً ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ » (٥) .

٩ - أن يتأثر بآيات القرآن وعدًا ووعيدًا ، فيحزن ويبكى لآيات الوعيد فزعًا ورهبة وهولاً ، قال تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٦) ، وفى حديث ابن مسعود قال : « قَال لى رسولَ الله ﷺ : « اقرأ علىَّ القرآن ، قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليكَ وعليك أنزل ؟ قال : نعم .. إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ (٧) قال : حسبك الآن ، فالتفتُ فإذا عيناه تَذرفَانً » (٨) قال فى شرح المهَذب : وطريقه فى تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ، ثم يفكر فى

---

(١) رواه البخارى .
(٢) الهذ ، والهذذ : سرعة القراءة .
(٣) أخرجه البخارى ومسلم .
(٤) سورة ص : ٢٩
(٥) أخرجه مسلم .
(٦) الإسراء : ١٠٩
(٧) النساء : ٤١
(٨) أخرجه البخارى وغيره .

تقصيره فيها فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب .

وروى ابن ماجه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج قوم فى آخر الزمان - أو فى هذه الأمة - يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم - أو حلوقهم - إذا رأيتموهم - أو إذا لقيتموهم - فاقتلوهم » .

١٠ - وأن يُحَسِّن صوته بالقراءة ، فإن القرآن زينة للصوت ، والصوت الحسن أوقع فى النفس ، وفى الحديث : « زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم » (١) .

١١ - وأن يجهر بالقراءة حيث يكون الجهر أفضل ، لما فيه من إيقاظ القلب ، وتجديد النشاط ، وانصراف السمع إلى القراءة ، وتعدى نفعها إلى السامعين ، واستجماع المشاعر للتفكير والنظر والتدبر ، أما إذا خشى بذلك الرياء ، أو كان فيه أذى للناس كإيذاء المصلين فإن الإسرار يكون أفضل ، قال ﷺ : « ما أذن الله لشيء ما أذِنَ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » (٢) .

١٢ - واختلفوا فى القراءة فى المصحف والقراءة على ظهر قلب ، أيهما أفضل ؟ على ثلاثة أقوال (٣) :

أحدها : أن القراءة فى المصحف أفضل ، لأن النظر فيه عبادة ، فتجتمع القراءة والنظر .

وثانيها : أن القراءة على ظهر القلب أفضل ، لأنها أدعى إلى حسن التدبر ، وهو الذى اختاره العز بن عبد السلام ، وقال : « قيل : القراءة فى المصحف أفضل ، لأنه يجمع فعل الجارحتين : وهما اللِّسان والعين ، والأجر على قدر المشقة ، وهذا باطل ، لأن المقصود من القراءة التدبر ، لقوله تعالى : ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ آيَاتِهِ ﴾ (٤) والعادة تشهد أن النظر فى المصحف يخل بهذا المقصود فكان مرجوحًا » .

---

(١) رواه ابن حبان وغيره .

(٢) انظر : « البرهان » للزركشى (١/ ٤٦١) .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

(٤) سورة ص : ٢٩

وثالثها : أن الأمر يختلف باختلاف الأحوال ، فإن كان القارىء من حفظه يحصل له من التدبر والتفكر وجمع القلب أكثر مما يحصل له من المصحف فالقراءة من الحفظ أفضل ، وإن استويا فمن المصحف أفضل .

* * *

تعلُم القرآن والأجرة عليه

تعليم القرآن فرض كفاية ، وحفظه واجب على الأمة ، حتى لا ينقطع عدد التواتر فيه حفظًا ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف ، فإن قام بذلك قوم سقط عن الباقين ، وإلا أثموا بأسرهم ، وفى حديث عثمان : « خيركم مَن تعلَّم القرآن وَعَلَّمه » (١) .

وسبيل تعلمه حفظ آيات يتلوها آيات ، وهذا هو المعروف اليوم فى وسائل التربية الحديثة ، أن يحفظ الدارس شيئًا قليلاً ، ثم يتبعه بقليل آخر ، ثم يضم هذا إلى ذاك، وهكذا ، عن أبى العالية قال : « تَعَلَّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل عليه السلام خمسًا خمسًا » .

وقد اختلف العلماء فى جواز أخذ الأجر على تعليم القرآن ، ورجح المحققون الجواز ، لقوله ﷺ : « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله » (٢) ، وقوله : «زوجتكها بما معك من القرآن » (٣) .

وقسَّم بعض العلماء تعليم القرآن تقسيمًا جيدًا للحالات المختلفة ، وبيَّنوا حكم كل حالة منها : قال أبو اللَّيث فى كتاب « البستان » (٤) : « التعليم على ثلاثة

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الطب » من حديث ابن عباس .

(٣) رواه الشيخان فى باب النكاح .

(٤) هو أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٥ هجرية ، وكتابه « بستان العارفين » فى الأحاديث الواردة فى الآداب الشرعية والخصال والأخلاق وبعض الأحكام الفرعية، وانظر : « البرهان » للزركشى (١/ ٤٥٧) .

أوجه : أحدها : للحسبة ولا يأخذ به عوضًا ، والثانى : أن يُعَلِّم بالأجرة ، والثالث : أن يُعَلِّم بغير شرط فإذا أهدى إليه قبل .

فالأول : مأجور عليه ، وهو عمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

والثانى : مختلف فيه ، فقيل لا يجوز ، لقوله ﷺ : « بَلِّغوا عنى ولو آية » ، وقيل : يجوز ، والأفضل للمعلِّم أن يشارط الأجرة للحفظ وتعليم الكتابة ، فإن شارط لتعليم القرآن أرجو أنه لا بأس به ، لأن المسلمين قد توارثوا ذلك واحتاجوا له .

وأما الثالث : فيجوز فى قولهم جميعًا ، لأن النبى ﷺ كان مُعَلِّمًا للخلق ، وكان يقبل الهدية ، ولحديث اللديغ لما رقوه بالفاتحة وجعلوا له جُعلاً ، وقال النبى ﷺ : « واضربوا لى معكم فيها بسهم » (١) .

* * *

(١) رواه البخارى فى كتاب « الطب » من حديث ابن عباس .

- ١١ -
القواعد التى يحتاج إليها المفسر

لا بد فى تناول أى علم من العلوم من معرفة أسسه العامة ومميزاته الخاصة حتى يكون الطالب له على بصيرة ، وبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه ، حيث يلج فصوله من أبوابها وقد أعطى مفاتيحها ، وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربى مبين : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، فإن القواعد التى يحتاج إليها المفسِّر فى فهم القرآن ترتكز على قواعد العربية ، وفهم أسسها ، وتذوق أسلوبها ، وإدراك أسرارها ، ولذلك كله فصول متناثرة ، ومباحث مستفيضة فى فروع العربية وعلومها ، إلا أننا نستطيع أن نجمع موجزًا لأهم ما يجب معرفته فى الأمور الآتية :

* * *

١ - الضمائر

للضمائر قواعدها اللُّغوية التى استنبطها علماء اللُّغة ، من القرآن الكريم ، ومن مصادر العربية الأصيلة ، ومن الحديث النبوى ، ومن كلام العرب الذين يُستشهد بكلامهم نظمًا ونثرًا ، وقد ألَّف ابن الأنبارى (٢) فى بيان الضمائر الواقعة فى القرآن مجلدين (٣) .

وأصل وضع الضمير للاختصار ، فهو يُغنى عن ذكر ألفاظ كثيرة ، ويحل محلها مع سلامة المعنى وعدم التكرار ، فقد قام فى قوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً

---

(١) يوسف : ٢

(٢) هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، كان له عناية باللُّغة وبعلوم القرآن ، توفى سنة ٣٢٨ هجرية .

(٣) انظر : « الإتقان » (١/١٨٦) .

وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) مقام عشرين كلمة لو أتىَ بها مُظْهَرة ، هى المذكورة فى صدر الآية : ﴿ إنَّ الْمُسْلمينَ وَالْمُسْلمَات وَالْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات وَالْقَانتينَ وَالْقَانتَات وَالصَّادقينَ وَالصَّادقَات وَالصَّابرينَ وَالصَّابرَات وَالْخَاشعينَ وَالْخَاشعَات وَالْمُتَصَدِّقينَ وَالْمُتَصَدِّقَات وَالصَّائمينَ وَالصَّائمَات وَالْحَافظينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافظَات وَالذَّاكرينَ اللهَ كَثيرًا وَالذَّاكرَات ، أَعَدَ اللهُ لَهُم مَّغْفرَةً وَأَجْرًا عَظيمًا﴾(٢) .

والأصل تقديم مفسر لضمر الغائب . . ويعلل النحاة هذا الأصل بأن ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة ، وضمير الغائب عار عن هذا الوجه من التفسير ، فكان الأصل تقديم معاده ليعلم المراد بالضمير قبل ذكره ، ولذلك قالوا : يمتنع عود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة ، واستثنوا من هذه القاعدة مسائل يرجع فيها الضمير إلى ما استغنى عن ذكره بما يدل عليه من قرائن فى نفس اللَّفظ ، أو أحوال أخرى تحف بمقام الخطاب (٣) ، قال ابن مالك فى « التسهيل » : « الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب ، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل ، وهو إما مصرح به بلفظه ، أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حسًا أو علمًا ، أو يذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما » .

وعلى هذا فالمرجع الذى يعود إليه ضمير الغيبة ، يكون ملفوظًا به سابقًا عليه مطابقًا له – وهذا هو الكثير الغالب – كقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ (٤)

---

(١) الأحزاب : : ٣٥ (٢) الأحزاب : ٣٥

(٣) ألقى الدكتور طه حسين فى مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة أكسفورد سنة ١٣٤٧ هجرية محاضرة عنوانها : « ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة فى القران » نشرتها مجلة الرابطة الشرقية ، جاء فيها : إن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور بتقدمه لفظًا ورتبة – يطابق هذا المذكور فى التذكير والتأنيث وفى الإفراد والتثنية والجمع ، وأن ما ورد على خلاف ذلك تأولوه بتكلف ، وأوضح هذا بأمثلة من القرآن ، وقد رد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين ، انظر : « بلاغة القرآن » (ص٦٤ وما بعدها) .

(٤) هود : ٤٢

أو يكون ما سبق متضمنًا له ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألا تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .

فإن ضمير « هو » يعود على العدل الذى يتضمنه لفظ « اعدلوا » أى أن العدل أقرب للتقوى - أو دالاً عليه بالتزام كقوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ (٢) فالضمير فى « إليه » يعود على العافى الذى يستلزمه « عُفِىَ » .

وقد يكون المرجع متأخرًا لفظًا لا رتبة كقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ (٣) ، أو لفظًا ورتبة كما فى باب ضمير الشأن والقصة ونعم وبئس كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ ﴾ (٧) ، أو متأخرًا دالاً عليه كقوله : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ (٨) فضمير الرفع مضمر يدل عليه « الحلقوم » ، والتقدير : فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم - أو مفهومًا من السياق كقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٩) أى على الأرض ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (١٠) أى القرآن ، وقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ (١١) أى النبى ﷺ ، وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ (١٢) فالواو فى « يقولون » للمشركين ، وفاعل « افترى » للنبى ﷺ ، ومفعوله للقرآن .

وربما عاد الضمير على اللَّفظ دون المعنى كقوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ ﴾ (١٣) فالضمير فى « عمره » المراد به عمر معمر

---

(١) المائدة : ٨ (٢) البقرة : ١٧٨ (٣) طه : ٦٧
(٤) الإخلاص : ١ (٥) الأنبياء : ٩٧ (٦) الكهف : ٥٠
(٧) الأعراف : ١٧٧ (٨) الواقعة : ٨٣ (٩) الرحمن : ٢٦
(١٠) القدر : ١ (١١) عبس : ١ (١٢) هود : ١٣
(١٣) فاطر : ١١

آخر ، قال الفراء : يريد آخر غير الأول ، فكنى عنه بالضمير كأنه الأول ، لأن لفظ الثانى لو ظهر كان كالأول ، كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر ، فالكتابة فى عمره ترجع إلى آخر غير الأول ، ومثله قولك : عندى درهم ونصفه ، أى نصف آخر » (١) .

وربما عاد الضمير على المعنى فقط كقوله : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلالَةَ ، إن امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ولَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إنْ لَّمْ يَكُنْ لَّهَا وَلَدٌ ، فَإن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (٢) فالضمير فى « كانتا » لم يتقدم لفظ تثنية يعود عليه ، لأن الكَلالَة تقع على الواحد والاثنين والجمع ، فثنى الضمير الراجع إليها حملاً على المعنى ، وقوله : ﴿ وآتُواْ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ﴾ (٣) فالضمير فى « منه » يعود على معنى الصدقات، لأنه فى معنى الصداق ، أو ما أُصدق ، كأنه قيل : وآتوا النساء صداقهن، أو ما أصدقتموهن .

وقد يؤتى بالضمير أولاً ثم يخبر عنه بما يفسره ، كقوله : ﴿ إنْ هِىَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ (٤) .

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ (٥) ، وإنما يخرج من أحدهما ، وهو الملح دون العذب ، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، وبهذا قال الزجاج وغيره .

وقد يعود على ملابس ما هو له كقوله : ﴿ لَمْ يَلْبَثُواْ إلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾(٦) أى ضحى يومها لا ضحى العشية ، لأن العشية لا ضحى لها .

وقد يراعى فى الضمير اللَّفظ أولاً ، ثم يراعى المعنى ثانيًا ، كقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) ، أفرد

---

(١) راجع كتب التفسير فى ذلك . (٢) النساء : ١٧٦ (٣) النساء : ٤
(٤) الأنعام : ٢٩ (٥) الرحمن : ٢٢ (٦) النازعات : ٤٦
(٧) البقرة : ٨

الضمير فى « يقول » باعتبار لفظ « من » ثم جمع فى « وما هم » باعتبار معناه .

* * *

٢ - التعْريف والتنكير

للتنكير مقامات : منها : إرادة الوحدة كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ (١) أى رجل واحد - أو إرادة النوع كقوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ (٢) أى نوع من الحياة ، وهو طلب الزيادة فى المستقبل ، لأن الحرص لا يكون على الماضى ولا على الحاضر - أو هما معًا كقوله : ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ (٣) أى كل نوع من أنواع الدواب من أنواع الماء ، وكل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف - أو التعظيم كقوله : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ ﴾ (٤) أى حرب عظيمة - أو التكثير كقوله : ﴿ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا ﴾ (٥) أى أجرًا وافرًا - أو هما معًا كقوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (٦) أى رسل عظام ذوو عدد كثير - أو التحقير كقوله : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (٧) أى من شىء هين حقير مهين - أو التقليل كقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ (٨) أى رضوان قليل منه أكبر من الجنات لأنه رأس كل سعادة .

وأما التعريف فله مقامات تختلف باختلاف كل نوع من أنواع التعريف .

ويكون بالإضمار لأن المقام مقام المتكلم ، أو الخطاب ، أو الغيبة وبالعلمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم يخصه - أو لتعظيمه كقوله : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ (٩) ، أو إهانته كقوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا

---

(١) القصص : ٢٠ (٢) البقرة : ٩٦ (٣) النور : ٤٥
(٤) البقرة : ٢٧٩ (٥) الشعراء : ٤١ (٦) فاطر : ٤
(٧) عبس : ١٨ (٨) التوبة : ٧٢ (٩) الفتح : ٢٩

أبى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) ، وبالإشارة لبيان حاله فى القرب كقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ ، فَأَرُونى مَاذَا خَلَقَ الَّذينَ من دُونه ﴾ (٢) ، أو لبيان حاله فى البعد كقوله : ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ ﴾ (٣) ، أو لقصد تحقيره بالقرب كقوله : ﴿ وَمَا هَذه الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ (٤) ، أو لقصد تعظيمه بالبعد كقوله : ﴿ ذَلكَ الكِتَابُ ، لا رَيْبَ فيه ﴾ (٥) ، أو التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير بما يرد بعده من أجلها كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلكَ وَبالآخرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَّبِّهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ ﴾ (٦) ، وبالموصول لكراهة ذكره باسمه ستراً عليه ، أو غير ذلك كقوله : ﴿ وَالَّذى قَالَ لوَالدَيْه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتى هُوَ فى بَيْتهَا عَن نَّفْسه ﴾ (٨) ، أو لإرادة العموم كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٩) ، أو الاختصار كقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالَّذينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ ممَّا قَالُوا ﴾ (١٠) ، إذ لو عدَّد أسماء القائلين لطال الكلام - وبالألف واللام للإشارة إلى معهود ذكرى ، كقوله : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُوره كَمشْكَاة فيهَا مصْبَاحٌ ، المصْبَاحُ فى زُجَاجَة ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ (١١) ، أو معهود ذهنى كقوله : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمنينَ إِذْ يُبَايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة ﴾ (١٢) ، أو معهود حضورى كقوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١٣) ، أو لاستغراق الإفراد كقوله : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ

---

(١) المسد : ١ — (٢) لقمان : ١١ — (٣) البقرة : ٥
(٤) العنكبوت : ٦٤ — (٥) البقرة : ٢ — (٦) البقرة : ٢ - ٥
(٧) الأحقاف : ١٧ — (٨) يوسف : ٢٣ — (٩) العنكبوت : ٦٩
(١٠) الأحزاب : ٦٩ — (١١) النور : ٣٥ — (١٢) الفتح : ١٨
(١٣) المائدة : ٣

لَفِى خُسْرٍ ﴾ (١) ، بدليل الاستثناء - أو لاستغراق خصائص الإفراد كقوله : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ (٢) ، أى الكتاب الكامل فى الهداية الجامع لجميع صفات الكتب المنزَّلة بخصائصها ، أو لتعريف الماهية والحقيقة والجنس ، كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (٣) .

وإذا ذُكرَ الاسم مرتين فله أربع أحوال ، لأنه إما أن يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو الأول نكرة والثانى معرفة ، أو بالعكس .

١ - فإن كانا معرفتين فالثانى هو الأول غالبًا كقوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤) .

٢ - وإن كانا نكرتين فالثانى غير الأول غالبًا كقوله : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (٥) ، فإن المراد بالضعف الأول النطفة ، وبالثانى الطفولية ، وبالثالث الشيخوخة ، وقد اجتمع القسمان فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٦) ولذلك رُوِىَ عن ابن عباس : « لن يغلب عُسر يُسرين » ، لأن الْعُسر الثانى أعاده بـ « الـ » ، فكان عين الأول ، ولما كان اليُسر الثانى غير الأول لم يعده بـ « الـ » .

٣ - وإن كان الأول نكرة ، والثانى معرفة ، فالثانى هو الأول حملاً على العهد ، كقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ (٧) .

٤ - وإن كان الأول معرفة ، والثانى نكرة ، توقف المراد على القرائن ، فتارة تقوم قرينة على التغاير ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ

---

(١) العصر : ٣ | (٢) البقرة : ٢ | (٣) الأنبياء : ٣٠

(٤) الفاتحة : ٦ - ٧ | (٥) الروم : ٥٤ | (٦) الشرح : ٥ - ٦

(٧) المزمل : ١٥ - ١٦

غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (١) ، وتارة تقوم قرينة على الاتحاد ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (٢) .

* * *

٣ - الإفراد والجمع

بعض ألفاظ القرآن يكون إفراده لمعنى خاص ، وجمعه لإشارة معينة ، أو يؤثر جمعه على إفراده أو العكس .

فمن ذلك أننا نرى بعض الألفاظ لم يأت فى القرآن إلا مجموعًا ، وعند الاحتياج إلى صيغة المفرد ، يستعمل مرادفه كلفظة « اللُّب » فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (٣) ولم يجيء فى القرآن مفرده ، بل جاء مكانه « القلب » كقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٤) ، ولفظة « الكوب » لم تأت مفردة وقد أتى الجمع : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (٥) .

وعكس هذا النوع ألفاظ لم تأت إلا مفردة فى كل موضع من مواضع القرآن ، ولما أريد جمعها جُمعت فى صورة من الروعة ليس لها مثال ، كقوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (٦) ، ولم يقل سبحانه : « وسبع أرضين » لما فى ذلك من الخشونة واختلال النظم .

ومن ذلك لفظة « السماء » ذُكرت تارة بصيغة الجمع وتارة بصيغة الإفراد ، لنكت مناسبة ، فحيث أريد العدد ، أُتِىَ بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة ، كقوله : ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ (٧) ، وحيث أُريد الجهة أُتِىَ بصيغة الإفراد كقوله : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ (٨) .

---

(١) الروم : ٥٥ — (٢) الزمر : ٢٧ - ٢٨ — (٣) الزمر : ٢١
(٤) سورة ق : ٣٧ — (٥) الغاشية : ١٤ — (٦) الطلاق : ١٢
(٧) الحشر : ١ — (٨) الملك : ١٦

ومن ذلك « الريح » ذُكرت مجموعة ومفردة ، فتُذكر مجموعة في سياق الرحمة وتُفرد في سياق العذاب ، وذكر في حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمنافع ، ويقابل بعضها الآخر أحيانًا ، لينشأ ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكانت في الرحمة رياحًا ، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد ، ولا معارض لها ولا دافع ، وقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أُبَيّ بن كعب ، قال : كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شيء من الريح فهو عذاب ، ولهذا ورد في الحديث : « اللَّهُمَّ اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا » وما عرج عن ذلك فهو لنكتة أخرى (١) .

ومن ذلك إفراد « النور » وجمع « الظلمات » ، وإفراد « سبيل الحق » وجمع « سبل الباطل » لأن طريق الحق واحدة ، وطرق الباطل متشعبة متعددة ، ولهذا وحَّدَ « ولي المؤمنين » وجمع « أولياء الكافرين » لتعددهم كما في قوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٣) .

ومن ذلك « المشرق والمغرب » بالإفراد والتثنية والجمع ، فالإفراد باعتبار الجهة والإشارة إلى ناحيتي الشرق والغرب كقوله : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (٤) والتثنية باعتبار مطلعي ومغربي الشتاء والصيف كقوله : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (٥) ، والجمع باعتبار مطلع كل يوم ومغربه ، أو مطلع كل فصل ومغربه كقوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٦) .

* * *

(١) فقد أفردت في قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (يونس : ٢٢) ، بوجهين: لفظي ، وهو المقابلة في قوله : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ، ومعنوي وهو أن تمام الرحمة هنا ، إنما يحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد وإلا تعرضت للهلاك .

(٢) البقرة : ٢٥٧ (٣) الأنعام : ١٥٣ (٤) المزمل : ٩ (٥) الرحمن : ١٧

(٦) ألَّف أبو الحسين الأخفش - كتاباً في الإفراد والجمع ، ذكر فيه جميع ما وقع في القرآن مفردًا ، ومفرد ما وقع جمعًا ، انظر « الإتقان » (١٩٣/١) - (والآية من سورة المعارج : ٤٠) .

٤ – مقابلة الجمع بالجمع أو بالمفرد

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضى مقابلة كل فرد من هذا ، بكل فرد من هذا ، كقوله : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ (١) ، أى استغشى كل منهم ثوبه ، وقوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ (٢) أى كل واحدة تُرضع ولدها . وتارة يقتضى ثبوت الجميع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (٣) ، أى اجلدوا كل واحد منهم ذلك العدد ، وتارة يحتمل الأمرين فيحتاج إلى دليل يُعيِّن أحدهما .

أما مقابلة الجمع بالمفرد . فالغالب ألا يقتضى تعميم المفرد وقد يقتضيه كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ (٤) ، أى على كل واحد لكل يوم طعام مسكين .

* * *

٥ – ما يُظن أنه مترادف وليس من المترادف

من ذلك « الخوف والخشية » فالخشية أعلى من الخوف ، وهى أشد منه لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية : أى يابسة ، وهو فوات الكلية ، والخوف من قولهم : ناقة خوفاء : أى بها داء ، وهو نقص وليس بفوات ، كما أن الخشية تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشى قويًا ، فهى خوف يشوبه تعظيم ، والخوف من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا ، ومادة الخشية : الخاء والشين والياء ، فى تصاريفها تدل على العظمة ، فالشيخ : السيد الكبير ، والخيش : الغليظ من اللباس ، ولذا وردت الخشية غالبًا فى حق الله تعالى ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٦) ، وأما قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (٧)

---

(١) نوح : ٧ — (٢) البقرة : ٢٣٣ — (٣) النور : ٤

(٤) البقرة : ١٨٤ — (٥) فاطر : ٢٨ — (٦) الأحزاب : ٣٩

(٧) النحل : ٥٠

فقد جاء فى وصف الملائكة بعد ذكر قوتهم وشدة خلقهم ، فالتعبير عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظًا شدادًا فهم بين يديه تعالى ضعفاء ، ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة ، فجمع بين الأمرين الّذين تتضمنهما الخشية دون إخلال بقوة بأسهم ، وهما خوفهم من ربهم مع تعظيمه سبحانه .

ومن ذلك « الشُّح والبخل » فالشُّح أشد من البخل لأنه بخل مع حرص ، وذلك فيما يكون عادة .

ومن ذلك « السبيل والطريق » فالسبيل أغلب وقوعًا فى الخير ، أما الطريق فلا يكاد يُراد به الخير إلا مقترنًا بما يدل على ذلك من وصف أو إضافة كقوله : ﴿ يَهْدِى إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) قال الراغب فى مفرداته : السبيل : الطريق الذى فيه سهولة فهو أخص .

ومن ذلك « مد وأمد » قال الراغب : أكثر ما جاء الإمداد فى المحبوب كقوله : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ ﴾ (٢) ، والمد فى المكروه كقوله : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدا ﴾ (٣) .

* * *

٦ - السؤال والجواب

الأصل فى الجواب أن يكون مطابقًا للسؤال ، وقد يعدل فى الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيهًا على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، وهو المسمى بأسلوب الحكيم ، ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ ﴾ (٤) فقد سألوا رسول الله ﷺ عن الهلال : لِمَ يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد قليلاً حتى يمتلئ ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا ببيان حكمة ذلك تنبيهًا على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه .

وقد يجئ الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه كقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم

---

(١) الأحقاف : ٣٠
(٢) الطور : ٢٢
(٣) مريم : ٧٩
(٤) البقرة : ١٨٩

مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ (١) فى جواب : ﴿ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (٢) .

وقد يجئ أنقص لاقتضاء الحال ذلك كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى ﴾ (٣) فى جواب : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (٤) لأن التبديل أسهل من الاختراع ، وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى .

والسؤال إذا كان لطلب معرفة تعدى إلى المفعول الثانى تارة بنفسه وتارة بـ« عن » وهو أكثر كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ (٥) ، وإذا كان لاستدعاء مال ونحوه فإنه يتعدى بنفسه أو بـ « من » وبنفسه أكثر كقوله : ﴿ وَاسْأَلُواْ مَا أَنفَقْتُمْ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ (٧) .

* * *

٧ - الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، والفعل يدل على التجدد والحدوث ، ولكل منهما موضعه الذى لا يصلح له الآخر ، فيأتى التعبير مثلاً فى النفقة بالفعل كقوله : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (٨) ولم قل « المنفقون » ويأتى التعبير فى الإيمان بالاسم كقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٩) لأن النفقة أمر فعلى شأنه الحدوث والتجدد بخلاف الإيمان فإنه له حقيقة تقوم بدوام مقتضاها ، والمراد بالتجدد فى الماضى الحصول مرة بعد أخرى ، وفى المضارع أن من شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى ، ومضمر الفعل فى ذلك كمظهره ولهذا قالوا : إن سلام إبراهيم عليه السلام أبلغ من سلام الملائكة فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا ﴾ (١٠) فالنصب على أنه مصدر سد مسد الفعل ، وأصله :

---

(١) الأنعام : ٦٤
(٢) الأنعام : ٦٣
(٣) يونس : ١٥
(٤) يونس : ١٥
(٥) الإسراء : ٨٥
(٦) الممتحنة : ١٠
(٧) النساء : ٣٢
(٨) آل عمران : ١٣٤
(٩) الحجرات : ١٥
(١٠) الذاريات : ٢٥

نسلم عليك سلامًا ، وهذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم ، بخلاف رده : ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ (١) . فإنه معدول به إلى الرفع على الابتداء ، وخبره محذوف والمعنى : عليكم سلام . للدلالة على إثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذًا بأدب الله تعالى (٢) ، وهو أيضاً من إكرامه لهم .

* * *

٨ – العطف

وهو ثلاثة أقسام :

١ – عطف على اللَّفظ : وهو الأصل .

٢ – وعطف على المحل : وجعل منه الكسائى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ ﴾ (٣) فجعل « الصابئون » عطفًا على محل « إن » واسمها ، ومحلها الرفع بالابتداء .

٣ – وعطف على المعنى : ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ (٤) فى قراءة غير أبى عمرو بجزم « أكن » وخرَّجه فى قراءة غير الخليل وسيبويه على أنه عطف على التوهم (٥) ، لأن معنى « لولا أخرتنى فأصَّدَّق » ومعنى « أخرنى أصَّدَّق » واحد ، كأنه قيل : إن أخرتنى أصَّدَّق وأكن ، كما خرَّج الفارسى عليه قراءة قنبل : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ (٦) بسكون الراء ، لأن « مَن » الموصولة فيها معنى الشرط .

واختُلِف فى جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه ، فمنعه الأكثرون ، وأجازه

---

(١) الذاريات : ٢٥

(٢) فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء : ٨٦) .

(٣) المائدة : ٦٩ (٤) المنافقون : ١٠

(٥) هذه العبارة التى حكاها سيبويه عن الخليل ، وهى المنقولة فى كتب التفسير : إنه جزم على توهم الشرط الذى يدل عليه التمنى ، ولفظ « التوهم » غير لائق فى تفسير القرآن والأولى أن يقال : عطف على المعنى ، كما هو صريح العبارة بعد .

(٦) يوسف : ٩٠

جماعة مستدلين بقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) عطف على « تؤمنون » فى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) وخرَّجه الآخرون على أن « تؤمنون » بمعنى آمنوا ، فهو خبر بمعنى الإنشاء ، فصح عطف الإنشاء عليه . « وبَشِّر » كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك ، وفائدة التعبير بالخبر فى موضع الأمر الإيذان بوجوب الامتثال ، أى كأنه امتثل فهو يُخبر عن إيمان وجهاد موجودين .

واختُلف أيضاً فى جواز العطف على معمولى عاملين ، واستدل المجيزون بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، فقوله : ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ، ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ من العطف على معمولى عاملين سواء نصبت أو رفعت ، فالعاملان إذا نصبت « إن » و« فى » أقيمت الواو مقامهما ، فعملت الواو الجر فى : ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ والنصب فى « آيات » وإذا رفعت فالعاملان « الابتداء » و« فى » عملت الواو الرفع فى « آيات » والجر فى « اختلاف » ذكر هذا الزمخشرى (٤) .

واختُلفَ أيضًا فى جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، وخرَّج عليه المجيزون قراءة حمزة : ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ ﴾ (٥) بجر الأرحام عطفًا على الضمير ، وجعلوا منه قوله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾ (٦) على أن « المسجد » معطوف على ضمير « به » .

* * *

---

(١) الصف : ١٣ (٢) الصف : ١٠ - ١١ (٣) الجاثية : ٣ - ٥

(٤) انظر تفسير الآية فى « الكشاف » للزمخشرى .

(٥) النساء : ١ (٦) البقرة : ٢١٧

الفرق بين الإيتاء والإعطاء

وهناك فرق بين الإيتاء والإعطاء فى القرآن ، قال الجوينى [1] : « إن الإيتاء أقوى من الإعطاء فى إثبات مفعوله ، لأن الإعطاء له مطاوع ، يقال : أعطانى فعطوت ، ولا يقال فى الإيتاء : آتانى فأتيتُ ، وإنما يقال : آتانى فأخذت ، والفعل الذى له مطاوع أضعف فى إثبات مفعوله من الذى لا مطاوع له ، لأنك تقول : قطعته فانقطع ، فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفًا على قبول المحل ، لولاه لما ثبت المفعول ، ولهذا يصح : قطعته فما انقطع ، ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك ، فلا يجوز أن يقال : ضربته فانضرب أو ما انضرب ، ولا قتلته فانقتل أو ما انقتل ، لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول فى المحل ، والفاعل مستقل بالأفعال التى لا مطاوع لها ، فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء » .

ولهذا شواهده ، فقد قال تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [2] لأن الحكمة إذا ثبتت فى المحل دامت ، وهى عظيمة الشأن ، وقال : ﴿ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [3] ، وقال : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [4] لأن بعد الكوثر منازل أعلى ، حيث يكون الانتقال إلى ما هو أعظم منه فى الجنة ، وقال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [5] لأن الجزية موقوفة على قبول منا ، وهم لا يؤتونها إيتاءً عن طيب قلب ، وإنما عن كُره ، وقد عبَّر بالإيتاء فى جانب المسلمين بالنسبة إلى الزكاة ، وفى ذلك : إشارة إلى أن المؤمن ينبغى أن يكون إعطاؤه للزكاة بقوة ، لا يكون كإعطاء الجزية .

* * *

لفظ « فعل »

يجىء لفظ « فعل » كناية عن أفعال متعددة لا للدلالة على فعل واحد ، فيفيد

---

(١) انظر : البرهان » للزركشى (٤/ ٨٥) .
(٢) البقرة : ٢٦٩
(٣) الحجر : ٨٧
(٤) الكوثر : ١
(٥) التوبة : ٢٩

بهذا الاختصار ، كقوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) فإنها تشمل كل منكر لا يتناهون عنه ، وقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ (٢) أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله .

وحيث أطلقت فى كلام الله فهى محمولة على الوعيد الشديد كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ (٤) .

* * *

لفظ « كان » (٥)

وردت « كان » فى الإخبار عن ذات الله وصفاته بالقرآن كثيرًا وقد اختلف النحاة وغيرهم فى أنها تدل على الانقطاع ، على مذاهب :

أحدها : أنها تفيد الانقطاع لأنها فعل يُشعر بالتجديد .

والثانى : لا تفيده ، بل تقتضى الدوام والاستمرار ، وبه جزم ابن معطى (٦) فى ألفيته ، حيث قال :

* وكان للماضى الذى ما انقطعا *

وقال الراغب فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٧) نبَّه بقوله : « كان » على أنه لم يزل منذ أوجِدَ منطويًا على الكفر .

والثالث : أنه عبارة عن وجود شيء فى زمان ماض على سبيل الإبهام . وليس فيه دليل على عدم سابق ، ولا على انقطاع طارئ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ

---

(١) المائدة : ٧٩ (٢) البقرة : ٢٤ (٣) الفيل : ١

(٤) إبراهيم : ٤٥ (٥) انظر : « البرهان » (٤/ ١٢١) .

(٦) هو الشيخ زين الدين يحيى بن عبد المعطى المتوفى سنة ٦٢٨ هجرية ، سماها « الدرة الألفية » وأولها : يقـول راجى ربه الغفور يحيى بن معط بن عبد النور

وإليها أشار ابن مالك بقوله : فائقة ألفية ابن معطى .

(٧) الإسراء : ٢٧

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) قاله الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) عند تفسيره للآية فى « الكشاف » .

وذكر ابن عطية فى سورة الفتح أنها حيث وقعت فى صفات الله فهى مسلوبة الدلالة على الزمان .

والصواب من هذه المقالات مقالة الزمخشرى ، وأنها تفيد اقتران معنى الجملة التى تليها بالزمن الماضى لا غير ، ولا دلالة لها نفسها على انقطاع ذلك المعنى ولا بقائه ، بل إن أفاد الكلام شيئاً من ذلك كان لدليل آخر .

وعلى هذا يُحمل معناها فيما وقع فى القرآن من إخبار الله تعالى عن صفاته وغيرها بلفظ « كان » كثيرًا ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (٣) ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ (٤) ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٥) ، ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (٧) .

وحيث أخبر الله بها عن صفات الآدميين فالمراد التنبيه على أنها فيهم غريزة وطبيعة مركوزة فى النفس كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ (٨) ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (٩) .

وقد تتبع أبو بكر الرازى استعمال « كان » فى القرآن ، واستنبط وجوه استعمالها فقال : « كان » فى القرآن على خمسة أوجه :

بمعنى الأزل والأبد ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٠) .

وبمعنى المعنى المنقطع ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ (١١) وهو الأصل فى معانى « كان » كما تقول : كان زيد صالحًا أو فقيرًا أو مريضًا أو نحوه .

---

(١) الأحزاب : ٥٠ — (٢) آل عمران : ١١٠ — (٣) النساء : ١٤٨

(٤) النساء : ١٣٠ — (٥) الأحزاب : ٥٩ — (٦) الأنبياء : ٨١

(٧) الأنبياء : ٧٨ — (٨) الإسراء : ١١ — (٩) الأحزاب : ٧٢

(١٠) النساء : ١٧٠ — (١١) النمل : ٤٨

وبمعنى الحال ، كقوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (٢) ، وبمعنى الاستقبال ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (٣) .

وبمعنى « صار » كقوله : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

وتأتى « كان » فى النفى ويكون المراد بها نفى صحة الخبر لا نفى وقوعه ولذا تؤول بمعنى « ما صح وما استقام » كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ (٧) .

* * *

لفظ « كاد »

وللعلماء فى « كاد » مذاهب :

أحدها : أنها كسائر الأفعال نفيًا وإثباتًا ، فإثباتها إثبات ونفيها نفى ، لأن معناها المقاربة ، فمعنى كاد يفعل : قارب الفعل ، ومعنى ما كاد يفعل : لم يقاربه ، فخبرها منفى دائمًا ، ولكن النفى فى الإثبات مستفاد من معناها ، لأن الإخبار بقرب الشىء يقتضى عرفًا عدم حصوله ، وإلا لم يتجه الإخبار بقربه ، أما إذا كانت منفية فلأنه إذا انتفت مقاربة الفعل اقتضى عقلاً عدم حصوله ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ (٨) ولهذا كان أبلغ من قوله : « لم يرها » لأن مَن لم ير قد يقارب الرؤية .

والثانى : أنها تختلف عن سائر الأفعال إثباتًا ونفيًا ، فإثباتها نفى ، ونفيها إثبات ، ولذا قالوا : إنها إذا أثبتت نفت ، وإذا نفت أثبتت ، فإذا قيل : كاد يفعل ،

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) النساء : ١٠٣ (٣) الإنسان : ٧
(٤) « البرهان » للزركشى (٤/ ١٢٧) - (والآية من سورة البقرة : ٣٤) .
(٥) الأنفال : ٦٧ (٦) التوبة : ١٧ (٧) النور : ١٦
(٨) النور : ٤٠

فمعناه أنه لم يفعله بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ (١) لأنهم لم يفتنوه ، وإذا قيل : لم يكد يفعل ، فمعناه أنه فعله بدليل قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) لأنهم فعلُوا الذبح .

والثالث : أنها فى النفى تدل على وقوع الفعل بعسر وشدة كقوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

والرابع : التفصيل فى النفى بين المضارع والماضى ، فنفى المضارع نفى ، ونفى الماضى إثبات ، يدل على الأول قوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ مع أنه لم ير شيئاً ، ويدل على الثانى قوله : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ مع أنهم فعلوا .

والخامس : أنها فى النفى تكون للإثبات إذا كان ما بعدها متصلاً بما قبلها ومتعلقًا به ، كقوله : ما كدت أصل إلى مكة حتى طفت بالبيت الحرام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

* * *

لفظ « جعل »

تأتى « جعل » فى القرآن لعدة معان :

أحدهما : بمعنى « سمى » كقوله تعالى : ﴿ الَّذينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عضينَ ﴾ (٣) أى سموه كذبًا ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكَةَ الَّذينَ هُمْ عبَادُ الرَّحْمَن إِنَاثًا ﴾ (٤) على قول ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ بالآخرَة لَيُسَمُّونَ الملائكَةَ تَسْميَةَ الأُنثَى ﴾ (٥) .

الثانى : بمعنى « أوجد » وتتعدى إلى مفعول واحد ، والفرق بينهما وبين الخلق ، أن الخلق فيه معنى التقدير ، ويكون عن عدم سابق حيث لا يتقدم مادة ولا سبب محسوس ، بخلاف الجعل بمعنى الإيجاد ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذى خَلَقَ

---

(١) الإسراء : ٧٣ (٢) البقرة : ٧١ (٣) الحجر : ٩١
(٤) الزخرف : ١٩ (٥) النجم : ٢٧

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (١) ، وإنما الظلمات والنور تنشأ عن أجرام توجد بوجودها ، وتعدم بعدمها .

الثالث : بمعنى النقل من حال إلى حال والتصيير ، فتتعدى إلى مفعولين : إما حسًا كقوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ (٢) ، وإما عقلاً كقوله : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ (٣) .

الرابع : بمعنى الاعتقاد ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (٤) .

الخامس : بمعنى الحكم بالشىء على الشىء ، حقًا كان أو باطلاً ، فالحق كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥) ، والباطل ، كقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ (٦) .

❊ ❊ ❊

« لعل » ، و« عسى »

تستعمل « لعل » و« عسى » للرجاء والطمع فى كلام المخلوقين حيث يشك الخلق فى الأمور الممكنة ولا يقطعون على الكائن منها ، أما بالنسبة إلى الله تعالى :

(أ) فقيل : هما يدلان على الحصول والوجوب ، لأن نسبة الأمور إلى الله نسبة قطع ويقين .

(ب) وقيل : إنهما للترجى على بابهما ، ولكن الترجى يكون بالنسبة إلى المخاطبين .

(ج) وقيل : إن « عسى » و« لعل » فى كثير من المواضع تكون للتعليل .

قال تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٧) ، وقال سبحانه : ﴿ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨) .

❊ ❊ ❊

---

(١) الأنعام : ١ — (٢) البقرة : ٢٢ — (٣) سورة ص : ٥

(٤) الأنعام : ١٠٠ — (٥) القصص : ٧ — (٦) الأنعام : ١٣٦

(٧) الإسراء : ٧٩ — (٨) المائدة : ١٠٠

- ١٢ -
الفرق بين المُحْكَم والمتشابه (١)

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالَمين نذيرًا ، فرسم للخلق العقيدة السليمة والمبادئ القويمة فى آيات بيِّنات واضحة المعالِم ، وذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم ، وتلك الآيات هى أم الكتاب التى لا يقع الاختلاف فى فهمها سلامة لوحدة الأمة الإسلامية وصيانة لكيانها : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقد تأتى هذه الأصول الدينية فى أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللَّفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحدًا ، فيشبه بعضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقض ، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن فى آياتها من العموم والاشتباه ما يُفسح المجال أمام المجتهدين الراسخين فى العلم ، حتى يردوها إلى المُحكَم ببناء الفروع على الأصول ، والجزئيات على الكليات وإن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى - وبهذا الإحكام فى الأصول والعموم فى الفروع كان الإسلام دين الإنسانية الخالد الذى يكفل لها خير الدنيا والآخرة على مر العصور والأزمان .

* * *

الإحكام العام والتشابه العام

المُحْكَم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت : بمعنى منعت ، والحكم : هو الفصل بين الشيئين ، فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين ، ويميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ويقال : حكمت السفيه وأحكمته : إذا أخذتَ على يديه ، وحكمت الدابة وأحكمتها : إذا جعلتَ لها حكمة : وهى ما أحاط بالحنك

(١) راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية عن المُحْكَم والمتشابه ، والتأويل فى التدمرية وغيرها من رسائله .

(٢) فصلت : ٣

من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب ، ومنه الحكمة : لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق ، وإحكام الشيء : إتقانه ، والمحكم : المتقن .

فإحكام الكلام : إتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره ، والرشد من الغى فى أوامره ، والمُحْكَم منه : ما كان كذلك .

وقد وصف الله القرآن كله بأنه مُحْكَم على هذا المعنى فقال : ﴿ الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ (٢) ، فالقرآن كله مُحْكَم : أى أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وهذا هو الإحكام العام .

والمتشابه لغة : مأخوذ من التشابه : وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر ، والشبهة : هى ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينًا كان أو معنى ، قال تعالى : ﴿ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ (٣) أى يشبه بعضه بعضًا لونًا لا طعمًا وحقيقة ، وقيل : متماثلاً فى الكلام والجودة .

وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يُصَدِّق بعضه بعضًا ، وقد وصف الله القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾ (٤) فالقرآن كله متشابه : أى أنه يشبه بعضه بعضًا فى الكمال والجودة ، ويُصَدِّق بعضه بعضًا فى المعنى ويماثله ، وهذا هو التشابه العام .

وكل من المُحْكَم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافى الآخر ، فالقرآن كله مُحْكَم بمعنى الإتقان ، وهو متماثل يُصَدِّق بعضه بعضًا ، فإن الكلام المُحْكَم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه ، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر ، وإنما يأمر به أو بنظيره ، وكذلك الشأن فى نواهيه وأخباره ، فلا تضاد فيه ولا اختلاف : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (٥) .

* * *

(١) هود : ١ (٢) يونس : ١ (٣) البقرة : ٢٥
(٤) الزمر : ٢٣ (٥) النساء : ٨٢

الإحكام الخاص والتشابه الخاص

وهناك إحكام خاص وتشابه خاص ذكرهما الله فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (١) وفى معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها :

(أ) **المحكم** : ما عُرِفَ المراد منه ، **والمتشابه** : ما استأثر الله بعلمه .

(ب) **المحكم** : ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا ، **والمتشابه** : ما احتمل أوجهًا .

(ج) **المحكم** : ما لا استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، **والمتشابه** : ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره .

ويمثلون للمحكم فى القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده ، وللمتشابه ، بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته التى فى قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ (٨) وقوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ (٩) ، إلى غير ذلك ، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة .

* * *

---

(١) آل عمران : ٧ — (٢) طه : ٥ — (٣) القصص : ٨٨

(٤) الفتح : ١٠ — (٥) الأنعام : ١٨ — (٦) الفجر : ٢٢

(٧) الفتح : ٦ — (٨) البينة : ٨ — (٩) آل عمران : ٣١

الاختلاف فى معرفة المتشابه

وكما وقع الاختلاف فى معنى كل من المُحكَم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف فى إمكان معرفة المتشابه ، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم فى الوقف فى قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ﴾ هل هو مبتدأ خبره ﴿ يَقُولُونَ ﴾ والواو للاستئناف ، والوقف على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ ؟ أو هو معطوف و﴿ يَقُولُونَ ﴾ حال ، والوقف على قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ﴾ .

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبَىّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم ، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون فى العلم آمنّا به » .

وبقراءة ابن مسعود : « وإن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنّا به » .

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعى المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة .

وعن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ ﴾ (١) ... إلى قوله تعالى : ﴿ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) قال رسول الله ﷺ : « فإذا رأيتَ الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم » (٣) .

وذهب إلى الرأى الثانى (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد ، فقد أخرج عبد ابن حميد عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ﴾ قال : « يعلمون تأويله ويقولون : آمنا به » ، واختار هذا القول النووى ، فقال فى شرح مسلم : إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته » (٤) .

* * *

---

(١) آل عمران : ٧

(٢) آل عمران : ٧

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٤) الإتقان (٢/ ٣) .

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل

بالرجوع إلى معنى « التأويل » يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين ، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان

الأول : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين .

الثانى : التأويل بمعنى التفسير ، فهو الكلام الذى يفسَّر به اللُّفظ حتى يُفهم معناه .

الثالث : التأويل : هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام ، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفات ، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفسه ما يكون فى اليوم الآخر ، وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة : « كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللَّهُمَّ ربنا وبحمدك ، اللَّهُمَّ اغفر لى » يتأوَّل القرآن » ، تعنى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١) .

فالذين يقولون بالوقف على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ (٢) ويجعلون : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (٢) استئنافًا ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث ، أى الحقيقة التى يؤول إليها الكلام ، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله .

والذين يقولون بالوقف على قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ على أن الواو للعطف وليست للاستئناف ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثانى أى التفسير ، ومجاهد إمام المفسرين ، قال الثورى فيه : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، فإذا ذُكِرَ أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره .

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين فى النهاية ، وإنما الزمر يرجع إلى الاختلاف فى معنى التأويل .

---

(١) رواه البخارى ومسلم - (والآية من سورة النصر : ٣) .
(٢) آل عمران : ٧

ففى القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه فى الدنيا ، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة ، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه فى اللّفظ والمعنى الكلى إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته ، والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها ، وأما نفس الحقيقة فهى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله ، ولهذا لما سُئِلَ مالك وغيره من السَلَف عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [1] قالوا : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » وكذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك قبله : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا الإيمان » ، فبيَّن أن الاستواء معلوم ، وأن كيفية ذلك مجهولة .

وكذلك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر ، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة ، ففى الآخرة ميزان ، وجنة ونار ، وفى الجنة : ﴿ أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاء غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّة لِّلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفَّىً ﴾ [2] . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [3] .. وذلك نعلمه ونؤمن به ، وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد ، وما فى الآخرة يمتاز عما فى الدنيا ، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا ، وهى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله .

* * *

التأويل المذموم

والتأويل المذموم بمعنى : صرف اللّفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، إنما لجأ إليه كثير من المتأخرين مبالغة منهم فى تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون ، وهذا زعم باطل أوقعهم فى مثل ما هربوا

---

(١) طه : ٥ (٢) محمد : ١٥ (٣) الغاشية : ١٣ - ١٦

منه أو أشد ، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلاً إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يداً لأن للمخلوقين يداً ، فاشتبه عليهم لفظ اليد فأوّلوها بالقدرة ، وذلك تناقض منهم ، لأنهم يلزمهم فى المعنى الذى أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم فى المعنى الذى نفوه ، لأن العباد لهم قدرة أيضاً ، فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقًا ممكنًا كان إثبات اليد لله حقًا ممكنًا أيضاً ، وإن كان إثبات اليد باطلاً ممتنعًا لما يلزمه من التشبيه فى زعمهم كان إثبات القدرة باطلاً ممتنعًا كذلك ، فلا يجوز أن يقال : إن هذا اللفظ مؤوّل بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح .

وما جاء عن أئمة السَلَف وغيرهم من ذم للمتأولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين تأوّلوا ما يشتبه عليهم معناه على غير تأويله وإن كان لا يشتبه على غيرهم .

* * *

- ١٣ -

العام والخاص

للنظم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليها ، وقد يجتمع للحكم التشريعى خصائص تجعله عاما يشمل كل الأفراد ، أو ينطبق على جميع الحالات ، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتى ما يبين حده أو يحصر نطاقه ، والبيان العربى فى تلوين الخطاب وبيان المقاصد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللُّغة واتساع مادتها ، فإذا ورد هذا فى كلام الله المعجز كان وقعه فى النفس عنوان إعجاز تشريعى مع الإعجاز اللُّغوى .

* * *

تعريف العام وصيغ العموم

العام : هو اللَّفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر (١) .

وقد اختلف العلماء فى معنى العموم ، أله فى اللُّغة صيغة موضوعة له خاصة به تدل عليه أم لا ؟

فذهب أكثر العلماء إلى أن هناك صيغًا وُضعَت فى اللُّغة للدلالة حقيقة على العموم ، وتُستعمل مجازًا فيما عداه ، واستدلوا على ذلك بأدلة نصيَّة ، وإجماعية ومعنوية .

(أ) **فمن الأدلة النصيَّة** : قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وأَنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (٢) ووجه الدلالة أن نوحًا عليه السلام توجَّه بهذا النداء تمسكًا منه بقوله

---

(١) انتقد الآمدى هذا التعريف - ولم أجد تعريفًا أتم منه ، كما انتقد تعريف الخاص الذى سيأتى - انظر : « الإحكام فى أصول الأحكام » (٢/١٨١) ، ط . الحلبى .

(٢) هود : ٤٥ - ٤٦ .

تعالى : ﴿ قُلْنَا احمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ (١) وأقرَّه الله تعالى على هذا النداء ، وأجابه بما دل على أنه ليس من أهله ، ولولا أن إضافة الأهل إلى نوح للعموم لما صح ذلك .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ إِنَّا مُهْلِكُواْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ، قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٢) ووجه الدلالة أن إبراهيم فهم من قول الملائكة : ﴿ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ العموم ، حيث ذكر « لوطًا » فأقرَّه الملائكة على ذلك ، وأجابوه بتخصيص لوط وأهله بالاستثناء ، واستثناء امرأته من الناجين ، وذلك كله يدل على العموم .

(ب) **ومن الأدلة الإجماعية إجماع الصحابة على إجراء قوله تعالى** : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٤) ونحو ذلك على العموم فى كل زان وسارق .

(ج) **ومن الأدلة المعنوية** : أن العموم يُفهم من استعمال ألفاظه ، ولو لم تكن هذه الألفاظ موضوعة له لما تبادر إلى الذهن فهمه منها ، كألفاظ الشرط والاستفهام والموصول .

وإننا ندرك الفرق بين « كل » و« بعض » ولو كان « كل » غير مفيد للعموم لما تحقق الفرق .

ولو قال قائل فى النكرة المنفية « لا رجل فى الدار » فإنه يُعَد كاذبًا إذا قدَّر أنه رأى رجلاً ما ، كما ورد قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاء بِهِ

---

(١) هود : ٤٠ (٢) العنكبوت : ٣١ - ٣٢

(٣) تخصيص الآية بغير المحصن جاء بأدلة مخصصة هى التى وردت فى رجم المحصن الحر- (والآية من سورة النور : ٢) .

(٤) تخصيص الآية باعتبار الحزر ومقدار المسروق جاء بأدلة مخصصة كذلك - (والآية من سورة المائدة : ٣٨) .

مُوسَى ﴾ (١) تكذيبًا لمن قال : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ (٢) ، وهذا يدل على أن النكرة بعد النفى للعموم ، ولو لم تكن للعموم لما كان قولنا : « لا إله إلا الله » توحيدًا لعدم دلالته على نفى كل إله سوى الله تعالى (٣) .

وبناء على هذا فللعموم صيغه التى تدل عليه .

منها : « كل » كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥) ومثلها : « جميع » .

ومنها : المعرف بـ « الـ » التى ليست للعهد كقوله : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ (٦) أى كل إنسان ، بدليل قوله بعد : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ ﴾ (٨) .

وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٩) .

ومنها : النكرة فى سياق النفى والنهى كقوله : ﴿ فَلا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ ﴾ (١٠) .

وقوله : ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (١١) .

أو فى سياق الشرط كقوله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ﴾ (١٢) .

ومنها : « الذى » و« التى » وفروعهما كقوله : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ (١٣) ، أى كل من قال ذلك بدليل قوله بعد صيغة الجمع : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ ﴾ (١٤) .

---

(١) الأنعام : ٩١ (٢) الأنعام : ٩١

(٣) أغفلنا آراء الآخرين فلم نذكرها حيث لا نرى حاجة إليها .

(٤) آل عمران : ١٨٥ (٥) الرعد : ١٦ ، الزمر : ٦٢ (٦) العصر : ١ - ٢

(٧) العصر : ٣ (٨) البقرة : ٢٧٥ (٩) المائدة : ٣٨

(١٠) البقرة : ١٩٧ (١١) الإسراء : ٢٣ (١٢) التوبة : ٦

(١٣) الأحقاف : ١٧ (١٤) الأحقاف : ١٨

وقوله : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (٢) .

وأسماء الشرط كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (٣) للعموم فى العاقل .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ (٤) للعموم فى غير العاقل .

وقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (٥) للعموم فى المكان .

وقوله : ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٦) للعموم فى الأسماء .

ومنها : اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ (٧) أى كل أمر الله . وقوله : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ (٨) .

* * *

أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام :

الأول : الباقى على عمومه ، وقد قال القاضى جلال الدين البلقينى (٩) :

« ومثاله عزيز ، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص ، وذكر الزركشى فى

---

(١) النساء : ١٦ (٢) الطلاق : ٤ (٣) البقرة : ١٥٨

(٤) البقرة : ١٩٧ (٥) البقرة : ١٥٠ (٦) الإسراء : ١١٠

(٧) النور : ٦٣ (٨) النساء : ١١

(٩) هو عبد الرحمن بن رسلان ، أبو الفضل جلال الدين البلقينى ، كان عالماً بارعًا فى الفقه والتفسير وأصول العربية ، وله تعليق على البخارى سماه : « الإفهام لما فى صحيح البخارى من الإبهام » تولى القضاء فى مصر ، وتوفى سنة ٨٢٤ هجرية ، وانظر « الإتقان » (١٦/٢) .

« البرهان » أنه كثير فى القرآن ، وأورد منه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ (٣) ، فإنه لا خصوص فيها .

الثانى : العام المراد به الخصوص - كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ (٤) ، فالمراد بالناس الأولى نعيم بن مسعود ، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم فى كل منهما ، يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ (٥) فوقعت الإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ إلى واحد بعينه ، ولو كان المعنى به جمعًا لقال : إنما أولئكم الشيطان » وكقوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ ﴾ (٦) والمنادى جبرائيل كما فى قراءة ابن مسعود ، وقوله : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ (٧) والمراد بالناس إبراهيم ، أو سائر العرب غير قريش .

الثالث : العام المخصوص - وأمثلته فى القرآن كثيرة وستأتى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ﴾ (٨) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (٩) .

* * *

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه ، أهمها :

١ - أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر ، لا

---

(١) النساء : ١٧٦ (٢) الكهف : ٤٩ (٣) النساء : ٢٣

(٤) آل عمران : ١٧٣ (٥) آل عمران : ١٧٥ (٦) آل عمران : ٣٩

(٧) البقرة : ١٩٩ (٨) البقرة : ١٨٧ (٩) آل عمران : ٩٧

من جهة تناول اللّفظ ، ولا من جهة الحكم ، بل هو ذو أفراد استعمل فى فرد واحد منها أو أكثر .

أما العام المخصوص فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللّفظ لا من جهة الحكم ، فالناس فى قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ وإن كان عامًا إلا أنه لم يرد به لفظًا وحكمًا سوى فرد واحد ، أما لفظ الناس فى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ (1) فهو عام أريد به ما يتناوله اللّفظ من الأفراد ، وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة .

٢ - والأول مجاز قطعًا ، لنقل اللّفظ عن موضوعه الأصلى واستعماله فى بعض أفراده ، بخلاف الثانى فالأصح فيه أنه حقيقة ، وعليه أكثر الشافعية ، وكثير من الحنفية ، وجميع الحنابلة ، ونقله إمام الحرمين (2) عن جميع الفقهاء ، وقال الشيخ أبو حامد الغزالى : إنه مذهب الشافعى وأصحابه ، وصححه السبكى ، لأن تناول اللّفظ للبعض الباقى بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص ، وذلك التناول حقيقى اتفاقًا ، فليكن هذا التناول حقيقيًا أيضًا .

٣ - وقرينة الأول عقلية غالبًا ولا تنفك عنه ، وقرينة الثانى لفظية وقد تنفك .

* * *

تعريف الخاص وبيان المخصص

والخاص : يقابل العام ، فهو الذى لا يستغرق الصالح له من غير حصر ، والتخصيص : هو إخراج بعض ما تناوله اللّفظ العام ، والمخصص : إما متصل : وهو الذى لم يُفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل ، وإما منفصل : وهو بخلافه ، والمتصل خمسة : أحدها : الاستثناء ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ

---

(1) آل عمران : ٩٧

(2) إمام الحرمين : هو عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى الشافعى العراقى ، وأبو المعالى ، كان شيخ الإمام الغزالى ، ومن أعلم أصحاب الشافعى ، توفى سنة ٤٧٨ هجرية .

الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

الثانى : الصفة ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ الَّاتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِسَاءِكُمُ الاتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ (٣) ، فقوله : ﴿ الَّاتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ صفة لـ « نسائكم » والمعنى : أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرَّمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها .

الثالث : الشرط : كقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) . فقوله : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أى مالاً ، شرط فى الوصية .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (٥) أى قدرة على الأداء ، أو أمانة وكسبًا .

الرابع : الغاية ، كقوله : ﴿ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْىُ مَحِلَّهُ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ (٧) .

الخامس : بدل البعض من الكل : كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ

---

(١) النور : ٤ – ٥ (٢) المائدة : ٣٣ – ٣٤ (٣) النساء : ٢٣
(٤) البقرة : ١٨٠ (٥) النور : ٣٣ (٦) البقرة : ١٩٦
(٧) البقرة : ٢٢٢

البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [1] ، فقوله : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ ﴾ بدل من « الناس » ، فيكون وجوب الحج خاصًا بالمستطيع .

والمخصص المنفصل : ما كان فى موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس ، فما خُصَّ بالقرآن كقوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [2] فهو عام فى كل مطلَّقة حاملاً كانت أو غير حامل ، مدخولاً بها أو غير مدخول بها ، خُصِّ بقوله : ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [3] ، ويقوله : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ [4] .

وما خُصَّ بالحديث كقوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [5] خص من البيع البيوع الفاسدة التى ذُكرت فى الحديث ، كما فى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ عن عسب الفحل » ، وفى الصحيحين عن ابن عمر : « أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع حبل الحبلة » وكان بيعًا تبتاعه الجاهلية ، كان الرجل يبتاع الجُزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التى فى بطنها - واللَّفظ للبخارى ، إلى غير ذلك من الأحاديث .

ورخص من الربا العرايا الثابتة بالسُّنَّة فإنها مباحة ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - : « أن رسول الله ﷺ رخَّصَ فى بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو فى خمسة أوسق » [6] .

وما خُصَّ بالإجماع آية المواريث : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلادِكُمْ ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [7] خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث .

وما خَصَّ بالقياس آية الزنا : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [8] خُصَّ منها العبد بالقياس على الأمة التى نص على

---

(١) آل عمران : ٩٧ (٢) البقرة : ٢٢٨ (٣) الطلاق : ٤
(٤) الأحزاب : ٤٩ (٥) البقرة : ٢٧٥ (٦) متفق عليه .
(٧) النساء : ١١ (٨) النور : ٢

تخصيصها عموم الآية فى قوله تعالى : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (١) .

* * *

تخصيص السُّنَّة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السُّنَّة ، ويمثلون لذلك بما رُوِىَ عن أبى واقد اللِّيثى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « ما قُطِعَ من البَهيمة وهى حية فهو ميت » (٢) فهذا الحديث خُصَّ بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ (٣) .

* * *

صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى

اختلف العلماء فى صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى ، والمختار عند المحققين صحة الاحتجاج به فيما وراء صور التخصيص (٤) ، واستدلوا على ذلك بأدلة إجماعية ، وأدلة عقلية .

(أ) **فمن أدلة الإجماع** : أن فاطمة رضى الله عنها احتجت على أبى بكر رضى الله عنه فى ميراثها من أبيها بعموم قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ (٥) ، مع أنه مخصص بالكافر والقاتل ، ولم ينكر أحد من الصحابة صحة احتجاجها مع ظهوره وشهرته ، فكان إجماعًا على صحة احتجاجها ، ولذا عدل أبو بكر رضى الله عنه فى حرمانها إلى الاحتجاج بقوله ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث. . . ما تركناه صدقة » (٦) .

---

(١) النساء : ٢٥ (٢) أخرجه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه واللَّفظ له .

(٣) النحل : ٨٠

(٤) أنكر الاحتجاج به عيسى بن أبان وأبو ثور مطلقًا ، وقال البلخى : إن خُصَّ بدليل متصل كالشرط والصفة والاستثناء فهو حجة ، وإن خُصَّ بدليل منفصل فليس بحجة - انظر الآمدى (٢/ ٢١٣) .

(٥) النساء : ١١ (٦) الحديث فى « الصحيحين » وغيرهما .

(ب) **ومن الأدلة العقلية** : أن العام قبل التخصيص حُجة فى كل واحد من أقسامه إجماعًا ، والأصل بقاء ما كان قبل التخصيص بعده ، إلا أن يوجد له معارِض ، وليس هناك معارض فيما وراء صور التخصيص ، فيظل العام بعد التخصيص حُجة فيما بقى .

* * *

ما يشمله الخطاب

اختلف فى الخطاب الخاص بالرسول ﷺ كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الكُفْرِ ﴾ (٢) ، هل يشمل الأمة أم لا يشملها ؟

(أ) فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها .

(ب) وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها .

واختلفوا أيضًا فى الخطاب من الله تعالى بـ « يَا أَيُّهَا النَّاس » كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (٣) هل يشمل الرسول أم لا ؟ والصحيح فى ذلك أنه يشمله لعمومه وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليُبَلِّغ غيره .

وقد فصَّل بعضهم فقال : إن اقترن الخطاب بـ « قل » لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٤) إلا شمله .

وما ورد فى الخطاب مضافًا إلى الناس أو المؤمنين كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ﴾ (٥) ، وقوله :

---

(١) الأحزاب : ١ — (٢) المائدة : ٤١ — (٣) النساء : ١

(٤) الأعراف : ١٥٨ — (٥) الحجرات : ١٣

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (١) .

فالمختار فى الأول : أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى .

والمختار فى الثانى : أنه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع ، وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده .

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير ، وأكثر خطاب الله تعالى فى القرآن بلفظ التذكير ، والنساء يدخلن فى جملته ، وقد يأتى ذكرهن بلفظ مفرد تبيينًا وإيضاحاً ، وهذا لا يمنع دخولهن فى اللَّفظ العام الصالح لهن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) المائدة : ٩٠

(٢) النساء : ١٢٤

- ١٤ -
الناسخ والمنسوخ (١)

تنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس فى العقيدة والعبادة والمعاملة ، وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية فقد اتفقت دعوة الرسل جميعًا إليها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ إلا نُوحِيَ إِلَيْه أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) . أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق فى الأسس العامة التى تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء ، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها ، وما يلائم قومًا فى عصر قد لا يلائمهم فى آخر ، ومسلك الدعوة فى طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء ، فحكمة التشريع فى هذه غيرها فى تلك ، ولا شك أن المشرِّع سبحانه وتعالى يسع كل شىء رحمة وعلماً ، ولله الأمر والنهى ﴿ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (٣)، فلا غرابة فى أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر .

* * *

تعريف النسخ وشروطه

والنسخ لغة : يُطلق بمعنى الإزالة ، ومنه يقال : نسخت الشمس الظل : أى أزالته ، ونسخت الريح أثر المشى - ويُطلق بمعنى نقل الشىء من موضع إلى موضع ،

---

(١) أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون : منهم أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو داود السجستانى ، وأبو جعفر النحاس ، وابن الأنبارى ، ومكى ، وابن العربى ، وآخرون ، انظر « الإتقان » (٢/ ٢٠) ، ومن المعاصرين : الدكتور مصطفى زيد « النسخ فى القرآن » .

(٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) الأنبياء : ٢٣

ومنه نسختُ الكتاب : إذا نقلت ما فيه ، وفى القرآن : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف .

والنسخ فى الاصطلاح : رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى - فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية ، وخرج بقولنا : « بخطاب شرعى » رفع الحكم بموت أوجنون أو إجماع أو قياس .

ويُطلق الناسخ على الله تعالى كقوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ (٢) ، وعلى الآية وما يُعرف به النسخ ، فيقال : هذه الآية ناسخة لآية كذا ، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر .

والمنسوخ هو الحكم المرتفع ، فآية المواريث مثلاً ، أوما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين كما سيأتى ، ومقتضى ما سبق أنه يُشترط فى النسخ:

١ - أن يكون الحكم المنسوخ شرعيًا .

٢ - أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطاباً شرعيًا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه .

٣ - وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين . وإلا فالحكم ينتهى بانتهاء وقته ولا يُعَد هذا نسخًا ، قال : « مكى » (٣) :

« ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعرًا بالتوقيت والغاية مثل قوله فى سورة البقرة: ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٣) مُحْكَم غير منسوخ ، لأنه مؤجل بأجل ، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه .

* * *

(١) الجاثية : ٢٩ (٢) البقرة : ١٠٦

(٣) هو مكى بن أبى طالب حموش بن محمد بن مختار القيسى المقرئ يكنى أبا محمد ، وأصله من القيروان ، كثير التأليف فى علوم القرآن والعربية ، له كتاب فى « الناسخ والمنسوخ» سكن قرطبة ، ورحل إلى مصر مرتين ، توفى سنة ٤٣٧ هجرية .

(٤) البقرة : ١٠٩

ما يقع فيه النسخ

ومن هنا يُعلم أن النسخ لا يكون إلا فى الأوامر والنواهى - سواء أكانت صريحة فى الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذى بمعنى الأمر أو النهى ، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التى ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو الآداب الخُلُقية ، أو أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول ، وهى متفقة فيها ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ (٣) .

وقال فى القصاص : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (٤) .

وقال فى الجهاد : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (٥) .

وفى الأخلاق : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (٦) .

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذى ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد .

* * *

ما به يُعرف النسخ وأهميته

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام ، ولذلك وردت آثار كثيرة فى الحث على معرفته ، فقد رُوِىَ أن عليا رضى الله عنه مرَّ على قاضٍ فقال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) البقرة : ١٨٣ (٣) الحج : ٢٧

(٤) المائدة : ٤٥ (٥) آل عمران : ١٤٦ (٦) لقمان : ١٨

قال : لا ، فقال : هلكتَ وأهلكت ، وعن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

قال : « ناسخه ومنسوخه ومُحْكَمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ، وحرامه وحلاله»(٢) .

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق :

١ - النقل الصريح عن النبى ﷺ أو عن صحابى كحديث : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » (رواه الحاكم) . وقول أنس فى قصة أصحاب بئر معونة كما سيأتى : « ونزل فيهم قرآن قرآناه حتى رُفِعَ » (٣) .

٢ - إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ .

٣ - معرفة المتقدم من المتأخر فى التاريخ .

ولا يُعتمد فى النسخ على الاجتهاد ، أو قول المفسرين ، أو التعارض بين الأدلة ظاهرًا ، أو تأخر إسلام أحد الراويين .

* * *

الآراء فى النسخ وأدلة ثبوته

والناس فى النسخ على أربعة أقسام :

١ - اليهود : وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم فى زعمهم البَدَاء ، وهو الظهور بعد الخفاء ، وهم يعنون بذلك : أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة ، وهذا عبث محال على الله ، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل ، وهذا يستلزم البَدَاء وسبق الجهل ، وهو محال على الله تعالى .

---

(١) البقرة : ٢٦٩

(٢) أخرجه ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس .

(٣) هم بعث من أصحاب رسول الله بعثهم إلى أهل نجد ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكوان - وأحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قُتِلُوا عن آخرهم .

واستدلالهم هذا فاسد ، لأن كُلاً من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالى من قبل ، فلم يتجدد علمه بها ، وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق فى ملكه .

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها ، وجاء فى نصوص التوراة النسخ ، كتحريم كثير من الحيوان على بنى إسرائيل بعد حلِّه ، قال تعالى فى إخباره عنهم : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ (٢) . . . الآية .

وثبت فى التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت ، وقد حرَّم الله ذلك على موسى ، وأن موسى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم .

٢ - الروافض : وهؤلاء غلوا فى إثبات النسخ وتوسَّعوا فيه ، وأجازوا البَدَاء على الله تعالى ، فهم مع اليهود على طرفى نقيض ، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علىّ رضى الله عنه زورًا وبهتانًا ، وبقوله تعالى : ﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ (٣) على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات .

وذلك إغراق فى الضلال ، وتحريف للقرآن ، فإن معنى الآية : ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته ، وكل من المحو والإثبات موجود فى كثير من الحالات ، كمحو السيئات بالحسنات : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٤) ، ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم ، ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء ، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه .

٣ - أبو مسلم الأصفهانى (٥) : وهو يجوِّز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعًا ،

---

(١) آل عمران : ٩٣ (٢) الأنعام : ١٤٦
(٣) الرعد : ٣٩ (٤) هود : ١١٤
(٥) هو محمد بن بحر ، المشهور بأبى مسلم الأصفهانى ، معتزلى ، من كبار المفسرين ، أهم كتبه : « جامع التأويل فى التفسير » ، توفى سنة ٣٢٢ هجرية .

وقيل يمنعه فى القرآن خاصة محتجًا بقوله تعالى : ﴿ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) على معنى أن أحكامه لا تبطل أبدًا ، ويحمل آيات النسخ على التخصيص .

ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتى بعده ما يبطله .

٤ - وجمهور العلماء : على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعًا لأدلة :

١ - لأن أفعال الله لا تُعَلَّل بالأغراض ، فله أن يأمر بالشىء فى وقت وينسخه بالنهى عنه فى وقت ، وهو أعلم بمصالح العباد .

٢ - ولأن نصوص الكتاب والسُّنَّة دالة على جواز النسخ ووقوعه :

(أ) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٣) .

(ب) وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال عمر رضى الله عنه : أقرؤنا أُبَىّ ، وأقضانا ، وإنا لندع من قول أُبَىّ ، وذاك أن أُبيا يقول : لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ .

* * *

أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام :

القسم الأول : نسخ القرآن بالقرآن : وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ ، فآية الاعتداد بالحول مثلاً نُسِخَت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرًا ، كما سيأتى فى الأمثلة .

القسم الثانى : نسخ القرآن بالسُّنَّة ، وتحت هذا نوعان :

---

(١) فصلت : ٤٢ (٢) النحل : ١٠١ (٣) البقرة : ١٠٦

(أ) نسخ القرآن بالسُّنّة الآحادية ، والجمهور على عدم جوازه ، لأن القرآن متواتر يفيد اليقين ، والآحادى مظنون ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون .

(ب) ونسخ القرآن بالسُّنَّة المتواترة ، وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد فى رواية ، لأن الكل وحى . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٢) والنسخ نوع من البيان - ومنعه الشافعى وأهل الظاهر وأحمد فى الرواية الأخرى ، لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٣) والسُّنَّة ليست خيرًا من القرآن ولا مثله .

القسم الثالث : نسخ السُّنَّة بالقرآن ، ويجيزه الجمهور ، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتًا بالسُّنَّة ، وليس فى القرآن ما يدل عليه ، وقد نُسخ بالقرآن فى قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٤) ، ووجوب صوم يوم عاشوراء كان ثابتًا بالسُّنَّة ونُسِخَ بقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (٥) . ومنع هذا القسم الشافعى فى إحدى روايتيه ، وقال : « وحيث وقع بالسُّنَّة فمعها قرآن ، أو بالقرآن فمعه سنَّة عاضدة تُبيِّن توافق الكتاب والسُّنَّة » (٦) .

القسم الرابع : نسخ السُّنَّة بالسُّنَّة ، وتحت هذا أربعة أنواع :

١ - نسخ متواترة بمتواترة .
٢ - ونسخ آحاد بآحاد .
٣ - ونسخ آحاد بمتواترة .
٤ - ونسخ متواترة بآحاد .

---

(١) النجم : ٣ - ٤
(٢) النحل : ٤٤
(٣) البقرة : ١٠٦
(٤) البقرة : ١٤٤

(٥) أخرجه البخارى ومسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء فلما فُرِضَ رمضان كان مَن شاء صام ومَن شاء أفطر » - (والآية من سورة البقرة : ١٨٥) .

(٦) انظر : « الإتقان » (٢/ ٢١) .

والثلاثة الأولى جائزة - أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد فى نسخ القرآن بالسنة الآحادية ، والجمهور على عدم جوازه .

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه .

* * *

أنواع النسخ فى القرآن

والنسخ فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : نسخ التلاوة والحكم معًا ، ومثاله : ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت : « كان فيما أُنْزِلَ : عشر رضعات معلومات يُحَرِّمن ، فنسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يُقرأ من القرآن » وقولها : « وهن مما يُقرأ من القرآن » ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك ، فإنه غير موجود فى المصحف العثمانى ، وأجيب بأن المراد : قارَبَ الوفاة (١) .

والأظهر أن التلاوة نُسِخَت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ، فتوفى وبعض الناس يقرؤها .

وحكى القاضى أبو بكر فى « الانتصار » عن قوم إنكار هذا القسم لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها تفيد القطع ، ولكنها ظنية .

ويُجاب على ذلك بأن ثبوت النسخ شيء ، وثبوت نزول القرآن شيء آخر ، فثبوت النسخ يكفى فيه الدليل الظنى بخبر الآحاد ، أما ثبوت نزول القرآن فهو الذى يُشترط فيه الدليل القطعى بالخبر المتواتر ، والذى معنا ثبوت النسخ لا ثبوت القرآن فيكفى فيه أخبار الآحاد ، ولو قيل إن هذه القراءة لم تثبت بالتواتر لصح ذلك .

النوع الثانى : نسخ الحكم وبقاء التلاوة ، ومثاله : نسخ حكم آية العِدَّة بالحول مع بقاء تلاوتها - وهذا النوع هو الذى أُلِّفت فيه الكتب وذكر المؤلفين

---

(١) رواه البخارى تعليقًا عن عمر .

فيه الآيات المتعددة ، والتحقيق أنها قليلة ، كما بيَّن ذلك القاضى أبو بكر بن العربى[1] .

وقد يقال : ما الحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟

والجواب من وجهين :

أحدهما : أن القرآن كما يُتلى ليُعرف الحكم منه ، والعمل به ، فإنه يُتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى فيُثاب عليه ، فتُركَت التلاوة لهذه الحكمة .

وثانيهما : أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف ، فأبقيت التلاوة تذكيرًا بالنعمة فى رفع المشقة .

وأما حكمة النسخ قبل العمل ، كالصدقة عند النجوى ، فيُثاب على الإيمان به ، وعلى نية طاعة الأمر .

النوع الثالث : نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، وقد ذكروا له أمثلة كثيرة ، منها آية الرجم : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم » ومنها ما رُوِى فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قُتلوا وقَنَتَ الرسول يدعو على قاتليهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفِعَ : « أن بَلِّغوا عنا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نُسِخَت تلاوته - وبعض أهل العلم يُنكر هذا النوع من النسخ ، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد ، قال ابن الحصَّار : « إنما يُرجع فى النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ ، أو عن صحابى يقول : آية كذا نسخت كذا ، قال : وقد يُحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليُعرف المتقدم والمتأخر ، قال : ولا يُعتمد فى النسخ على قول عوام المفسرين ، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صريح ، ولا معارضة بيِّنة ، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرَّر فى عهده ﷺ ، والمعتمَد فيه النقل والتاريخ دون الرأى والاجتهاد ، قال : والناس في هذا بين طرفى نقيض ، فمن قائل : لا يُقبل فى

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافرى ، أحد فقهاء أشبيلية وعلمائها ، رحل إلى المشرق ، ثم عاد إلى المغرب ، وتوفى سنة ٥٤٤ هجرية .

النسخ أخبار الآحاد العدول ، ومن متساهل يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد ، والصواب خلاف قولهما » (١) .

وقد يقال : إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان ، لأن الآية دليل على الحكم ، فإذا نُسِخَت الآية نُسِخَ حكمها ، وإلا وقع الناس فى لَبْس .

ويُجاب عن ذلك بأن هذا التلازم يسلم لو لم ينصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة ، وعلى إبقاء الحكم ، أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها ، وعلى إبقاء الحكم واستمراره فإن التلازم يكون باطلاً ، وينتفى اللَّبْس بهذا الدليل الشرعى الذى يدل على نسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

❊ ❊ ❊

حكمة النسخ

١ - مراعاة مصالح العباد .

٢ - تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس .

٣ - ابتلاء المكلَّف واختباره بالامتثال وعدمه .

٤ - إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب ، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويُسر .

❊ ❊ ❊

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل - والنسخ إلى بدل : إما إلى بدل أخف ، وإما إلى بدل مماثل ، وإما إلى بدل أثقل :

١- فالنسخ إلى غير بدل : كنسخ الصدقة بين يدى نجوى رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ (٢) ، نُسِخَت بقوله ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ

---

(١) انظر : « الإتقان » (١/ ٢٤) .

(٢) المجادلة : ١٢

نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ (١) .

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك ، وقالوا : إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعًا ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٢) حيث أفادت الآية أنه لا بد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه مثله .

ويُجاب عن ذلك : بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته ، رعاية لمصلحة عباده ، فيكون عدم الحكم خيرًا من ذلك الحكم المنسوخ فى نفعه للناس ، ويصح حينئذ أن يُقال : إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيرًا للناس .

٢ - والنسخ إلى بدل أخف ، يمثلون له بقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (٣) . . . الآية - فهى ناسخة لقوله : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (٤) ، لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء ، إذا صلُّوا العتمة أو ناموا إلى اللَّيلة التالية ، كما ذكروا ذلك ، فقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : أُنزلت : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ، وروى مثله أحمد والحاكم ، وغيرهما ، وفيه : « فأنزل الله عز وجل : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ . . . الآية » .

٣ - النسخ إلى بدل مماثل : كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة فى قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٥) .

٤ - والنسخ إلى بدل أثقل : كنسخ الحبس فى البيوت فى قوله : ﴿ وَالاَّتِى

---

(١) المجادلة : ١٣ — (٢) البقرة : ١٠٦ — (٣) البقرة : ١٨٧

(٤) البقرة : ١٨٣ — (٥) البقرة : ١٤٤

يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ ، فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ ﴾ (١) ... الآية ، بالجلد فى قوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى ﴾ (٢) ... الآية .

أو الرجم فى قوله : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » .. (٣) .

* * *

شُبَه النسخ

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة ، إلا أن العلماء فى هذا :

١ - منهم المكثر الذى اشتبه عليه الأمر فأدخل فى النسخ ما ليس منه .

٢ - ومنهم المتحرى الذى يعتمد على النقل الصحيح فى النسخ .

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها :

١ - اعتبار التخصيص نسخًا (انظر مبحث العام والخاص) .

٢ - اعتبار البيان نسخًا (انظر مبحث المطلق والمقيد الآتى) .

٣ - اعتبار ما شُرِعَ لسبب ثم زال السبب من المنسوخ ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار فى مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة ، قالوا : إنه منسوخ بآيات القتال ، والحقيقة أن الأول - وهو وجوب الصبر والتحمل - كان ويكون لحالة الضعف والقلة ، وإذا وُجِدَت الكثرة والقوة وجب الدفاع عن العقيدة بالقتال ، وهو الحكم الثانى .

٤ - اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخًا ، كتحديد عدد الزوجات بأربع ، ومشروعية القصاص والديَّة ، وقد كان عند

---

(١) النساء : ١٥ (٢) النور : ٢

(٣) اعترض بعض العلماء على هذا النوع محتجين بقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) ، وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ (النساء : ٢٨) ، ويُجاب عن ذلك بأن البدل إلى أثقل يكون ميسرًا على المكلَّفين دون مشقة أو إرهاق مع ما فيه من زيادة النفع وعظيم الثواب ، وثقله وصف له بالنسبة إلى ما قبله .

بنى إسرائيل القِصَاصَ فقط كما قال ابن عباس ورواه البخارى [1] ، ومثل هذا ليس نسخًا ، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية .

* * *

أمثلة للنسخ

وقد ذكر السيوطى فى الإتقان إحدى وعشرين آية اعتبرها من قبيل النسخ نذكر منها ما يأتى ونُعَلِّق عليه :

١ - قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [2] منسوخة بقوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [3] وقد قيل - وهو الحق - إن الأولى غير منسوخة لأنها فى صلاة التطوع فى السفر على الراحلة ، وكذا فى حالة الخوف والاضطرار ، وحكمها باق ، كما فى الصحيحين ، والثانية فى الصلوات الخمس ، والصحيح أنها ناسخة لما ثبت فى السُّنَّة من استقبال بيت المقدس .

٢ - قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [4] قيل منسوخة بآية المواريث ، وقيل بحديث : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث » [5] .

٣ - قوله : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾ [6] نُسِخَتْ بقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [7] لما فى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه

---

(١) أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن الدية فيهم ، فقال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِى القَتْلَى ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فالعفو أن تُقبل الدية فى العمد ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ مما كُتِبَ على مَن كان قبلكم ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قيل بعد قبول الدية ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٧٨) .

(٢) البقرة : ١١٥ (٣) البقرة : ١٤٤ (٤) البقرة : ١٨٠

(٥) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حسن صحيح . (٦) البقرة : ١٨٤

(٧) البقرة : ١٨٥

قال : لما نزلت : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كان من أراد أن يُفطر يفتدى ، حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها .

وذهب ابن عباس إلى أنها مُحْكَمة غير منسوخة : روى البخارى عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقرأ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ قال ابن عباس : « ليست بمنسوخة ، هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يَستطيعَان أن يصوما فيُطعمان كل يوم مسكينًا » - وليس معنى « يطيقونه » على هذا : يستطيعونه ، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة .

وبعضهم جعل الكلام على تقدير « لا » النافية ، أى : وعلى الذين لا يطيقونه .

٤ - قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (١) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ (٢) وقيل : يُحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحُرُم فلا نسخ .

٥ - قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ (٣) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (٤) .

وقيل إن الآية الأولى مُحْكَمة لأنها فى مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج ، أما الثانية فهى لبيان العدَّة ، ولا تنافى بينهما .

٦ - قوله : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ ﴾ (٥) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا ﴾ (٦) .

٧ - قوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُوْلُواْ القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِنْهُ ﴾ (٧) نُسِخَتْ بآية المواريث وقيل - وهو الصواب - إنها غير منسوخة ، وحكمها باق على الندب .

---

(١) البقرة : ٢١٧ — (٢) التوبة : ٣٦ — (٣) البقرة : ٢٤٠
(٤) البقرة : ٢٣٤ — (٥) البقرة : ٢٨٤ — (٦) البقرة : ٢٨٦
(٧) النساء : ٨

٨ - قوله : ﴿ وَالَّاتى يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ من نِّسَائكُمْ فاستَشْهدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُواْ فَأَمْسكُوهُنَّ فِى البُيُوت حَتَّى يَتوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً * وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا ﴾ (١) ، نُسِختَا بآية الجلد للبكرِ فى سورة النور : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٢) وبالجلد للبكرِ وبالرجم للثَّيِّب الوارد فى السُّنَّة : « . . . البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثَّيِّب بالثَّيِّب جلد مائة والرجم » (٣) .

٩ - قوله : ﴿ إِنْ يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ﴾ (٤) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ﴾ (٥) .

١٠ - قوله : ﴿ انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ (٦) ، نُسِخَت بقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى المَرْضَى ﴾ (٧) . . . الآية ، وبقوله : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ (٨) . .الآية .

وقيل إنه من باب التخصيص لا النسخ ، وقد مر ذكر أمثلة أخرى .

* * *

---

(١) النساء : ١٥ - ١٦ (٢) النور : ٢
(٣) رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت . (٤) الأنفال : ٦٥
(٥) الأنفال : ٦٦ (٦) التوبة : ٤١ (٧) التوبة : ٩١
(٨) التوبة : ١٢٢

- ١٥ -

المطلق والمقيد (١)

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقاً فى فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط ، ويرد تارة أخرى متناولاً له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط ، وإطلاق اللَّفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربى ، وهو ما يُعرف فى كتاب الله المعجز بـ « مطلق القرآن ومقيده » .

* * *

تعريف المطلق والمقيد

والمطلق : هو ما دل على الحقيقة بلا قيد ، فهو يتناول واحداً لا بعينه من الحقيقة ، وأكثر مواضعه النكرة فى الإثبات كلفظ « رقبة » فى مثل : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فإنه يتناول عتق إنسان مملوك - وهو شائع فى جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء - وهو نكرة فى الإثبات ، لأن المعنى : فعليه تحرير رقبة ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح إلا بولى » (رواه أحمد والأربعة) ، وهو مطلق فى جنس الأولياء سواء أكان رشيداً أو غير رشيد ، ولهذا عرَّفه بعض الأصوليين بأنه عبارة عن النكرة فى سياق الإثبات ، فقولنا : « نكرة » احتراز عن النكرة فى سياق النفى فإنها تعم جميع ما هو من جنسها .

والمقيَّد : هو ما دل على الحقيقة بقيد ، كالرقبة المقيَّدة بالإيمان فى قوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ (٢) .

● أقسام المطلق والمقيَّد وحكم كل منها :

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلى :

١ - أنْ يتحد السبب والحكم : كالصيام فى كفارة اليمين : جاء مطلقاً فى

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ٣١)

(٢) النساء : ٩٢

القراءة المتواترة بالمصحف : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ (١) ، ومقيداً بالتتابع فى قراءة ابن مسعود : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » - فمثل هذا يُحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا يوجب المتنافيين - ولهذا قال قوم بالتتابع (٢) ، وخالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة - وإن كانت مشهورة - ليست حُجة ، فليس هنا مقيَّد حتى يُحمل عليه المطلق .

٢ - أن يتحد السبب ويختلف الحكم : كالأيدى فى الوضوء والتيمم ، قيِّد غسل الأيدى فى الوضوء بأنه إلى المرافق ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ (٣) ، وأطلق المسح فى التيمم قال تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ (٤) فقيل : لا يُحمل المطلق على المقيَّد لاختلاف الحكم ، ونقل الغزالى عن أكثر الشافعية حمل المطلق على المقيَّد هنا لاتحاد السبب وإن اختلف الحكم .

٣ - أن يختلف السبب ويتحد الحكم ، وفى هذا صورتان :

(أ) الأولى : أن يكون التقييد واحدًا ، كعتق الرقبة فى الكفارة ، ورد اشتراط الإيمان فى الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة فى كفارة القتل الخطأ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (٥) ، وأطلقت فى كفارة الظهار ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ (٦) وفى كفارة اليمين ، قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (٧) فقال جماعة منهم المالكية وكثير من الشافعية : يُحمل المطلق على المقيَّد من غير دليل ، فلا تُجزىء الرقبة الكافرة فى كفارة الظِّهار

(١) المائدة : ٨٩
(٢) وبه قال أبو حنيفة والثورى ، وهو أحد قولى الشافعى .
(٣) المائدة : ٦
(٤) المائدة : ٦
(٥) النساء : ٩٢
(٦) المجادلة : ٣
(٧) المائدة : ٨٩

واليمين ، وقال آخرون - وهو مذهب الأحناف - لا يُحمل المطلق على المقيَّد إلا بدليل ، فيجوز إعتاق الكافرة فى كفارة الظِّهَار واليمين .

وحُجَّة أصحاب الرأى الأول أن كلام الله تعالى متحد فى ذاته ، لا تعدد فيه فإذا نص على اشتراط الإيمان فى كفارة القتل ، كان ذلك تنصيصًا على اشتراطه فى كفارة الظِّهَار ، ولهذا حُملَ قوله تعالى : ﴿ وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ على قوله فى أول الآية : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا ﴾ [1] من غير دليل خارج ، أى : والذاكرات الله كثيرًا ، والعرب من مذهبها استحباب الإطلاق اكتفاء بالقيد وطلبًا للإيجاز والاختصار ، وقد قال تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [2] والمراد : « عن اليمين قعيد » ، ولكن حُذِفَ لدلالة الثانى عليه [3] .

وأما حُجة أصحاب أبى حنيفة فإنهم قالوا : إن حمل ﴿ وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ على : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا ﴾ جاء بدليل ، ودليله أن قوله : ﴿ وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا ﴾ ولا استقلال له بنفسه ، فوجب رده إلى ما هو معطوف عليه ومشارك له فى حكمه ، ومثله العطف فى قوله تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ وإذا امتنع التقيد من غير دليل ، فلا بد من دليل ، ولا نص من كتاب أو سُنَّة يدل على ذلك ، والقياس يلزم منه رفع ما اقتضاه المطلق من الخروج عن العهدة بأى شىء كان ، مما هو داخل تحت اللَّفظ المطلق ، فيكون نسخًا ، ونسخ النص لا يكون بالقياس .

ويُجاب عن ذلك من أصحاب الرأى الأول بأننا لا نُسَلِّم أنه يلزم من قياس المطلق على المقيَّد نسخ النص المطلق ، بل تقييده ببعض مسمياته ، فتُقَيِّد « الرقبة » بأن تكون مؤمنة ، فيكون الإيمان شرطًا فى الخروج عن العهدة .

كما أنكم تشترطون فيها صفة السلامة ولم يدل على ذلك نص من كتاب أو سُنَّة .

---

(١) الأحزاب : ٣٥ (٢) سورة ق : ١٧

(٣) انظر : « الأحكام » للآمدى (٣/ ٥) ، و« البرهان » للزركشى (٢/ ١٦) .

(ب) الثانية : أن يكون التقييد مختلفًا ، كالكفارة بالصوم ، قيِّد الصوم بالتتابع فى كفارة القتل ، قال تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١) ، وفى كفارة الظِّهَار ، قال تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ﴾ (٢) ، وجاء تقييده بالتفريق فى صوم المتمتع بالحج ، قال تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِى الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ (٣) ، ثم جاء الصوم مطلقًا دون تقييد بالتتابع أو التفريق فى كفارة اليمين قال تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ (٤) ، وفى قضاء رمضان قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (٥) فالمطلق فى هذا لا يُحمل على المَقيَّد ، لأن القيد مختلف ، فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح .

٤ - أن يختلف السبب ويختلف الحكم : - كاليد فى الوضوء ، والسرقة ، قُيدت فى الوضوء إلى المرافق ، وأطلقت فى السرقة ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٦) فلا يُحمل المطلق على المقيَّد للاختلاف سببًا وحكمًا ، وليس فى هذا شىء من التعارض .

قال صاحب البرهان (٧) : « إن وُجِدَ دليل على تقييد المطلق صير إليه ، وإلا فلا والمطلق على إطلاقه ، والمقيد على تقييده ، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب ، والضابط أن الله تعالى إذا حكم فى شىء بصفة أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقًا نُظِر ، فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيَّد وجب تقييده ، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر .

* * *

(١) النساء : ٩٢
(٢) المجادلة : ٤
(٣) البقرة : ١٩٦
(٤) المائدة : ٨٩
(٥) البقرة : ١٨٤
(٦) المائدة : ٣٨
(٧) الجزء الثانى (ص١٥) .

- ١٦ -

المنطوق والمفهوم [١]

دلالة الألفاظ على المعانى قد يكون مأخذها من منطوق الكلام الملفوظ به نصًا أو احتمالاً بتقدير أو غير تقدير ، وقد يكون مأخذها من مفهوم الكلام سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه - وهذا هو ما يسمى : بالمنطوق والمفهوم .

تعريف المنطوق وأقسامه

المنطوق : هو ما دل عليه اللَّفظ فى محل النطق - أى أن دلالته تكون من مادة الحروف التى يُنطق بها .

ومنه : النص ، والظاهر ، والمؤوَّل .

فالنص : هو ما يفيد بنفسه معنى صريحًا لا يحتمل غيره ، كقوله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِى الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [٢] فإن وصف عشرة بـ « كاملة » قطع احتمال العشرة لما دونها مجازًا ، وهذا هو الغرض من النص - وقد نُقِلَ عن قوم أنهم قالوا بندرة النص جدًا فى الكتاب والسُّنَّة ، وبالغ إمام الحرمين فى الرد عليهم فقال : « لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على القطع مع انحسام جهات التأويل والاحتمال ، وهذا وإن عز حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللُّغة ، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية » .

والظاهر : هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحًا ، فهو يشترك مع النص فى أن دلالته فى محل النطق ، ويختلف عنه فى أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره ، والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحًا كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [٣] فإن الباغى

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ٣١) . (٢) البقرة : ١٩٦

(٣) البقرة : ١٧٣

يُطلق على الجاهل ، ويُطلق على الظالم ، ولكن إطلاقه على الظالم ، أظهر وأغلب فهو إطلاق راجح ، والأول مرجوح ، وكقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ (١) فانقطاع الحيض يُقال فيه طُهر ، والوضوء والغُسل يُقال فيهما طهر ، ودلالة الطُهر على الثانى أظهر ، فهى دلالة راجحة ، والأولى مرجوحة .

والمؤوَّل : هو ما حُمِلَ لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح ، فهو يخالف الظاهر فى أن الظاهر يُحمَل على المعنى الراجح حيث لا دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح ، أما المؤوَّل فإنه يُحمَل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح ، وإن كان كل منهما يدل عليه اللَّفظ فى محل النطق ، كقوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (٢) فإنه محمول على الخضوع والتواضع وحسن معاملة الوالدين ، لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة .

* * *

دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة

قد تتوقَّف صحة دلالة اللَّفظ على إضمار ، وتسمى بدلالة الاقتضاء ، وقد لا تتوقف على إضمار ويدل اللَّفظ على ما لم يُقصد به قصدًا أوليا ، وتسمى : دلالة الإشارة .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (٣) أى : فأفطر فعِدَّة ، لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر فى سفر ، أما إذا صام فى سفره فلا موجب للقضاء خلافًا للظاهرية ، وكقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ (٤) فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه ، أى وطء أمهاتكم ، لأن التحريم لا يُضاف إلى الأعيان ، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء ، وهذا النوع يقرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه

---

(١) البقرة : ٢٢٢   (٢) الإسراء : ٢٤

(٣) البقرة : ١٨٤   (٤) النساء : ٢٣

مقامه ، وهو من باب إيجاز القصر فى البلاغة - وسمى « اقتضاءً » لاقتضاء الكلام شيئاً زائدًا على اللّفظ .

والثانى : وهو دلالة الإشارة - كقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ، فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ﴾ (١) ، فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جُنُبًا - لأنه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغُسل ، وهذا يستلزم الإصباح على جنابة ، وإباحة سبب الشىء إباحة للشىء نفسه ، فإباحة الجماع إلى آخر جزء من اللّيل لا يتسع معه الغُسل قبل الفجر إباحة للإصباح على جنابة .

وهاتان الدلالتان - الاقتضاء والإشارة - أُخذَا من المنطوق أيضاً ، فهما من أقسام المنطوق ، فالمنطوق على هذا يشمل : ١ - النص ، ٢ - والظاهر ، ٣ - والمؤوَّل ، ٤ - والاقتضاء ، ٥ - والإشارة .

* * *

تعريف المفهوم وأقسامه

المفهوم : هو ما دل عليه اللّفظ لا فى محل النطق - وهو قسمان :

١ - مفهوم موافقة . ٢ - مفهوم مخالفة .

١ - فمفهوم الموافقة : هو ما يوافق حكمه المنطوق - وهو نوعان :

(أ) النوع الأول ، فحوى الخطاب : وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق ، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ (٢) ، لأن منطوق الآية تحريم التأفيف ، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى لأنهما أشد .

---

(١) البقرة : ١٨٧ . (٢) الإسراء : ٢٣

(ب) **النوع الثانى ، لحن الخطاب** : وهو ما ثبت الحكم فيه للمفهوم كثبوته للمنطوق على السواء - كدلالة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (١) على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأى نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل فى الإتلاف .

وتسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن المسكوت عنه يوافق المنطوق به فى الحكم وإن زاد عليه فى النوع الأول ، وساواه فى الثانى والدلالة فيه من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى ، أو بالأعلى على الأدنى ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ (٢) ، فالجملة الأولى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ من التنبيه على أنه يؤدى إليك الدينار ، وما تحته ، والجملة الثانية : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ من التنبيه على أنك لا تأمنه بقنطار .

٢ - **مفهوم المخالفة** : هو ما يخالف حكمه المنطوق - وهو أنواع :

(أ) **مفهوم صفة** : والمراد بها الصفة المعنوية ، كالمشتق ، فى قوله تعالى : ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٣) فمفهوم التعبير بـ « فاسق » أن غير الفاسق لا يجب التثبت فى خبره ، ومعنى هذا أنه يجب قبول خبر الواحد العدل ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ (٤) فهو يدل على انتفاء الحكم فى المخطئ ، لأن تخصيص العمد بوجوب الجزاء به يدل على نفى وجوب الجزاء فى قتل الصيد خطأ ، وكالعدد فى قوله : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾(٥) ، مفهومه أن الإحرام بالحج فى غير أشهره لا يصح ، وقوله : ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (٦) مفهومه ألا يُجلد أقل أو أكثر .

---

(١) النساء : ١٠ (٢) آل عمران : ٧٥ (٣) الحجرات : ٦
(٤) المائدة : ٩٥ (٥) البقرة : ١٩٧ (٦) النور : ٤

(ب) **مفهوم شرط** : كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ (١) فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن .

(جـ) **مفهوم غاية** : كقوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ (٢) فمفهوم هذا أنها تحل للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح .

(د) **مفهوم حصر** : كقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣) مفهومه أن غيره سبحانه لا يُعبد ولا يُستعان به ، ولذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة والاستعانة .

* * *

الاختلاف في الاحتجاج به

اختُلِفَ في الاحتجاج بهذه المفاهيم ، والأصح في ذلك أنها حُجة بشروط ، منها :

(أ) ألا يكون المذكور خرج مخرج الغالب - فلا مفهوم للحجور في قوله تعالى : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ (٤) لأن الغالب كون الربائب في حجور الأزواج .

(ب) ومنها ألا يكون المذكور لبيان الواقع ، فلا مفهوم لقوله : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ (٥) لأن الواقع أن أي إله لا برهان عليه ، وقوله : ﴿ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ صفة لازمة جيء بها للتوكيد والتهكم بمدعى إلَه مع الله لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان - ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ (٦) . فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم تُرد التحصن ، وإنما قال : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ لأن

---

(١) الطلاق : ٦ (٢) البقرة : ٢٣٠ (٣) الفاتحة : ٥
(٤) النساء : ٢٣ (٥) المؤمنون : ١١٧ (٦) النور : ٣٣

الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن ، وعن جابر بن عبد الله قال : « كان عبد الله ابن أُبَىّ يقول لجارية له : اذهبى فأبغينا شيئًا ، وكانت كارهة ، فأنزل الله : ﴿ وَلا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) ، وعن جابر أيضًا : « أن جارية لعبد الله بن أُبَىّ ، يقال لها « مُسيكة » وأخرى يقال لها « أميمة » فكان يريدهما على الزنا ، فشكتا ذلك إلى النبى ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وَلا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ ﴾ . . . الآية (٢) .

والأمر فى الاحتجاج بمفهوم الموافقة أيسر ، فقد اتفق العلماء على صحة الاحتجاج به سوى الظاهرية ، أما الاحتجاج بمفهوم المخالفة فقد أثبته مالك والشافعى وأحمد ، ونفاه أبو حنيفة وأصحابه .

واحتج المثبتون بحجج نقلية وعقلية .

فمن الحجج النقلية : ما رُوِىَ أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِن تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ (٣) قال النبى ﷺ : « قد خيَّرنى ربى ، فوالله لأزيدنه على السبعين » . . ففهم النبى ﷺ أن ما زاد على السبعين بخلاف السبعين (٤) .

ومنها : ما ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما من منع توريث الأخت مع البنت (٥) استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ (٦) حيث إنه فهم من توريث الأخت مع عدم الولد امتناع توريثها مع البنت ، لأنها ولد ، وهو من فصحاء العرب ، وترجمان القرآن .

ومنها : ما رُوِىَ « أن يعلى بن أمية » قال لعمر : ما بالنا نقصر وقد أمنا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ ﴾ (٧)

---

(١) النور : ٣٣ (٢) أخرجهما مسلم وغيره . (٣) التوبة : ٨٠

(٤) نقله ابن جرير بأسانيد كثيرة . (٥) نقله ابن جرير وغيره عن ابن عباس .

(٦) النساء : ١٧٦ (٧) النساء : ١٠١

ووجه الاحتجاج به أنه فهم من تخصيص القصر عند الخوف عدم القصر عند الأمن ، ولم يُنكر عليه عمر ، بل قال : « لقد عجبتُ مما عجبتَ منه ، فسألتُ النبى ﷺ عن ذلك ، فقال لى : « هى صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » (١) ويعلى بن أمية وعمر من فصحاء العرب ، وقد فهما ذلك ، والنبى ﷺ أقرهما عليه.

ومن الحجج العقلية : أنه لو كان حكم الفاسق وغير الفاسق سواءً فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ (٢) فى وجوب التثبت فى الخبر لما كان لتخصيص الفاسق بالذكر فائدة ، وقس على ذلك سائر الأمثلة .

* * *

(١) رواه الإمام أحمد ، ورواه مسلم وأهل السنن .

(٢) الحجرات : ٦

- ١٧ -

إعجاز القرآن

هذا الكون الفسيح الذى يعج بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة ، وبحاره الزاخرة ، ومهاده الواسعة ، أمام مخلوق ضعيف هو الإنسان ، ذلك لمَا جمع الله فيه من خصائص ، وما منحه من قوة التفكير التى تشع فى الأرجاء لتُسَخِّر عناصر القوى الكونية ، وتجعلها فى خدمة الإنسانية ، وما كان الله ليَذر هذا الإنسان دون أن يمده بقبس من الوحى بين فترة وأخرى يقوده إلى معالم الهدى ليسلك دروب الحياة على بيِّنة وبصيرة ، إلا أن غلواءه الفطرى يأبى عليه الخضوع لقرينه من بنى الإنسان ما لم يأت له بما لا يستطيع حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عُليا فوق قدرته ، فكان رسل الله الذين يتنزل عليهم الوحى ويؤيدهم الله بخوارق العادات التى تقيم الحجة على الناس فيعترفون أمامها بالعجز ، ويدينون لها بالولاء والطاعة ، ولكن العقل البَشرى كان فى أطوار نموه الأولى لا يرى شيئاً يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسيَّة حيث لا يرقى عقله إلى السمو فى المعرفة والتفكير ، فناسب هذا أن يُبعث كلَ رسول إلى قومه خاصة ، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قُوَى السماء ، فلما اكتمل العقل البشرى أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة ، وكانت معجزتها معجزة العقل البشرى فى أرقى تطورات نضجه ونموه ، فحيث كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تُبهر الأبصار ولا سبيل للعقل فى معارضتها ، كمعجزة اليد والعصا لموسى ، وإبراء الأكمَهَ والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى ، كانت معجزة محمدٍ ﷺ فى عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشرى وتتحداه إلى الأبد ، وهى معجزة القرآن بعلومه ومعارفه ، وأخباره الماضية والمستقبلة ، فالعقل الإنسانى على تقدمه لا يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قِبَلَ له بها ، ولكن عجزه لقصوره الذاتى ، فيكون هذا اعترافًا منه بأنه وحى الله إلى رسوله ، وأن حاجته إلى الاهتداء

به ماسة ليستقيم عوجه ، وترقى مواهبه ، وهذا المعنى ، هو ما يشير إليه رسول الله ﷺ فى قوله : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطَى ما مثله آمن عليه البَشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا » [(١)] .

وهكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود ، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخى الزمن وتقدم العلم عن معارضتها .

والحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز لا يصل الباحث فيه إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سر إعجازها الزمن ، فهو كما يقول الرافعى : « ما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثًا وتفتيشًا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقًا جديدًا ، ومرامًا بعيدًا » .

* * *

تعريف الإعجاز وإثباته

الإعجاز : إثبات العجز . . . والعجز فى التعارف : اسم للقصور عن فعل الشىء ، وهو ضد القدرة ، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز ، والمراد بالإعجاز هنا : إظهار صدق النبى ﷺ فى دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته فى معجزته الخالدة – وهى القرآن – وعجز الأجيال بعدهم .

والمعجزة : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة .

والقرآن الكريم تحدى به النبى ﷺ العرب ، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم فى الفصاحة والبلاغة ، ومثل هذا لا يكون إلا معجزًا .

فقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث :

(أ) تحداهم بالقرآن كله فى أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحديًا يظهر على طاقتهم مجتمعين ، بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ

---

(١) رواه البخارى .

الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) .

(ب) ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ (٢) .

(ج) ثم تحداهم بسورة واحدة منه فى قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٣) ، وكرَّر هذا التحدى فى قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (٤) .

ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول ﷺ التى رقت بلغة العرب وهذَّبت لسانها وجمعت خير ما فى لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر ، حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان فى لغة قريش التى نزل بها القرآن ، وما كان عليه العرب من صلَف يعلو بأحدهم على أبناء عمومته أنفًا وكبرًا مضرب مثل فى التاريخ الذى سجل لهم أيامًا نُسبَت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة ، أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة .

ومثل هؤلاء مع توفر دواعى اللسان وقوة البيان التى يوقدها حماس القبيل ويؤججها أتون الحميَّة لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثرَ هذا عنهم ، وتطاير خبره فى الأجيال ، فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب وقلَّبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعر ونثر فلم يجدوا مسلكًا لمحاكاته ، أو منفذًا لمعارضته ، بل جرى على

---

(١) التحدى إنما وقعَ للإنس دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه ، وإنما ذُكِروا فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ ﴾ تعظيمًا لإعجازه ، لأنه إذا فُرِضَ اجتماع الإنس والجن وظاهرَ بعضهم بعضًا وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز - (والآية من سورة الإسراء : ٨٨) .

(٢) هود : ١٣ - ١٤ (٣) يونس : ٣٨ (٣) البقرة : ٢٣

ألسنتهم الحق الذى أخرسهم عفو الخاطر عندما زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم كما أُثِرَ ذلك عن الوليد بن المغيرة ، وعندما عجزت حيلتهم رموه بقول باهت فقالوا: سحر يُؤثر ، أو شاعر مجنون ، أو أساطير الأولين ، ولم يكن لهم بد أمام العجز والمكابرة إلا أن يُعَرِّضوا رقابهم للسيوف ، وكأن اليأس القاتل ينقل بنيه من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام ، وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مراء .

وكان سماعه حُجة ملزمة : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ (١) ، وكان ما يحتويه من نواحى الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة ويُغنى عنها جميعًا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّه ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعى عجز للغة العربية فى ريعان شبابها وعنفوان قوَّتها .

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال فى موقف التحدى شامخ الأنف ، فأسرار الكون التى يكشف عنها العلم الحديث ما هى إلا مظاهر للحقائق العليا التى ينطوى عليها سر هذا الوجود فى خالقه ومدبره ، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه - فصار القرآن بهذا مُعْجِزًا للإنسانية كافة .

* * *

وجوه إعجاز القرآن (٣)

لقد كان لنشأة علم الكلام فى الإسلام أثر أصدق ما يُقال فيه : إنه كلام فى كلام ، وما فيه من وميض التفكير يجر متتبعه إلى مجاهل من القرآن بعضها فوق

---

(١) التوبة : ٦ .   (٢) العنكبوت : ٥٠ - ٥١

(٣) ذكر العلماء فى وجوه الإعجاز ما يربو على عشرة أوجه ، وسنقتصر على أهمها .

بعض ، وقد بدأت مأساة علماء الكلام فى القول بخلق القرآن ، ثم اختلفت آراؤهم وتضاربت فى وجوه إعجازه :

(أ) فذهب أبو إسحاق إبراهيم النظام [١] ومَن تَابعه - كالمرتضى من الشيعة - إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، ومعنى الصرفة فى نظر النظام : أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقًا للعادة ، ومعناها فى نظر المرتضى : أن الله سلبهم العلوم التى يُحتاج إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن - وهو قول يدل على عجز ذويه ، فلا يُقال فيمن سُلِبَ القدرة على شىء أن الشىء أعجزه ما دام فى مقدوره أن يأتى به فى وقت ما ، وإنما المُعْجِز حينئذ هو قدر الله ، فلا يكون القرآن مُعْجِزًا ، وحديثنا عن إعجاز مضاف إلى القرآن سوف يظل ثابتًا له فى كل عصر ، لا عن إعجاز الله .

قال القاضى أبو بكر الباقلانى : « ومما يُبطل القول بالصرفة ، أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزًا ، وإنما يكون المنع مُعْجِزًا ، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره فى نفسه » .

والقول بالصرفة قول فاسد يرد عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٢] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سُلِبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، ولبس عجز الموتى بكبير يُحتفل بذكره .

(ب) وذهب قوم إلى أن القرآن مُعْجِز ببلاغته التى وصلت إلى مرتبة لم يُعهد لها مثيل - وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعانى الحيَّة فى النسج المُحكم ، والبيان الرائع .

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام شيخ الجاحظ ، وأحد رؤوس المعتزلة ، وإليه تنسب الفرقة النظامية ، توفى فى خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين .

(٢) الإسراء : ٨٨

(ج) وبعضهم يقول : إن وجه إعجازه فى تضمنه البديع الغريب المخالف لما عُهِدَ فى كلام العرب من الفواصل والمقاطع .

(د) ويقول آخرون : بل إعجازه فى الإخبار عن المغيِّبات المستقبلة التى لا يُطَّلع عليها إلا بالوحى ، أو الإخبار عن الأمور التى تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أمى لم يتصل بأهل الكتاب .

كقوله تعالى فى أهل بدر : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ ، وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (٥) ، وسائر قصص الأوَّلين .

وهذا قول مردود ، لأنه يستلزم أن الآيات التى لا خبر فيها عن المغيِّبات المستقبلة والماضية لا إعجاز فيها ، وهو باطل ، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها (٦) .

(هـ) وذهب جماعة إلى أن القرآن مُعْجِز لما تضمنه من العلوم المختلفة ، والحِكَم البليغة .

وهناك وجوه أخرى للإعجاز تدور فى هذا الفَلَك جمعها بعضهم فى عشرة أو أكثر .

والحقيقة أن القرآن مُعْجِز بكل ما يتحمله هذا اللَّفظ من معنى :

فهو مُعْجِز فى ألفاظه وأسلوبه ، والحرف الواحد منه فى موضعه من الإعجاز

---

(١) القمر : ٤٥ (٢) الفتح : ٢٧ (٣) النور : ٥٥

(٤) الروم : ١ - ٣ (٥) هود : ٤٩

(٦) انظر : « البرهان » للزركشى (٢/ ٩٥ - ٩٦) .

الذى لا يُغنى عنه غيره فى تماسك الكلمة ، والكلمة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الجملة ، والجملة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الآية .

وهو مُعْجِز فى بيانه ونظمه ، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان .

وهو مُعْجِز فى معانيه التى كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها فى الوجود .

وهو مُعْجِز بعلومه ومعارفه التى أثبت العلم الحديث كثيرًا من حقائقها المغيّبة .

وهو مُعْجِز فى تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالى تسعد الدنيا على يديه .

والقرآن - أولاً وآخرًا - هو الذى صيَّر العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم ، وهذا وحده إعجاز .

قال الخطابى فى كتابه [1] : « فخرج من هذا أن القرآن إنما صار مُعْجِزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، متضمنًا أصح المعانى ، من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان لمنهاج عبادته ، فى تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعًا كل شىء منها موضعه الذى لا يُرى شىء أولى منه ، ولا يُتوهم فى صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئًا عن الكوائن المستقبَلة فى الأعصار الماضية من الزمان - جامعًا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . .

ومعلوم أن الإنسان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق ،

---

(١) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى ، فى كتابه « بيان إعجاز القرآن » ، طبع ضمن ثلاثة رسائل بمطبعة المعارف ، بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، وانظر : « البرهان » للزركشى (١٠١/٢) وما بعدها .

أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله » .

* * *

القدر المعجز من القرآن

(أ) يذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه ، أو بكل سورة برأسها .

(ب) ويذهب بعضهم إلى أن المُعْجز منه القليل والكثير دون تقييد بالسورة لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ (١) .

(جـ) ويذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة ، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات .

ولقد وقع التحدى بالقرآن كله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٢) .

وبعشر سور : ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٣) .

وبسورة واحدة : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٤) .

وبحديث مثله : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٥) .

ونحن لا نرى الإعجاز فى قدر معين لأننا نجده فى أصوات حروفه ووقع كلماته ، كما نجده فى الآية والسورة ، فالقرآن كلام الله وكفى .

وأيا كان وجه الإعجاز ، أو القدر المعجز ، فإن الباحث المنصف الذى يطلب الحق إذا نظر فى القرآن من أى النواحى أحب : من ناحية أسلوبه ، أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذى أحدثه فى العالَم وغيَّر به وجه التاريخ ، أو من تلك النواحى مجتمعة ، وجد الإعجاز واضحًا جليا ، ويجدر بنا أن نأتى بكلمة فى

---

(١) الطور : ٣٤ (٢) الإسراء : ٨٨ (٣) هود : ١٣
(٤) يونس : ٣٨ (٥) الطور : ٣٤

هذه النواحى الثلاثة من الإعجاز القرآنى : ناحية الإعجاز اللُّغوى ، وناحية الإعجاز العلمى ، وناحية الإعجاز التشريعى .

* * *

الإعجاز اللُّغوى

لقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبت وترعرعت ، وأصبحت فى عنفوان شبابها عملاقًا معطاء ، واستظهروا شعرها ونثرها ، وحكمها وأمثالها ، وطاوعهم البيان فى أساليب ساحرة ، حقيقة ومجازًا ، إيجازًا وإطنابًا ، حديثًا ومقالاً ، وكلما ارتفعت اللُّغة وتسامت ، وقفت على أعتاب لغة القرآن فى إعجازه اللُّغوى كسيرة صاغرة ، تتحنى أمام أسلوبه إجلالاً وخشية ، وما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ ، ازدهرت فيها اللُّغة إلا وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام البيان القرآنى اعترافًا بسموه ، وإدراكًا لأسراره ، ولا عجب « فتلك سنة الله فى آياته التى يصنعها بيديه ، لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعانًا لعظمتها ، وثقة بالعجز عنها ، ولا كذلك صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها ، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون » (١) .

والذين تملكهم الغرور ، وأصابتهم لوثة الإعجاب بالنفس ، وحاولوا التطاول على أسلوب القرآن ، حاكوه بكلام فارغ ، أشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث ، وارتدوا على أعقابهم خاسرين ، كالمتنبئين وأشباه المتنبئين ، من الدجالين والمغرورين .

وقد شهد التاريخ فرسانًا للعربية خاضوا غمارها وأحرزوا قصب السبق فيها ، فما استطاع أحد منهم أن تُحَدِّثه نفسه بمعارضة القرآن ، إلا باء بالخزى والهوان ، بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللُّغة ، فى أزهى عصورها ، وأرقى أدوارها ، حين نزل هذا القرآن ، وقد بلغت العربية أشدها ، وتوافرت لها عناصر الكمال والتهذيب فى المجامع العربية وأسواقها ، ووقف القرآن من أصحاب هذه اللُّغة موقف التحدى ، فى صور شتَّى ، متنزلاً معهم إلى الأخف من عشر سور إلى

---

(١) « النبأ العظيم » (ص٨١) .

سورة إلى حديث مثله ، فما استطاع أحد أن يباريه أو يجاريه منهم ، وهم أهل الأنفة والعزة والإباء ، ولو وجدوا قدرة على محاكاة شيء منه ، أو وجدوا ثغرة فيه ، لما ركبوا المركب الصعب أمام هذا التحدى ، بإشهار السيوف ، بعد أن عجز البيان ، وتحطمت الأقلام .

وتتابعت القرون لدى أهل العربية ، وظل الإعجاز القرآنى اللُّغوى راسخًا كالطود الشامخ ، تذل أمامه الأعناق خاضعة ، لا تفكر فى أن تدانيه ، فضلاً عن أن تساميه ، لأنها أشد عجزًا وأقل طمعًا فى هذا المطلب العزيز ، وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين .

ولا يستطيع أحد أن يدعى عدم الحاجة إلى معارضة القرآن ، وإن كان ذلك ممكنًا ، فإن التاريخ يشهد بأنه قد توافرت الدواعى الملحة لدى القوم لمعارضة القرآن ، حيث وقفوا من الرسالة وصاحبها موقف الجحود والنكران ، واستثار القرآن حَميَّتهم ، وسفَّه أحلامهم ، وتحداهم تحديًا سافرًا يُثير حفيظة الجبان الرِعديد مع ما كانوا عليه من أنفة وعزة ، فسلكوا مع الرسول ﷺ مسالك شتَّى ، ساوموه بالمال والمُلك ليكف عن دعوته ، وقاطعوه ومَن معه حتى يموتوا جوعًا ، واتهموه بالسحر والجنون ، وتآمروا على حبسه ، أو قتله أو إخراجه ، وقد دلَّهم على الطريق الوحيد لإسكاته وهو أن يجيئوه بكلام مثل الذى جاءهم به ، « ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره فى يدهم ؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل وكل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذى دلَّهم عليه ، فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز » ؟

والقرآن الذى عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سُنن كلامهم ، ألفاظًا وحروفًا ، تركيبًا وأسلوبًا ، ولكنه فى اتساق حروفه ، وطلاوة عبارته ، وحلاوة أسلوبه ، وجرس آياته ، ومراعاة مقتضيات الحال فى ألوان البيان ، فى الجُمل الاسمية والفعلية ، وفى النفى والإثبات ، وفى الذكر والحذف ، وفى التعريف والتنكير ، وفى التقديم والتأخير ، وفى الحقيقة والمجاز ، وفى الإطناب والإيجاز ، وفى العموم والخصوص ، وفى الإطلاق والتقييد ، وفى النص والفحوى - وهلم جرًّا - ولكن القرآن فى هذا ونظائره بلغ الذروة التى تعجز أمامها القدرة اللُّغوية لدى البَشر .

عن ابن عباس : « أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له : يا عم : إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدًا لتتعرض لما قِبَله ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إنَّ لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعْلَى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (١) .

وحيثما قلَّب الإنسان نظره فى القرآن وجد أسرارًا من الإعجاز اللُّغوى .

يجد ذلك فى نظامه الصوتى البديع بجرس حروفه ، حين يسمع حركاتها وسكناتها ، ومدَّاتها وغُنَّاتها ، وفواصلها ومقاطعها ، فلا تمل أذنه السماع ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

ويجد ذلك فى ألفاظه التى تفى بحق كل معنى فى موضعه ، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد ، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص .

ويجد ذلك فى ضروب الخطاب التى يتقارب فيها أصناف الناس فى الفهم بما تطيقه عقولهم ، فيراها كل واحد منهم مقدَّرة على مقياس عقله ووفق حاجته ، من العامة والخاصة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٢) .

ويجد ذلك فى إقناع العقل وإمتاع العاطفة ، بما يفى بحاجة النفس البَشرية تفكيرًا ووجدانًا فى تكافؤ واتزان ، فلا تطغى قوة التفكير على قوة الوجدان ، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير .

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقى فى « الدلائل » - (والآية من سورة المدثر : ١١) .
(٢) القمر : ١٧

وهكذا حيثما قلَّب النظر قامت أمامه حجة القرآن فى التحدى والإعجاز (١) .

قال القاضى أبو بكر الباقلانى (٢) : « والذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه : منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدَّل المسجَّع ، ثم إلى معدَّل موزون غير مسجَّع ، ثم إلى ما يُرسل إرسالاً فتُطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلاً فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل يتصنع له ، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، فليس من باب السجع ، وليس من قبيل الشعر ، وتبيَّن بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة ، وأنه مُعْجِز ، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميز حاصل فى جميعه . .

وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ، والمعانى اللَّطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحِكَم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة على هذا الطول - وعلى هذا القدر ، وإنما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف ، والتكلف والتعسف ، وقد جاء القرآن على كثرته وطوله متناسبًا فى الفصاحة على ما وصفه الله عز من قائل : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيث كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىَ

---

(١) راجع الإعجاز اللُّغوى فى « النبأ العظيم » بتوسع .

(٢) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى صاحب كتاب « إعجاز القرآن » وكتاب « التقريب والإرشاد » فى أصول الفقه ، توفى سنة ٤٠٣ هجرية .

ذكْرِ اللهِ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (٢) . فَأخبر أنَ كلام الآدمى إن امتد وقَع فيهَ التفاوت وبان عليه الاختلال .

وعجيب نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها - من ذكر قصص ومواعظ ، واحتجاج وحِكَم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسِيَر مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور ، فمن الشعراء مَن يجود فى المدح دون الهجو ، ومنهم مَن يبرز فى الهجو دون المدح ، ومنهم مَن يسبق فى التقريظ دون التأبين ، ومنهم مَن يقرب فى وصف الإبل والخيل ، أو سير اللَّيل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو وصف الخمر ، أو الغَزَل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ، ولذلك ضُرِبَ المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب ، ومثل ذلك يختلف فى الخُطَب والرسائل وسائر أجناس الكلام . .

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدَّمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النَظْم ، وبديع التأليف والوصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا . . فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر » (٣) .

وإذا عجز المتناهون فى الفصاحة ، ومعرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة ، وفنون القول ، وقامت الحُجة عليهم ، فقد لزمت الحُجة مَن دونهم من العرب ، ولزمت غيرهم من الأعاجم ، لأن تحقق عجز مَن استكمل معرفة تصاريف الخطاب ، ووجوه الكلام ، وأساليب البيان ؛ يقطع بعجز مَن دونه من باب أولى .

* * *

الإعجاز العلمى

يخطئ كثير من الناس حين يحرصون على أن يتضمن القرآن الكريم كل نظرية

(١) الزمر : ٢٣ (٢) النساء : ٨٢ (٣) إعجاز القرآن بتصرف .

علمية ، وكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملاً فى آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية .

ومنشأ الخطأ فى هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعًا لسُنَّة التقدم ، فلا تزال فى نقص دائم يكتنفه الغموض أحيانًا ، والخطأ أحيانًا أخرى ، وتستمر هكذا حتى تقترب من الصواب ، وتصل إلى درجة اليقين ، وأى نظرية منها تبدأ بالحدس والتخمين وتخضع للتجربة حتى يثبت يقينها ، أو يتضح زيفها وخطؤها ، ولهذا كانت عرضة للتبديل ، وكثير من القواعد العلمية التى ظن الناس أنها أصبحت من المسلَّمات تتزعزع بعد ثبوت ، وتتقوَّض بعد رسوخ ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى .

والذين يُفسِّرون القرآن الكريم بما يطابق مسائل العلم ، ويحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر فى أفق الحياة العلمية ، يُسيئون إلى القرآن من حيث يظنون أنهم يُحسنون صنعًا ، لأن هذه المسائل التى تخضع لسُنَّة التقدم تتبدل ، وقد تتقوَّض من أساسها وتبطل ، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنا فى تفسيره للنقائض كلما تبدلت القواعد العلمية ، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم ، أو يقين يُبطل التخمين .

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية ، يخاطب الضمير فيحيى فيه عوامل النمو والارتقاء ، وبواعث الخير والفضيلة .

وإعجازه العلمى ليس فى اشتماله على النظريات العلمية التى تتجدَّد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشرى فى البحث والنظر ، وإنما فى حثه على التفكير ، فهو يحث الإنسان على النظر فى الكون وتدبره ، ولا يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وليس ثمة كتاب من كتب الأديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن .

فأى مسألة من مسائل العلم ، أو قاعدة من قواعده ، يثبت رسوخها ، ويتبين يقينها ، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم ، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال ، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها ولم يتعارض شىء ثابت منها مع آية من آيات القرآن ، وهذا وحده إعجاز .

والقرآن الكريم يجعل التفكير السديد والنظر الصائب فى الكون وما فيه أعظم وسيلة من وسائل الإيمان بالله .

إنه يحث المسلم على التفكير فى مخلوقات الله فى السماء والأرض : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

ويحثه على التفكير فى نفسه ، وفى الأرض التى يعمرها ، وفى الطبيعة التى تحيط به : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِم ، مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢) .

﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٤) .

ويثير فيه الحس العلمى للتفكير والفهم والتعقل : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٨) .

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٩) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠) .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ -١٩١
(٢) الروم : ٨
(٣) الذاريات : ٢٠ - ٢١
(٤) الغاشية : ١٧ - ٢٠
(٥) البقرة : ٢١٩
(٦) الحشر : ٢١
(٧) يونس : ٢٤
(٨) الرعد : ٣
(٩) الأعراف : ٣٢
(١٠) الأنعام : ٩٧

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

ويرفع القرآن مكانة المسلم بفضيلة العلم : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٣) .

ولا يُسوِّى بين عالِم وجاهل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

ويأمر المسلم أن يسأل ربه نعمة العلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (٥) .

ويجمع الله علوم الفَلَك والنبات وطبقات الأرض والحيوان ويجعل ذلك من بواعث خشيته : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٦) .

وهكذا فإن إعجاز القرآن العلمى فى أنه يحث المسلمين على التفكير ، ويفتح لهم أبواب المعرفة ، ويدعوهم إلى ولوجها ، والتقدم فيها ، وقبول كل جديد راسخ من العلوم .

وفى القرآن مع هذا إشارات علمية سبقت مساق الهداية ، فالتلقيح فى النبات : ذاتى وخلطى ، والذاتى : ما اشتملت زهرته على عضوى التذكير والتأنيث ، والخلطى : هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلاً عن عضو التأنيث كالنخيل ، فيكون التلقيح بالنقل ، ومن وسائل ذلك الرياح ، وجاء فى هذا قول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (٧) .

« والأوكسچين » ضرورى لتنفس الإنسان ، ويقل فى طبقات الجو العليا ، فكلما

---

(١) الأنعام : ٦٥ — (٢) الأنعام : ٩٨ — (٣) المجادلة : ١١
(٤) الزمر : ٩ — (٥) طه : ١١٤ — (٦) فاطر : ٢٧ - ٢٨
(٧) الحجر : ٢٢

ارتفع الإنسان فى أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس ، والله تعالى يقول : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ (١) .

وقد ساد الاعتقاد بأن الذَرَّة هى الجزء الذى لا يقبل التجزئة ، وفى القرآن : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) ولا أصغر من الذَرَّة سوى تحطيم الذَرَّة .

وفى علم الأجنة جاء قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ (٥) .

وفى وحدة الكون وحاجة الحياة إلى عنصر الماء يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَىٍّ ، أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) .

تلك الإشارات العلمية ونظائرها فى القرآن جاءت فى سياق الهداية الإلهية ، وللعقل البَشرى أن يبحث فيها ويتدبر .

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ ﴾ (٧) : « اتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملى لا إلى مجرد العلم النظرى ، وحدَّثهم عن وظيفة الأهِلَّة فى واقعهم وفى حياتهم ولم

---

(١) الأنعام : ١٢٥ — (٢) يونس : ٦١ — (٣) الطارق : ٥ - ٧

(٤) العلق : ٢ — (٥) الحج : ٥ — (٦) الأنبياء : ٣٠

(٧) البقرة : ١٨٩

يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر ، وكيف تتم ؟ وهى داخلة فى مدلول السؤال . . إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية ، ولم يجىء ليكون كتاب علم فلكى ، أو كيماوى أو طبى . . كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم .

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله ، إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ، وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عامًا للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان فى هذا الوجود وارتباطه بربه ، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظامًا للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية ، التى تقوم هى بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمى - فى الحدود المتاحة للإنسان ، وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال . .

وإنى لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه ، وأن يستخرجوا منه جزئيات فى علوم الطب والكيمياء والفَلَكَ وما إليها . . كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه . .

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة . . أما ما يصل إليه البحث الإنسانى - أيا كانت الأدوات المتاحة له - فهى حقائق غير نهائية ولا قاطعة ، وهى مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها ، فمن الخطأ المنهجى - بحكم المنهج العلمى الإنسانى ذاته - أن تعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية ، وهى كل ما يصل إليه العلم البشرى .

هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية ، والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التى تسمى « علمية » . . فهى قابلة دائمًا للتغيير والتعديل والنقص والإضافة ، بل قابلة لأن تنقلب رأسًا على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة ، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة .

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات

متجددة متغيرة - أوحتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوى أولاً على خطأ منهجى أساسى ، كما أنها تنطوى على معان ثلاثة ، كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم .

الأولى : هى الهزيمة الداخلية التى تخيل لبعض الناس ، أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ، أو الاستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل فى موضوعه ، ونهائى فى حقائقه ، والعلم ما يزال فى موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائى ولا مطلق ، لأنه مقيَّد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تُعطى حقيقة واحدة نهائية مطلقة .

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته ، وهى أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية - مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهى ، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله ، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه من خلافته ، نواميسه التى تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة .

والثالثة : هى التأويل المستمر - مع التحمل والتكلف - لنصوص القرآن كى نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التى لا تثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد » (١) .

* * *

الإعجاز التشريعى

أودع الله فى الإنسان كثيراً من الغرائز التى تعتمل فى النفس وتؤثر عليها فى اتجاهات الحياة ، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغى على سلطان العقل ، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها فى

---

(١) اقتبسنا هذه الفقرات من كتاب « فى ظلال القرآن » بتصرف .

كل حال ، لهذا كان لابد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه ، تهذبها وتنميها ، وتقودها إلى الخير والفلاح .

والإنسان مدنى بالطبع ، فهو فى حاجة إلى غيره ، وغيره فى حاجة إليه ، وتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشرى ، وكثيراً ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة ، فلو تُرِكَ أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم ، وينظم أحوال معاشهم ، ويصون حقوقهم ، ويحفظ حرماتهم لصار أمرهم فوضى ، ولذا كان لابد لأى مجتمع بشرى من نظام يحكم زمامه ، ويحقق العدل بين أفراده .

وبين تربية الفرد وصلاح الجماعة ، وشائج قوية لا تنفصم عراها ، فإن هذا يقوم على تلك ، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة ، وصلاح الجماعة بصلاح الفرد . .

وقد عرفت البشرية فى عصور التاريخ ألوانًا مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التى تستهدف سعادة الفرد فى مجتمع فاضل ، ولكن واحدًا منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن فى إعجازه التشريعى .

إن القرآن يبدأ بتربية الفرد ، لأنه لبنة المجتمع ويُقيم تربيته على تحرير وجدانه ، وتحمله التبعة .

يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد التى تُخَلِّصه من سلطان الخرافة والوهم ، وتفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات ، حتى يكون عبدًا خالصًا لله ، يتجرد للإلَه الخالق المعبود ، ويستعلى بنفسه عما سواه ، فلا حاجة للمخلوق إلا لدى خالقه ، الذى له الكمال المطلق ، ومنه يمنح الخير للخلائق كلها ، إنه خالق واحد وإلَه واحد ، لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شىء ، عليم بكل شىء ، محيط بكل شىء ، وليس كمثله شىء .

عالَم مخلوق خلقه الله ، ويرجع إلى الله ، ويفنى كما يوجد بمشيئة الله ، وهذه أكمل عقيدة فى العقل وأكمل عقيدة فى الدين .

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ (٤) .

﴿ وكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٥) .

﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

﴿ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (٧) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٨) .

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (٩) .

ويؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بالحجج القاطعة التى تقوم على المنطق العقلى السليم ، فلا تقبل الجدال والمراء : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١٠) .

﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى العَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (١١) .

وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن فى الفرائض والعبادات ، وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة .

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والجماعة واجبة على الرأى الراجح إلا لعذر ، وهى شرط فى الجمعة والعيدين ، والذى يُصَلِّى منفردًا لا يغيب عن شعوره

---

(١) سورة الإخلاص .　(٢) الحديد : ٣　(٣) القصص : ٨٨

(٤) الأنعام : ١٠٢　(٥) الأحزاب : ٢٧　(٦) البقرة : ٩٦

(٧) فصلت : ٥٤　(٨) الشورى : ١١　(٩) الأنعام : ١٠٣

(١٠) الأنبياء : ٢٢　(١١) الإسراء : ٤٢

آصرة القُربى بينه وبين الجماعة الإسلامية فى أقطار الأرض ، من شمال إلى جنوب ، ومن مشرق إلى مغرب ، لأنه يعلم أنه فى تلك اللّحظة يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم على ظهر الأرض ، يؤدى فريضة الصلاة ، ويستقبل معه قِبلة واحدة ، ويدعو بدعاء واحد ، وإن تباعدت بينهم الديار .

وحسب المسلم فى تربيته أن يقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم الواحد تمتزج حياته بشرع الله ، ويتمثل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين كل صلاة وصلاة : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (١) .

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشُّح ، وعبادة المال ، والحرص على الدنيا ، وهى مصلحة للجماعة ، فتُقيم دعائم التعاون بين المجدودين والمحرومين ، وتُشعر النفس بتكامل الجماعة شعوراً يُخرجها من ضيق الأثرة والانفراد .

والحج سياحة تُرَوِّض النفس على المشقة ، وتفتح بصيرتها على أسرار الله فى خلقه ، وهو مؤتمر عالَمى يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد ، فيتعارفون ويتشاورون .

والصيام ضبط للنفس ، وشحذ لعزيمتها ، وتقوية للإرادة ، وحبس للشَهوات ، وهو مظهر اجتماعى يعيش فيه المسلمون شهراً كاملاً على نظام واحد فى طعامهم ، كما تعيش الأسرة فى البيت الواحد .

والقيام بهذه العبادات المفروضة يُرَبِّى المسلم على الشعور بالتبعية الفردية التى يقررها القرآن وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٢) .

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٣) .

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٤) .

وحضَّ القرآن على الفضائل المثلى التى تروض النفس على الوازع الدينى ، كالصبر والصدق والعدل والإحسان والحلم والعفو والتواضع .

---

(١) العنكبوت : ٤٥
(٢) المدثر : ٣٨
(٣) الطور : ٢١
(٤) البقرة : ٢٨٦

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة ، لأنها نواة المجتمع ، فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس ، وإبقاء على النوع الإنسانى فى تناسل طاهر نظيف .

ويقوم رباط الأسرة فى الزواج على الود والرحمة والسكن النفسى والعشرة بالمعروف ، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة ، والوظيفة الملائمة لكل منهما : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١) .

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢)

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (٣) .

ثم يأتى نظام الحكم الذى يسود المجتمع المسلم ، وقد قرَّر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية فى أصلح أوضاعها .

فهى حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٦) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ (٧) .

وهى حكومة تقوم على العدل المطلق الذى لا يتأثر بحب الذات ، أو عاطفة القرابة ، أو العوامل الاجتماعية فى الغِنَى والفقر :

---

(١) الروم : ٢١ (٢) النساء : ١٩ (٣) النساء : ٣٤
(٤) آل عمران : ١٥٩ (٥) الشورى : ٣٨ (٦) الحجرات : ١٠
(٧) آل عمران : ٦٤

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَالله أَوْلَى بِهِمَا ، فَلا تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُواْ ، وَإِنْ تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (١) .

كما لا تؤثر فى هذا العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبغوضين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ (٣) .

والتشريع فى الحكومة الإسلامية ليس متروكًا للناس ، فقد قرَّره القرآن ، والخروج عنه كفر وظلم وفسق : ﴿ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٦) .

﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٧) .

وقرَّر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية : النفس ، والدين ، والعرض ، والمال ، والعقل ، ورتَّب عليها العقوبات المنصوصة ، التى تُعرف فى الفقه الإسلامى بالجنايات والحدود : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٨) .

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٩) .

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) المائدة : ٨ (٣) النساء : ٥٨

(٤) المائدة : ٤٤ (٥) المائدة : ٤٥ (٦) المائدة : ٤٧

(٧) المائدة : ٥٠ (٨) البقرة : ١٧٩ (٩) النور : ٢

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (١) .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٢) .

وقرَّر القرآن العلاقات الدولية فى الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم ، وهى أرفع معاملة عُرِفَتْ فى عصور الحضارة الإنسانية .

وخلاصة القول : إن القرآن دستور تشريعى كامل يُقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال ، وسيظل إعجازه التشريعى قرينًا لإعجازه العلمى وإعجازه اللُّغوى إلى الأبد ، ولا يستطيع أحد أن يُنكر أنه أحدث فى العالَم أثرًا غيَّر وجه التاريخ .

❊ ❊ ❊

---

(١) النور : ٤

(٢) المائدة : ٣٨

- ١٨ -

أمثال القرآن

الحقائق السامية فى معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت فى قالب حسى يُقرِّبها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقينى ، والتمثيل هو القالب الذى يُبرز المعانى فى صورة حيَّة تستقر فى الأذهان ، بتشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقياس النظير على النظير ، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً ، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به ، وهو من أساليب القرآن الكريم فى ضروب بيانه ونواحى إعجازه .

ومن العلماء مَن أفرد الأمثال فى القرآن بالتأليف ، ومنهم مَن عقد لها بابًا فى كتاب من كتبه ، فأفردها بالتأليف أبو الحسن الماوردى (١) ، وعقد لها بابًا السيوطى فى الإتقان (٢) وابن القيم فى كتاب أعلام الموقعين ، حيث تتبع أمثال القرآن التى تضمنت تشبيه الشىء بنظيره ، والتسوية بينهما فى الحكم - فبلغت بضعة وأربعين مثلاً .

وذكر الله فى كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إلا العَالِمُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) وعن علىّ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله أنزل القرآن آمرًا وزاجرًا ، وسُنَّة خالية ، ومثلاً مضروبًا » (٦) .

---

(١) هو أبو الحسن علىّ بن حبيب الشافعى ، صاحب كتاب « أدب الدنيا والدين » ، وكتاب « الأحكام السلطانية » توفى سنة ٤٥٠ هجرية .

(٢) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٣١) .

(٣) الحشر : ٢١

(٤) العنكبوت : ٤٣

(٥) الزمر : ٢٧

(٦) رواه الترمذى .

وكما عَنِىَ العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية ، وعقد لها أبو عيسى الترمذى بابًا فى جامعه أورد فيه أربعين حديثًا ، وقال القاضى أبو بكر بن العربى : « لم أر من أهل الحديث مَن صنَّف فأفرد للأمثال بابًا غير أبى عيسى ، ولله دره ، لقد فتح بابًا ، وبنى قصرًا أو دارًا ، ولكنه اختط خطا صغيرًا ، فنحن نقنع به ، ونشكره عليه » .

* * *

تعريف المثل

والأمثال : جمع مثل ، والمَثل والمِثل [1] والمثيل : كالشَبه والشِبه والشبيه لفظًا ومعنى .

والمثل فى الأدب : قول محكى سائر يُقصد به تشبيه حال الذى حُكِىَ فيه بحال الذى قيل لأجله ، أى يشبه مضربه بمورده ، مثل : « رُبَّ رمية من غير رامٍ » أى رُبَّ رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ ، وأول مَن قال هذا الحكم بن يغوث النقرى ، يُضرب للمخطئ يصيب أحيانًا ، وعلى هذا فلا بد له من مورد يُشَبَّه مضربه به .

ويُطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن ، وبهذا المعنى فُسِّرَ لفظ المثل فى كثير من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجَنَّة الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [2] : أى قصتها وصفتها التى يُتَعجب منها .

وأشار الزمخشرى إلى هذه المعانى الثلاثة فى كشافه فقال : « والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المِثل والنظير ، ثم قيل للقول السائر الممثَل مضربه بمورده : مثل ، ولم يضربوا مثلا ولا رأوه أهلاً للتسيير ولا جديرًا بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه » . ثم قال : « وقد استُعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة » .

---

(١) المَثل والمِثل : الأولى بفتح الميم والثانية بكسرها .

(٢) انظر : « بلاغة القرآن » للأستاذ محمد الخضر حسين (ص٢٦) - (والآية من سورة محمد : ١٥) .

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان فى تعريف المثل فهو عندهم : المجاز المرَّكب الذى تكون علاقته المتشابهة متى فشا استعماله ، وأصله الاستعارة التمثيلية ، كقولك للمتردد فى فعل أمر : « مالى أراك تُقدِّم رجلاً وتُؤخِّر أخرى » .

وقيل فى ضابط المثل كذلك : إنه إبراز المعنى فى صورة حسيَّة تُكسبه روعة وجمالاً ، والمثل بهذا المعنى لا يُشترط أن يكون له مورد ، كما لاَ يُشترط أن يكون مجازًا مركبًا .

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التى يذكرها المؤلِّفون وجدنا أنهم يُوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر ، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة ، أم بطريق التشبيه الصريح ، أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز ، أو التى يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه ، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل .

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصلها المعنى اللُّغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها على ما يُذكر فى كتب اللُّغة لدى مَن أَلَّفوا فى الأمثال ، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استُعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله ، ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل فى القرآن : فهو إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس ، سواء أكانت تشبيهًا أو قولاً مرسلاً .

فابن القيم يقول فى أمثال القرآن : تشبيه شىء بشىء فى حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر ، ويسوق الأمثلة : فتجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (١) ، ومنها ما يجىء على طريقة التشبيه الضمنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن

---

(١) يونس : ٢٤

يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (١) إذ ليس فيه تشبيه صريح ، ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٢) فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا ﴾ .. قد سمَّاه الله مثلاً وليس فيه استعارة ولا تشبيه .

* * *

أنواع الأمثال فى القرآن

الأمثال فى القرآن ثلاثة أنواع :

١ - الأمثال المُصرَّحة .

٢ - والأمثال الكامنة .

٣ - والأمثال المرسلة .

النوع الأول : - الأمثال المُصرَّحة - : وهى ما صرح فيها بلفظ المثل ، أو ما يدل على التشبيه ، وهى كثيرة فى القرآن نورد منها ما يأتى :

(أ) قوله تعالى فى حق المنافقين : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ (٣) ... إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

ففى هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلاً ناريًا فى قوله : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ لما فى النار من مادة النور ، ومثلاً مائيًا فى قوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ .. لما فى الماء من مادة الحياة ، وقد نزل الوحى من السماء

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) الحج : ٧٣

(٣) البقرة : ١٧ - ١٩ (٤) البقرة : ٢٠

متضمنًا لاستنارة القلوب وحياتها ، وذكر الله حظ المنافقين فى الحالين ، فهم بمنزلة من استوقد نارًا للإضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديًا بالدخول فى الإسلام ، ولكن لم يكن له أثر نورى فى قلوبهم ، فذهب الله بما فى النار من الإضاءة : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ وأبقى ما فيها من الإحراق ، وهذا مثلهم النارى .

وذكر مثلهم المائى فشبههم بحال مَن أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع أصبعيه فى أذنيه وأغمض عينيه خوفًا من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق .

(ب) وذكر الله المثلين : المائى والنارى - فى سورة الرعد للحق والباطل . فقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

شبَّه الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبَّه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زَبَدًا وغُثَاء ، فكذلك الهُدَى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا هو المثل المائى فى قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

وذكر المثل النارى فى قوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ . . فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تُخرج النار ما فيها من الخَبث وتفصله عن الجوهر الذى يُنتفع به فيذهب جُفاء ، فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبَد وهذا الخَبث .

* * *

(١) الرعد : ١٧

النوع الثانى من الأمثال : – الأمثال الكامنة – : وهى التى لم يُصرح فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز ، يكون لها وقعها إذا نُقِلَت إلى ما يشبهها ، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها :

١ – ما فى معنى قولهم : « خير الأمور الوسط » :

(أ) قوله تعالى فى البقرة : ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ (١) .

(ب) قوله تعالى فى النفقة : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (٢) .

(ج) قوله تعالى فى الصلاة : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٣) .

(د) قوله تعالى فى الإنفاق : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (٤) .

٢ – ما فى معنى قولهم : « ليس الخبر كالمعاينة » :

قوله تعالى فى إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (٥) .

٣ – ما فى معنى قولهم : « كما تدين تُدان » :

قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (٦) .

٤ – ما فى معنى : « لا يُلدغ المؤمن من جُحَر مرتين » :

قوله تعالى على لسان يعقوب : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (٧) .

* * *

---

(١) البقرة : ٦٨ — (٢) الفرقان : ٦٧ — (٣) الإسراء : ١١٠
(٤) الإسراء : ٢٩ — (٥) البقرة : ٢٦٠ — (٦) النساء : ١٢٣
(٧) يوسف : ٦٤

النوع الثالث : الأمثال المرسلة فى القرآن : وهى جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه ، فهى آيات جارية مجرى الأمثال .

ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

١ - ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ لَيْسَ لَهَا من دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب ﴾ (٤) .

٥ - ﴿ لِكُلِّ نَبإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ (٥) .

٦ - ﴿ ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِه ﴾ (٦) .

٧ - ﴿ قُلْ كُل يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَته ﴾ (٧) .

٨ - ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٨) .

٩ - ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٩) .

١٠ - ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ﴾ (١٠) .

١١ - ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (١١) .

١٢ - ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١٢) .

١٣ - ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (١٣) .

١٤ - ﴿ لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ (١٤) .

١٥ - ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (١٥) .

---

(١) يوسف : ٥١ (٢) النجم : ٥٨ (٣) يوسف : ٤١
(٤) هود : ٨١ (٥) الأنعام : ٦٧ (٦) فاطر : ٤٣
(٧) الإسراء : ٨٤ (٨) البقرة : ٢١٦ (٩) المدثر : ٣٨
(١٠) الرحمن : ٦٠ (١١) المؤمنون : ٥٣ (١٢) الحج : ٧٣
(١٣) الصافات : ٦١ (١٤) المائدة : ١٠٠ (١٥) البقرة : ٢٤٩

١٦ - ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ (١) .

واختلفوا فى هذا النوع من الآيات الذى يسمونه إرسال المثل ، ما حكم استعماله استعمال الأمثال ؟

فرآه بعض أهل العلم خروجًا عن أدب القرآن ، قال الرازى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (٢) : « جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز ، لأنه تعالى ما أنزل القرآن لُتَمثل به ، بل يُتَدبر فيه ، ثم يُعمل بموجبه » .

ورأى آخرون أنه لا حَرَج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن فى مقام الجد ، كأن يأسف أسفًا شديدًا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول : ﴿ لَيْسَ لَهَا من دُون الله كَاشفَةٌ ﴾ (٣) ، أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقولَ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ والإثم الكبير فى أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح (٤) .

* * *

فوائد الأمثال

١ - الأمثال تُبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس ، فيتقبله العقل لأن المعانى المعقولة لا تستقر فى الذهن إلا إذا صيغت فى صورة حِسيَّة قريبة الفهم ، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء ، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب ، فقال تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ (٥) .

٢ - وتكشف الأمثال عن الحقائق ، وتعرض الغائب فى معرض الحاضر كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (٦) .

---

(١) الحشر : ١٤ — (٢) الكافرون : ٦ — (٣) النجم : ٥٨

(٤) « بلاغة القرآن » (ص٣٣) . — (٥) البقرة : ٢٦٤ — (٦) البقرة : ٢٧٥

٣ - وتجمع الأمثال المعنى الرائع فى عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة فى الآيات الآنفة الذكر .

٤ - ويُضرب المثل للترغيب فى الممثَّل حيث يكون الممثَّل به مما ترغب فيه النفوس ، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق فى سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير ، فقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

٥ - ويُضرب المثل للتنكير حيث يكون الممثَّل به مما تكرهه النفوس ، كقوله تعالى فى النهى عن الغيبة : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (٢) .

٦ - ويُضرب المثل لمدح الممثَّل كقوله تعالى فى الصحابة : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ ﴾ (٣) ، وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا فى بدء الأمر قليلاً ، ثم أخذوا فى النمو حتى استحكم أمرهم ، وامتلأت القلوب إعجابًا بعظمتهم .

٧ - ويُضرب المثل حيث يكون للممثَّل به صفة يستقبحها الناس ، كما ضرب الله مثلاً لحال مَن آتاه الله كتابه ، فتنكب الطريق عن العمل به ، وانحدر فى الدنايا منغمسًا ، فقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ ، إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ، ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٢٦١

(٢) الحجرات : ١٢

(٣) الفتح : ٢٩

(٤) الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦

٨ - والأمثال أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الوعظ ، وأقوى فى الزجر ، وأقوم فى الإقناع ، وقد أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن للتذكرة والعبرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ ﴾ (٢) ، وضربها النبى ﷺ فى حديثه ، واستعان بها الداعون إلى الله فى كل عصر لنُصرة الحق وإقامة الحُجة ، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق ، ووسائل التربية فى الترغيب أو التنفير ، فى المدح أو الذم .

* * *

● ضرب الأمثال بالقرآن :

جرت عادة أهل الأدب أن يسوقوا الأمثلة فى مواطن تُشبه الأحوال التى قيلت فيها ، وإذا صح هذا فى أقوال الناس التى جرت مجرى المثل ، فإن العلماء يكرهون ضرب الأمثال بالقرآن ، ولا يرون أن يتلو الإنسان آية من آيات الأمثال فى كتاب الله عند شىء يعرض من أمور الدنيا ، حفاظًا على روعة القرآن ، ومكانته فى نفوس المؤمنين ، قال أبو عبيد : « وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهم بحاجته ، فيأتيه من غير طلب فيقول كالمازح : ﴿ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ (٣) فهذا من الاستخفاف بالقرآن » ، ومنه قول ابن شهاب الزهرى : « لا تناظر بكتاب الله ولا بسُنَّة رسول الله ﷺ » ، قال أبو عبيد : « يقول : لا تجعل لها نظيرًا من القول ولا الفعل » .

* * *

---

(١) الزمر : ٢٧ (٢) العنكبوت : ٤٣ (٣) طه : ٤٠

- ١٩ -
أقسام القرآن (١)

يختلف الاستعداد النفسى عند الفرد فى تقبله للحق وانقياده لنوره ، فالنفس الصافية التى لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى ، وتفتح قلبها لإشعاعه ، ويكفيها فى الانصياع إليه اللَّمحة والإشارة ، أما النفس التى رانت عليها سحابة الجهل ، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر ، وصيغ التأكيد ، حتى يتزعزع نكيرها ، والقَسَم فى الخطاب من أساليب التأكيد التى يتخللها البرهان المفحم ، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد .

* * *

تعرف القَسَم وصيغته

والأقسام : جمع قَسَم - بفتح السين - بمعنى الحلف واليمين ، والصيغة الأصلية للقَسَم أن يؤتى بالفعل « أقسم » أو « أحلف » متعديًا بالباء إلى المُقْسَم به ، ثم يأتى المُقْسَم عليه ، وهو المسمى بجواب القَسَم ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (٢) .

فأجزاء صيغة القَسَم ثلاثة :

١ - الفعل الذى يتعدى بالباء .

٢ - والمُقْسَم به .

٣ - والمُقْسَم عليه .

ولما كان القَسَم يكثر فى الكلام ، اختُصِر فصار فعل القَسَم يُحذف ويُكتفى

---

(١) أفرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم فى كتابه « أقسام القرآن » المسمى بـ « التبيان » وهو كتاب فريد فى بابه اختصرنا منه هذا البحث .

(٢) النحل : ٣٨

بالباء [1] ثم عُوِّض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ [2] ، وبالتاء فى لفظ الجلالة كقوله : ﴿ وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ [3] ، وهذا قليل ، أما الواو فكثيرة .

والقَسَم واليمين واحد : ويعرف بأنه : ربط النفس ، بالامتناع عن شىء أو الإقدام عليه ، بمعنى معظَّم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا ، وسُمِىَ الحَلْف يمينًا لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف .

* * *

فائدة القَسَم فى القرآن

تمتاز اللُّغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض ، وللمخاطَب حالات مختلفة ، هى المسماة فى المعانى بأضرب الخبر الثلاثة : الابتدائى ، والطلبى ، والإنكارى .

فقد يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم فيُلقى إليه الكلام غفلاً من التأكيد ، ويسمى هذا الضرب : ابتدائيًا .

وقد يكون مترددًا فى ثبوت الحكم وعدمه ، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده ، ويسمى هذا الضرب : طلبيًّا .

وقد يكون منكرًا للحكم ، فيجب أن يؤكَد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفًا ، ويسمى هذا الضرب : إنكاريًّا .

والقَسَم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشىء فى النفس وتقويه ، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ، ومنهم الخصم الألد ، فالقَسَم فى كلام الله يُزيل الشكوك ، ويُحبط الشبهات ، ويُقيم الحجة ، ويُؤكد الأخبار ، ويقرر الحكم فى أكمل صورة .

* * *

(١) والباء لم ترد فى القرآن مع فعل القَسَم ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (النور : ٥٣) .

(٢) الليل : ١ (٣) الأنبياء : ٥٧

المُقْسَم به فى القرآن

يُقْسِم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته ، وقد أقسم الله تعالى بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع :

١ - فى قوله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ (١) .

٢ - وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ (٢) .

٣ - وقوله : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (٣) .

وفى هذه الثلاثة أمر الله نبيه ﷺ أن يُقْسِم به .

٤ - وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ (٤) .

٥ - وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥) .

٦ - وقوله : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٦) .

٧ - وقوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٧) .

وسائر القَسَم فى القرآن بمخلوقاته سبحانه ، كقوله : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ (٨) .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ (٩) .

وقوله : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (١٠) .

وقوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ (١١) .

---

(١) التغابن : ٧ — (٢) سبأ : ٣ — (٣) يونس : ٥٣
(٤) مريم : ٦٨ — (٥) الحجر : ٩٢ — (٦) النساء : ٦٥
(٧) المعارج : ٤٠ — (٨) الشمس : ١ - ٢ — (٩) الليل : ١ - ٣
(١٠) الفجر : ١ - ٢ — (١١) التكوير : ١٥

وقوله : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (١) ، وهذا هو الكثير فى القرآن .

ولله أن يحلف بما شاء ، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك ، فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَن حلف بغير الله فقد كفر - أو شرك » (٢) ، وإنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها ، وهو الله تعالى ، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها ليعتبر الناس بها ، وعن الحسن قال : « إن الله يُقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يُقسم إلا بالله » (٣) .

* * *

أنواع القَسَم

القَسَم : إما ظاهر ، وإما مضمر .

١ - **فالظاهر** : - هو ما صُرِّح فيه بفعل القَسَم ، وصُرِّح فيه بالمُقْسَم به ، ومنه ما حُذِفَ فيه فعل القَسَم كما هو الغائب اكتفاءً بالجار من الباء أو الواو أو التاء .

وقد أدخلت « لا » النافية » على فعل القَسَم فى بعض المواضع ، كقوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٤) فقيل : « لا » فى الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام ، والتقدير مثلاً : لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب ، ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوَّامة ، أنكم ستُبعثون ، وقيل : « لا » لنفى القَسَم كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكنى أسألك غير مُقْسم ، أتحسب أنَّا لا نجمع عظامك إذا تفرَّقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قَسَم ، وقيل : « لا » زائدة - وجواب القَسَم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ ﴾ ... إلخ ، والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

٢ - والقَسَم المضمَر هو ما لم يُصرَّح فيه بفعل القسم ولا بالمُقْسَم به ، وإنما تدل

---

(١) التين : ١ - ٢

(٢) رواه الترمذى وحسنه ، وصححه الحاكم .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم .

(٤) القيامة : ١ - ٢

عليه اللام المؤكدة التى تدخل على جواب القَسَم كقوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ (١) أى والله لتبلون .

* * *

أحوال المُقْسَم عليه

١ - المُقْسَم عليه يُراد بالقَسَم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .

٢ - وجواب القَسَم يُذكر تارة - وهو الغالب - وتارة يُحذف ، كما يُحذف جواب « لو » كثيرًا ، كقوله : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ (٢) وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب ، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم ، فالتقدير مثلاً : لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير ، فحذف جواب القَسَم كقوله : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (٣) فالمراد بالقَسَم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يُقْسِم الرب عز وجل به ، فلا يحتاج إلى جواب ، وقيل : الجواب محذوف ، أى : لتعذبن يا كفار مكة ، وقيل : مذكور ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٤) والصحيح المناسب أنه لا يحتاج إلى جواب .

وقد يُحذف الجواب لدلالة المذكور عليه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٥) فجواب القَسَم محذوف دلّ عليه قوله بعدَ : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ (٦) . . . إلخ ، والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

٣ - والماضى المثبت المتصرف الذى لم يتقدم معموله إذا وقع جوابًا للقَسَم تلزمه اللام و« قد » ، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا *

---

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) التكاثر : ٥ (٣) الفجر : ١ - ٥

(٤) الفجر : ١٤ (٥) القيامة : ١ - ٢ (٦) القيامة : ٣

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (١) فجواب القَسَم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ حُذفت منه اللام لطول الكلام .

ولذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ (٢) : إن الأحسن أن يكون هذا القَسَم مستغنيًا عن الجواب ، لأن القصد التنبيه على المُقْسَم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة ، وقيل : الجواب محذوف دلَّ عليه : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ أى أنهم ملعونون ، يعنى كفار مكة كما لُعِنَ أصحاب الأخدود ، وقيل : حُذِفَ صدره ، وتقديره : لقد قُتِلَ ، لأن الفعل الماضى إذا وقع جوابًا للقَسَم تلزمه اللام و« قد » ، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام ،كما سبق فى قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ .

٤ - ويُقْسِم الله على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها فتارة يُقْسِم على التوحيد كقوله : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (٣) .

وتارة يُقْسِم على أن القرآن حق كقوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤) .

وتارة على أن الرسول حق كقوله : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥) .

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، كقوله : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٦) .

---

(١) الشمس : ١ - ٩ (٢) البروج : ١ - ٤ (٣) الصافات : ١ - ٤

(٤) الواقعة : ٧٥ - ٧٧ (٥) يس : ١ - ٣ (٦) الذاريات : ١ - ٦

وتارة على حال الإنسان ، كقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (١) .

٥ - والقَسَم إما على جملة خبرية - وهو الغالب - كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (٢) ، وإما على جملة طلبية فى المعنى كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .. لأن المراد التهديد والوعيد .

* * *

القَسَم والشرط

يجتمع القَسَم والشرط فيدخل كل منهما على الآخر فيكون الجواب للمتقدم منهما - قَسَمًا كان أو شرطًا - ويُغنى عن جواب الآخر .

فإن تقدم القَسَم على الشرط كان الجواب للقَسَم وأغنى عن جواب الشرط، كقوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ (٤) إذ التقدير : والله لئن لم تنته .

واللام الداخلة على الشرط ليست بلام جواب القَسَم كالتى فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ (٥) ولكنها اللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبنى على قَسَم قبلها لا على الشرط ، وتسمى اللام المؤذنة ، وتسمى كذلك الموطئة ، لأنها وطأت الجواب للقَسَم ، أى مهدئة له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِن قُوتِلُواْ لا يَنصُرُونَهُمْ ، وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ (٦) ، وأكثر ما تدخل اللام الموطئة على « إن » الشرطية ، وقد تدخل على غيرها .

ولا يقال : إن الجملة الشرطية هى جواب القَسَم المقدَّر، فإن الشرط لا يصلح أن

(١) الليل : ١ - ٤ (٢) الذاريات : ٢٣ (٣) الحجر : ٩٢ - ٩٣
(٤) مريم : ٤٦ (٥) الأنبياء : ٥٧ (٦) الحشر : ١٢

يكون جوابًا ، لأن الجواب لا يكون إلا خبراً ، والشرط إنشاء ، وعلى هذا فإن قوله تعالى فى المثال الأول : ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ يكون جوابًا للقَسَم المقدَّر أغنى عن جواب الشرط .

ودخول اللام الموطئة للقَسَم على الشرط ليس واجبًا ، فقد تُحذف مع كون القَسَم مقدراً قبل الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

والذى يدل على أن الجواب للقَسَم لا للشرط دخول اللام فيه وأنه ليس بمجزوم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٢) ولو كانت جملة ﴿ لَا يَأْتُونَ ﴾ جوابًا للشرط لجزم الفعل .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٣) ، فاللام فى : ﴿ وَلَئِنْ ﴾ هى الموطئة للقَسَم ، واللام فى : ﴿ لإِلَى اللهِ ﴾ هى لام القَسَم ، أى الواقعة فى الجواب ، ولم تدخل نون التوكيد على الفعل (٤) للفصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور ، والأصل : لئن متم أو قتلتم لتحشرون إلى الله .

* * *

• إجراء بعض الأفعال مجرى القَسَم :

إذا كان القَسَم يأتى لتأكيد المُقْسَم عليه فإن بعض الأفعال يجرى مجراه إذا كان سياق الكلام فى معناه ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ (٥) ، فاللام فى قوله : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ لام القسم ، والجملة بعدها جواب القسم ، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف .

---

(١) المائدة : ٧٣ (٢) الإسراء : ٨٨ (٣) آل عمران : ١٥٨

(٤) يجب توكيد الفعل إذا كان مثبتًا مستقبلاً ، جواباً لقَسَم ، غير مفصول من لامه بفاصل ، وجواب القَسَم هنا وإن كان مثبتًا مستقبلاً ، فإنه قد فُصِلَ بينه وبين اللام بالجار والمجرور .

(٥) آل عمران : ١٨٧

وحمل المفسرون على هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُم لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّكُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (٣) .

* * *

(١) البقرة : ٨٣ (٢) البقرة : ٨٤ (٣) النور : ٥٥

- ٢٠ -

جدل القرآن (١)

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يُحتاج إلى برهان على ثبوتها ، أو دليل على صحتها ، ولكن المكابرة كثيرًا ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشُبَه تلبسها لباس الحق ، وتزينها فى مرآة العقل ، فهى فى حاجة إلى مقارعتها بالحجة ، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت ، والقرآن الكريم - وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة - وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله ، فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم فى أسلوب مقنع ، واستدلال ملزم ، وجدل محكم .

تعريف الجدل

والجدل والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم ، أصله من جدلتُ الحبل : أى أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه .

وقد ذكره الله فى القرآن على أنه من طبيعة الإنسان فى قوله : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ (٢) أى خصومة ومنازعة .

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التى تلين عريكتهم فى قوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) .

---

(١) أفرده من المتأخرين بالتصنيف العلامة سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم المعروف بابن أبى العباس الحنبلى نجم الدين الطوفى المتوفى سنة ٧١٦ هجرية .

(٢) الكهف : ٥٤ . (٣) النحل : ١٢٥

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة فى قوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

ومثل هذا من قبيل المناظرة التى تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ، وهى الطريقة التى يشتمل عليها جدل القرآن فى هداية الكافرين وإلزام المعاندين ، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة ، قال تعالى : ﴿ وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ (٢) .

* * *

طريقة القرآن فى المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيرًا من الأدلة والبراهين التى حاج بها خصومه فى صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع فى أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث .

ولم يسلك القرآن فى الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية فى المقدمات والنتائج التى يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلى على الجزئى فى قياس الشمول ، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر فى قياس التمثيل ، أو الاستدلال بالجزئى على الكلى فى قياس الاستقراء :

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون .

(ب) ولأن الاعتماد فى الاستدلال على ما فُطِرَت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكرى عميق أقوى أثرًا وأبلغ حجة .

(جـ) ولأن ترك الجلى من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفى نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة ، وهو على طريقة المناطقة ليس سليمًا من كل وجه ، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة فى القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) العنكبوت : ٤٦ (٢) الكهف : ٥٦

فى كتابه : « الرد على المنطقيين » : « وما يذكره النُظَّار من الأدلة القياسية التى يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شىء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإنَّا إذا قلنا : هذا محدَث ، وكل محدث فلا بد له من محدث ، أو ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق .. لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » .. وقال : « فبرهانهم لا يدل على شىء معين بخصوصه ، لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلى ، والكلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومَن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد أعرف الله » ، وقال : « وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات فى كتابه ، كقوله : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التى هى آية النهار .. وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ ﴾ (٤) فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه ، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه » .

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولى أو تمثيلى ، بل هى مستلزمة لمدلولها عينًا ، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول ، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بيِّن واضح كانتقال الذهن

---

(١) البقرة : ١٦٤
(٢) الرعد : ٤
(٣) يونس : ٢٤ ، وسور أخرى .
(٤) الإسراء : ١٢

من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها ، وهذا النوع من الاستدلال بدهى يستوى فى إدراكه كل العقول .

قال الزركشى (١) : « اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما بين برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ . . الآية (٢) .

والثانى : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن مَن استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزًا ، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق ، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء .

وعلى هذا حُمِلَ الحديث المروى : « إن لكل آية ظهرًا وبطنًا ولكل حرف حدًا ومطلعًا » لا على ما ذهب إليه الباطنية ، ومن هذا الوجه كل مَن كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أُولى العقل ، ومرة إلى السامعين ، ومرة إلى المفكرين ، ومرة إلى المتذكرين ، تنبيهًا أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) وغيرها من الآيات .

واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين . . . ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد ، بدلالة التمانع

---

(١) انظر : « البرهان » (٢/ ٢٤ وما بعدها) ، بتصرف .

(٢) إبراهيم : ٤ (٣) الرعد : ٤

المشار إليه فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) . لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ، ولا يتسق على إحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم ، وأراد الآخر إماتته ، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، والإله لا يكون عاجزاً .

* * *

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه فى ألوهيته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير فى القرآن .

فمنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، فَلا تَجْعَلُواْ للهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، الرَّحْمَنُ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

(ب) ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد ، ولهذا صور مختلفة :

١ - منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التى يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق فى مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ، بَلْ لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ، أَمْ هُمُ

---

(١) الأنبياء : ٢٢ (٢) البقرة : ٢١ - ٢٢ (٣) البقرة : ١٦٣ - ١٦٤

الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

٢ - الاستدلال بالمبدأ على المعاد ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (٤) - ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (٥) .

٣ - إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها - كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٦) ردا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ (٧) .

٤ - السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم ، كقوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ،

---

(١) الطور : ٣٥ - ٤٣ (٢) سورة ق : ١٥ (٣) القيامة : ٣٦ - ٤٠
(٤) الطارق : ٥ - ٨ (٥) فصلت : ٣٩ (٦) الأنعام : ٩١
(٧) الأنعام : ٩١

قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونى بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَٰذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

٥ - إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد - كقوله تعالى - ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) فنفى التولّد عنه لامتناع التولّد من شيء واحد ، وأن التولّد إنما يكون من اثنين ، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضاً فإنه خَلَق كل شيء ، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولّد عنه شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالمًا أن يكون كالأمور الطبيعية التى يتولّد عنها الأشياء بلا شعور - كالحار والبارد - فلا يجوز إضافة الولد إليه (٣) .

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمناظرة الأنبياء مع أممهم ، أو فريق المؤمنين مع المنافقين ، وما شابه ذلك .

* * *

---

(١) الأنعام : ١٤٣ - ١٤٤ (٢) الأنعام : ١٠٠ - ١٠١

(٣) هذه الفقرة من كتاب « الرد على المنطقيين » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهى رائعة فى الاستدلال .

- ٢١ -
قصص القرآن

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع ، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس ، والموعظة الخطابية تسرد سردًا لا يجمع العقل أطرافها ولا يعى جميع ما يلقى فيها ، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها ، ويرتاح المرء لسماعها ، ويصغى إليها بشوق ولهفة ، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات ، وقد أصبح أدب القصة اليوم فنًا خاصًا من فنون اللُّغة وآدابها ، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل ، ويصوِّره في أبلغ صورة : قصص القرآن الكريم .

معنى القصص

القص : تتبع الأثر ، يقال : قصصتُ أثره : أي تتبعته ، والقصص مصدر ، قال تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (١) أي رجعا يقصان الأثر الذى جاءا به ، وقال على لسان أم موسى : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ (٢) أي تتبعى أثره حتى تنظرى مَن يأخذه ، والقصص كذلك : الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (٤) والقصة : الأمر ، والخبر ، والشأن ، والحال .

وقصص القرآن : أخباره عن أحوال الأمم الماضية ، والنبوَّات السابقة ، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضى ، وتاريخ الأمم ، وذكر البلاد والديار ، وتتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه .

* * *

(١) الكهف : ٦٤
(٢) القصص : ١١
(٣) آل عمران : ٦٢
(٤) يوسف : ١١١

أنواع القصص فى القرآن

والقصص فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء : وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ، والمعجزات التى أيدهم الله بها ، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمُكَذِّبين ، كقصص نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام .

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم : كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وطالوت وجالوت ، وابنى آدم ، وأهل الكهف ، وذى القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن رسول الله ﷺ : كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى التوبة ، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ، ونحو ذلك .

* * *

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآنى فوائد نجمل أهمها فيما يأتى :

١ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التى بُعِثَ بها كل نبى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

٢ - تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنُصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) هود : ١٢٠

٣ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم .

٤ - إظهار صدق محمد ﷺ فى دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال .

٥ - مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهُدى ، وتحديه لهم بما كان فى كتبهم قبل التحريف والتبديل ، كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

٦ - والقصص ضرب من ضروب الأدب ، يصغى إليه السمع ، وترسخ عبره فى النفس : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

* * *

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذى تكرر فى غير موضع ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها فى القرآن ، وتُعرض فى صور مختلفة فى التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، وما شابه ذلك ، ومن حكمة هذا :

١ - **بيان بلاغة القرآن فى أعلى مراتبها** : فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة ، والقصة المتكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر ، وتُصاغ فى قالب غير القالب ، ولا يمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد فى نفسه معان لا تحصل له بقراءتها فى المواضع الأخرى .

٢ - **قوة الإعجاز** : فإيراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى .

٣ - **الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبَرها فى النفس** : فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام ، كما هو الحالَ فى قصة موسى مع فرعون ، لأنها تمثل

---

(١) آل عمران : ٩٣ (٢) يوسف : ١١١

الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لا تُكَرَّر فى السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

٤ - **اختلاف الغاية التى تُساق من أجلها القصة** : فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام ، وتُبرز معان أخرى فى سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .

❊ ❊ ❊

القصة فى القرآن حقيقة لا خيال

ومن الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين فى مصر قدَّم رسالة لنيل درجة « الدكتوراة » كان موضوعها : « الفن القصصى فى القرآن » [(١)] أثارت جدلاً طويلاً سنة ١٣٦٧ هجرية ، وكتب عنها أحد أعضاء اللَّجنة الذين اشتركوا فى مناقشة الرسالة - وهو الأستاذ أحمد أمين - تقريرًا بعث به إلى عميد كلية الآداب ، ونُشِرَ فى مجلة « الرسالة » وقد تضمن التقرير نقدًا لاذعًا لما كتبه الطالب الجامعى ، وإِن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه ، وصدَّر الأستاذ « أحمد أمين » تقريره بالعبارة الآتية :

« وقد وجدتها رسالة ليست عادية ، بل هى رسالة خطيرة ، أساسها أن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ ، والواقع أن محمدًا فنان بهذا المعنى » ، ثم قال : « وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها ، وإنى أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة ، توضح مرامى كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها » ثم أورد الأستاذ « أحمد أمين » أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملة [(٢)] ، كادعاء صاحب الرسالة أن القصة فى القرآن لا تلتزم الصدق التاريخى ، وإنما تتجه كما يتجه الأديب فى تصوير الحادثة تصويرًا فنيًا ، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا فى عد القصص القرآنى تاريخًا يُعتمد عليه . .

---

(١) هو الدكتور محمد أحمد خلف الله .

(٢) انظر نقد كتاب « الفن القصصى فى القرآن » - للأستاذ محمد الخضر حسين - بلاغة القرآن (ص٩٤) .

والمسلم الحق هو الذى يؤمن بأن القرآن كلام الله ، وأنه منزه عن ذلك التصوير الفنى الذى لا يعنى فيه بالواقع التاريخى ، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تُصاغ فى صور بديعة من الألفاظ المنتقاه ، والأساليب الرائعة .

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة فى الأدب ، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذى يعتمد على التصور ، وأنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر الشوق إليها ، ورغبت النفس فيها ، واستمتعت بقراءتها ، ثم قاس القصص القرآنى على القصة الأدبية .

وليس القرآن كذلك ، فإنه تنزيل من عليم حكيم ، ولا يرد فى أخباره إلا ما يكون موافقًا للواقع ، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زورًا ويعدونه من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية ، فكيف يسوغ لعاقل أن يلصق الزور بكلام ذى العزة والجلال ؟

والله تعالى هو الحق : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ ﴾ (١) .

وأرسل رسوله بالحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢) .

﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالحَقِّ مِن رَبِّكُمْ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (٥) .

﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ (٦) .

وما قصَّه الله تعالى فى القرآن هو الحق : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (٧) .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (٨) .

* * *

(١) الحج : ٦٢ — (٢) فاطر : ٢٤ — (٣) فاطر : ٣١

(٤) النساء : ١٧٠ — (٥) المائدة : ٤٨ — (٦) الرعد : ١

(٧) الكهف : ١٣ — (٨) القصص : ٣

أثر القصص القرآنى فى التربية والتهذيب

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف - وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر ، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكل ، ويرتاد العقل عناصرها فيجنى من حقولها الأزاهير والثمار .

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة ، وإلى أمد قصير ، ولذا كان الأسلوب القصصى أجدى نفعًا ، وأكثر فائدة .

والمعهود - حتى فى حياة الطفولة - أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية ، ويصغى إلى رواية القصة ، وتعى ذاكرته ما يُرْوَى له ، فيحاكيه ويقصه .

هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغى للمربين أن يفيدوا منها فى مجالات التعليم ، لا سيما التهذيب الدينى ، الذى هو لب التعليم ، وقوام التوجيه فيه .

وفى القصص القرآنى تربة خصبة تساعد المربين على النجاح فى مهمتهم ، وتمدهم بزاد تهذيبى ، من سيرة النبيين ، وأخبار الماضين وسُنَّة الله فى حياة المجتمعات ، وأحوال الأمم ، ولا تقول فى ذلك إلا حقًا وصدقًا .

ويستطيع المربى أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذى يلائم المستوى الفكرى للمتعلمين ، فى كل مرحلة من مراحل التعليم ، وقد نجحت مجموعة القصص الدينى للأستاذين « سيد قطب والسحار » فى تقديم زاد مفيد نافع لصغارنا نجاحًا معدوم النظير ، كما قدَّم « الجارم » القصص القرآنى فى أسلوب أدبى بليغ أعلى مستوى ، وأكثر تحليلاً وعمقًا ، وحبَّذا لو نهج آخرون هذا النهج التربوى السديد .

* * *

- ٢٢ -
ترجمة القرآن

يتوقف نجاح الدعوة إلى حد كبير على التقارب بين الداعية وأمته ، فالداعية الذى ينبت من صميم البيئة يكون على دراية كاملة بمسالك الغواية ودروب الجهالة التى يغشاها قومه ، يعرف نفوسهم والأبواب التى يطرقها منها حتى تتفتح لتعاليم دعوته ، وتهتدى بهداها ، والتخاطب بينهما بلسان واحد رمز للتجانس الاجتماعى فى جميع صوره ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١) .

وقد نزل القرآن الكريم على الرسول العربى بلسان عربى مبين ، فكانت هذه الظاهرة ضرورة اجتماعية لنجاح رسالة الإسلام ، ومنذ ذلك الحين أصبحت اللُّغة العربية جزءًا من كيان الإسلام ، وأساسًا للتخاطب فى إبلاغ دعوته ، وكانت بعثة رسولنا ﷺ إلى الإنسانية كلها ، وأعلن ذلك القرآن فى غير موضع : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٣) .

ونشأت نواة الدولة الإسلامية فى جزيرة العرب ، ولا شك أن اللُّغة تحيا بحياة أمتها وتموت بموتها ، فكانت نشأة الدولة الإسلامية على هذا النحو حياة للغة العرب ، فالقرآن وحى الإسلام ، والإسلام دين الله المفروض ، ولن يتأتى معرفة أصوله وأسسه إلا إذا فُهِمَ القرآن بلغته ، فأخذت موجة الفتح الإسلامى تمتد إلى الألسنة الأخرى الأعجمية ، فتُعَرِّبها بالإسلام ، وصار لزامًا على كل مَن يدخل فى حوزة هذا الدين الجديد أن يستجيب له فى لغة كتابه باطنًا وظاهرًا ، حتى يستطيع القيام

---

(١) إبراهيم : ٤ (٢) الأعراف : ١٥٨ (٣) سبأ : ٢٨

بواجباته ، ولم يكن هناك حاجة إلى ترجمة القرآن له ما دام القرآن قد ترجم لسانه وعَرَّبه إيمانًا وتسليمًا .

* * *

معنى الترجمة

والترجمة تُطلق على معنيين :

أولهما : الترجمة الحَرفية : وهى نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللُّغة الأخرى بحيث يكون النظم موافقًا للنظم ، والترتيب موافقًا للترتيب .

ثانيهما : الترجمة التفسيرية أو المعنوية : وهى بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه .

والذين على بصر باللُّغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل والإحاطة بجميع معناه ، فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى فى ترتيب أجزاء الجملة ، فالجملة الفعلية فى اللُّغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل فى الاستفهام وغيره ، والمضاف مُقَدَّم على المضاف إليه ، والموصوف مقدَّم على الصفة ، إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلاً : كـ «لجين الماء» ، أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولها : كـ «عظيم الأمل» وليس الشأن كذلك فى سائر اللُّغات .

والتعبير العربى يحمل فى طيَّاته من أسرار اللُّغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى ، فإن الألفاظ فى الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلاً عن التراكيب .

والقرآن الكريم فى قمة العربية فصاحة وبلاغة ، وله من خواص التراكيب وأسرار الأساليب ولطائف المعانى ، وسائر آيات إعجازه ما لا يستقل بأدائه لسان .

* * *

حكم الترجمة الحَرفية

ولهذا لا يجد المرء أدنى شبهة فى حُرمة ترجمة القرآن ترجمة حَرفية ، فالقرآن كلام الله المنزَّل على رسوله المُعجِز بألفاظه ومعانيه ، المُتَعَبد بتلاوته ، ولا يقول أحد

من الناس إن الكلمة من القرآن إذا تُرجمت يقال فيها إنها كلام الله ، فإن الله لم يتكلم إلا بما تتلوه بالعربية ، ولن يتأتى الإعجاز بالترجمة ، لأن الإعجاز خاص بما أُنْزِلَ باللُّغة العربية - والذى يُتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربى المبين بألفاظه وحروفه وترتيب كلماته .

فترجمة القرآن الحَرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللُّغات وأساليبها وتراكيبها تُخْرِج القرآن عن أن يكون قرآنًا .

* * *

الترجمة المعنوية

القرآن الكريم - وكذا كل كلام عربى بليغ - له معان أصلية ، ومعان ثانوية .

والمراد بالمعانى الأصلية : المعانى التى يستوى فى فهمها كل مَنْ عرف مدلولات الألفاظ المفردة وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية .

والمراد بالمعانى الثانوية : خواص النظم التى يرتفع بها شأن الكلام ، وبها كان القرآن مُعْجِزًا .

فالمعنى الأصلى لبعض الآيات قد يوافق فيه منثور كلام العرب، أو منظومه ، ولا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن ، فإن إعجازه ببديع نظمه وروعة بيانه ، أى بالمعنى الثانوى ، وإياه عَنِيَ الزمخشرى فى « كشافه » بقوله : « إن فى كلام العرب- خصوصًا القرآن - من لطائف المعانى ما لا يستقل بأدائه لسان » .

* * *

حكم الترجمة المعنوية

وترجمة معانى القرآن الثانوية أمر غير ميسور ، إذ أنه لا توجد لغة توافق اللُّغة العربية فى دلالة ألفاظها على هذه المعانى المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب ، وذلك ما لا يسهل على أحد ادعاؤه ، وهو ما يقصده الزمخشرى من عبارته السابقة ، فوجوه البلاغة القرآنية فى اللُّفظ أو التركيب ، تنكيرًا وتعريفًا ، أو تقديمًا وتأخيرًا ، أو ذكرًا وحذفًا ، إلى غير ذلك مما تسامت به لغة القرآن ، وكان له وقعه

فى النفوس - هذه الوجوه فى بلاغة القرآن لا يفى بحقها فى أداء معناها لغة أخرى ، لأن أى لغة لا تحمل تلك الخواص .

أما المعانى الأصلية فهى التى يمكن نقلها إلى لغة أخرى ، وقد ذكر الشاطبى فى الموافقات المعانى الأصلية والمعانى الثانوية ثم قال : « إن ترجمة القرآن على الوجه الأول - يعنى النظر إلى معانيه الأصلية - ممكن ، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معانيه للعامة ومن ليس لهم فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزًا باتفاق أهل الإسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى » .

ومع هذا فإن ترجمة المعانى الأصلية لا تخلو من فساد ، فإن اللَّفظ الواحد فى القرآن قد يكون له معنيان أو معان تحتملها الآية فيضع المترجم لفظًا يدل على معنى واحد حيث لا يجد لفظًا يشاكل اللَّفظ العربى فى احتمال تلك المعانى المتعددة .

وقد يستعمل القرآن اللَّفظ فى معنى مجازى فيأتى المترجم بلفظ يرادف اللَّفظ العربى فى معناه الحقيقى ، ولهذا ونحوه وقعت أخطاء كثيرة فيما تُرْجِمَ لمعانى القرآن .

وما ذهب إليه الشاطبى واعتبره حُجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى ليس على إطلاقه ، فإن بعض العلماء يخص هذا بمقدار الضرورة فى إبلاغ الدعوة ، بالتوحيد وأركان العبادات ، ولا يتعرض لما سوى ذلك ، ويؤمر مَن أراد الزيادة بتعلم اللِّسان العربى .

* * *

الترجمة التفسيرية

ويحق لنا أن نقول : إن علماء الإسلام ، إذا قاموا بتفسير للقرآن ، يتوخى فيه أداء المعنى القريب الميسور الراجح ، ثم يترجم هذا التفسير بأمانة وبراعة ، فإن هذا يقال فيه : « ترجمة تفسير القرآن » أو « ترجمة تفسيرية » بمعنى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، ولا بأس بذلك ، فإن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها وألوانها : « وكان النبى يُبعث إلى قومه

خاصة وبُعِثْتُ إلى الناس كافة » (١) وشرط لزوم الرسالة البلاغ - والقرآن الذى نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمم العربية مُلْزِمًا لها ، ولكن سائر الأمم التى لا تُحسن العربية ، أو لا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها ، وقد عرفنا قبلُ استحالة الترجمة الحَرفية وحرمتها ، واستحالة ترجمة المعانى الثانوية ، ومشقة ترجمة المعانى الأصلية وما فيها من أخطار ، فلم يبق إلا أن يترجم تفسير القرآن الذى يتضمن أسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب وصريح السُّنَّة إلى لسان كل قبيل حتى تبلغهم الدعوة وتلزمهم الحجة ، وترجمة تفسير للقرآن على نحو ما ذكرنا يصح أن نسميها بالترجمة التفسيرية ، وهى تختلف عن الترجمة المعنوية وإن كان الباحثون لا يفرقون بينهما ، فإن الترجمة المعنوية توهم أن المترجم أخذ معانى القرآن من أطرافها ونقلها إلى اللُّغة الأجنبية ، كما يقال فى ترجمة غيره : ترجمة طبق الأصل ، فالمفسِّر يتكلم بلهجة المبيِّن لمعنى الكلام على حسب فهمه ، فكأنه يقول للناس : هذا ما أفهمه من الآية ، والمترجم يتكلم بلهجة مَن أحاط بمعنى الكلام وصبَّه فى ألفاظ لغة أخرى ، وشتان بين الأمرين ، فالمفسِّر يقول فى تفسير الآية : يعنى كذا ، ويذكر فهمه الخاص ، والمترجم يقول : معنى هذا الكلام هو عين معنى الآية ، وقد عرفنا ما فى ذلك .

وينبغى أن يؤكَد فى الترجمة التفسيرية أنها ترجمة لفهم شخصى خاص ، لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعانى القرآن ، وإنما تتضمن ما أدركه المفسِّر منها ، وبهذا تكون ترجمة للعقيدة الإِسلامية ومبادئ الشريعة كما تُفهم من القرآن .

وإذا كان إبلاغ الدعوة من واجبات الإِسلام فإن ما يتوقف على هذا البلاغ من دراسة اللُّغات ونقل أصول الإِسلام إليها واجب كذلك ، كما أن معرفتنا لهذه اللُّغات بالقدر الضرورى تمكننا من دراسة كتبها للرد على المبشرين والمستشرقين الذين غمزوا عود الإِسلام من بعيد أو قريب ، وهذا هو ما عناه شيخ الإِسلام ابن تيمية فى كتابه « العقل والنقل » عندما قال : « وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم

(١) من حديث : « أعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهن أحد قبلى . . . » . فى « الصحيحين » وغيرهما .

ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعانى صحيحة - كمخاطبة العجم من الروم والفُرس والتُرك بلغتهم وعرفهم ، فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه » ثم قال : « ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ويترجم بالعربية ، كما أمر النبى ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك ، حيث لم يأمن اليهود عليه » .

وإذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقى ولو للمعانى الأصلية لا تتيسر فى جميع آيات القرآن ، وإنما المتيسر الترجمة على معنى التفسير كان من الضرورى إشعار القارئ بذلك ، ومن وسائله كتابة جمل فى حواشى الصحائف يبيِّن بها أن هذا أحد وجوه- أو أرجح وجوه - تحتملها الآية « ولو قامت جماعة ذات نيات صالحة وعقول راجحة ، وتولت نقل تفسير القرآن إلى بعض اللُّغات الأجنبية ، وهى على بيِّنة من مقاصده - وعلى رسوخ فى معرفة تلك اللُّغات ، وتحامت الوجوه التى دخل منها الخلل فى التراجم السائرة اليوم فى أوروبا لفتحت لدعوة الحق سبيلاً كانت مقفلة ، ونشرت الحنيفية السمحة فى بلاد طافحة بالغواية قاتمة » (١) .

* * *

القراءة فى الصلاة بغير العربية

يختلف العلماء فى القراءة فى الصلاة بغير العربية إلى مذهبين :

أحدهما : الجواز مطلقًا أو عند العجز عن النطق بالعربية .

وثانيهما : أن ذلك محظور ، والصلاة بهذه القراءة غير صحيحة .

والمذهب الأول هو مذهب الأحناف ، فإنه يُرْوَى عن أبى حنيفة أنه كان يرى جواز القراءة فى الصلاة باللُّغة الفارسية ، وبنى على هذا بعض أصحابه جوازها بالتركية والهندية وغيرها من الألسنة ، ولعلهم يرون فى ذلك أن القرآن اسم للمعانى التى تدل عليها الألفاظ العربية ، والمعانى لا تختلف باختلاف ما قد يتعاقب عليها من الألفاظ واللُّغات .

---

(١) « بلاغة القرآن » (ص٢١) .

وقيَّد الصاحبان : أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، هذا بما تدعو إليه الضرورة ، فأجازا للعاجز عن العربية القراءة فى الصلاة باللِّسان الأعجمى دون القادر على القراءة بها ، قال فى « معراج الدراية » : « إنما جوَّزنا القراءة بترجمة القرآن للعاجز إذا لم يخل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فالإتيان به أولى من الترك مطلقًا ، إذ التكليف بحسب الوسع » .

ويُرْوَى أن أبا حنيفة رجع عن الإطلاق الذى نُقِلَ عنه .

والمذهب الثانى هو ما عليه الجمهور ، فقد منع المالكية والشافعية والحنابلة القراءة بترجمة القرآن فى الصلاة ، سواء أكان المصلى قادرًا على العربية أم عاجزًا ، لأن ترجمة القرآن ليست قرآنًا ، إذ القرآن هو النظم المُعْجِز الذى هو كلام الله ، والذى وصفه تعالى بكونه عربيا ، وبالترجمة يزول الإعجاز ، وليست الترجمة كلام الله .

قال القاضى أبو بكر بن العربى - وهو من فقهاء المالكية - فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ (١) . قال علماؤنا : هذا يُبطل قول أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، إن ترجمة القرآن بإبدال اللُّغة العربية منه بالفارسية جائز ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ ؟ نفى أن يكون للعُجمة إليه طَريق - فكيف يُصرف إلى ما نفى الله عنه ؟ ثم قال : إن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب ، فلو قُلِبَ إلى غير هذا لما كان قرآنًا ولا بيانًا ولا اقتضى إعجازًا » .

وقال الحافظ ابن حجر - وهو من فقهاء الشافعية - فى « فتح البارى » : « إن كان القارئ قادرًا على تلاوته باللِّسان العربى فلا يجوز له العدول عنه ، ولا تُجزئ صلاته - أى بقراءة ترجمته - وإن كان عاجزًا » ثم ذكر أن الشارع قد جعل للعاجز عن القراءة بالعربية بدلاً وهو الذِكر .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو من فقهاء الحنابلة - وإن كانت له اجتهاداته - : « وأما الإتيان بلفظ يبيِّن المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلاً ، ولهذا

---

(١) فصلت : ٤٤

كان أئمة الدين على أنه لا يجوز أن يُقرأ بغير العربية ، لا مع القدرة عليها ولا مع العجز عنها ، لأن ذلك يُخرجه عن أن يكون هو القرآن المنزَّل » (١) .

ويقول ابن تيمية فى كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » عند الحديث عن اختلاف الفقهاء فى أذكار الصلاة ، أتقال بغير العربية أم لا ؟ : « فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور ، وهذا هو الصواب الذى لا ريب فيه ، بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو مما يقوم به الإعجاز » ، وقد خص السورة أو ما يقوم به الإعجاز إشارة إلى أقل ما وقع به التحدى .

والدين يوجب على معتنقيه تعلم العربية لأنها لغة القرآن ومفتاح فهمه ، قال : ابن تيمية كذلك فى « الاقتضاء » : « وأيضاً فإن نفس اللُّغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسُّنَّة فرض ، ولا يفُهمان إلا بفهم اللُّغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

أما اختلاف الأحناف فى جواز الصلاة بترجمة القرآن ، فالمجيزون يرون إباحة هذا عند العجز على أنه رُخصة ، وهم متفقون على أن الترجمة لا تسمى قرآنًا ، فهى لمجرد الإجزاء فى الصلاة ، ومثلها مثل ذِكر الله عند غير الحنفية .

والذِكر فى الصلاة مُخْتَلَف فيه ، سواء أكان واجبًا كتكبيرة الإحرام أم غير واجب ؟ فقد منع ترجمة الأذكار الواجبة مالك وإسحاق وأحمد فى أصح الروايتين ، وأباحها أبو يوسف ومحمد والشافعى ، وسائر الأذكار لا يُترجم عند مالك وإسحاق وبعض أصحاب الشافعى ، ومتى فصل بالترجمة بطلت صلاته » ونص الشافعى على الكراهة وهو قول أصحاب أحمد إذا لم يُحسن العربية .

* * *

● **قوة الأمة الإسلامية هى سبيل انتصار الإسلام وسيادة لغة القرآن :**

وننتهى من هذا البحث إلى أن القرآن لا يمكن ولا يجوز أن يترجم ترجمة حَرفية ، وأن ترجمة المعانى الأصلية وإن كانت ممكنة فى بعض الآيات الواضحة المعنى فإنها

---

(١) « بلاغة القرآن » (ص١٥) .

لا تخلو من فساد ، وأن ترجمة المعانى الثانوية غير ممكنة ، لأن وجوه البلاغة القرآنية لا تؤديها ألفاظ بأى لغة أخرى .

بقى أن يُفَسِّر القرآن ، وأن يُترجم تفسيره لإبلاغ دعوته ، قال القفَّال - من كبار علماء الشافعية : « عندى أنه لا يقدر أحد على أن يأتى بالقرآن بالفارسية ، قيل له : فإذن لا يقدر أحد أن يُفَسِّر القرآن ، قال : ليس كذلك ، لأنه هناك يجوز أن يأتى ببعض مراد الله ويعجز عن بعضه ، أما إذا أراد أن يقرأها بالفارسية فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله » .

وترجمة التفسير تكون ضرورة بقدر الحاجة إلى إبلاغ دعوة الإسلام إلى الشعوب غير الإسلامية ، قال الحافظ ابن حجر : « فمَن دخل الإسلام أو أراد الدخول فيه فقرئ عليه القرآن فلم يفهمه فلا بأس أن يُعرَّب له لتعريف أحكامه ، أو لتقوم عليه الحجة فيدخل فيه » (١) .

ولقد كان المسلمون فيما سَلَفَ يقتحمون للسيادة كل وعر ويركبون لإظهار دين الله كل خطر ، ويلبسون من برود البطولة والعدل وكرم الأخلاق ما يملأ عيون مخالفيهم مهابة وإكبارًا ، وكانت اللُّغة العربية تجر رداءها أينما رفعوا رايتهم ، وتنتشر فى كل واد وطئته أقدامهم ، فلم يشعروا فى دعوتهم إلى الإسلام بالحاجة إلى نقل معانى القرآن إلى اللُّغات الأجنبية ، وربما كان عدم نقلها إلى غير العربية وهم فى تلك العزة والسلطان من أسباب إقبال غير العرب على معرفة لسان العرب ، حتى صارت أوطان أعجمية إلى النطق بالعربية » (٢) .

والظاهرة التى نشاهدها الآن فى ضرورة تعلم اللُّغات الأجنبية للأمة العربية حتى تتمكن من إرسال بعثاتها العلمية إلى جامعات الدول الأخرى ، أو دراسة أمهات الكتب للعلوم الكونية فى جامعاتها لأنها بلغة أجنبية لمؤلفين أجانب - هذه الظاهرة دعت إليها الحاجة إلى العلم والثقافة ، ونحن نراها تنشر سيطرتها على تفكير الكثير

(١) « فتح البارى » ، باب : ما يجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية .
(٢) « بلاغة القرآن » (ص١٨) .

وتحدد اتجاهه فى الحياة ، وتصل إلى درجة الولوع بها والشغف والتوسع فى فنونها ، وقد كان لها الأثر البالغ فى الأخلاق والعادات والتقاليد مما جعل حياتنا العامة فى شتَّى صورها تخرج عن سمت الإسلام وطابع فضائله ، ولم تكن الأمم الأخرى فى حاجة إلى ترجمة كتبها إلى اللُّغة العربية لما لها من المكانة العلمية فلو ظلت دولة الإسلام فى طريق نهضتها الأولى علمًا وثقافة وسياسة وخُلُقًا وقوة وسلطانًا ومهابة لرمقها العالَم من جميع أطراف المعمورة ، وتطلَّع إلى دراسة اللُّغة العربية لينهل من معين نتاج الإسلام الفكرى ، ويروى ظمأه من معارفه ، ويستظل بسلطانه ، ويحتمى فى سيادته ، ولرأى فى هذا حاجته بمثل ما نرى نحن اليوم حاجتنا إلى لغته .

فالحديث عن ترجمة القرآن من مظاهر ضعف دولته ، وحرى بنا أن يتجه نظرنا إلى بذل جهودنا فى تكوين دولة القرآن وتوطيد دعائم نهضتها على أساس من الإيمان والعلم والمعرفة ، فهى وحدها الكفيلة بالسيطرة الروحية على أجناس البشر وتعريب ألسنتهم ، وإذا كان الإسلام هو دين الإنسانية كافة ، فالشأن فى لغته حين نعمل على تحقيق ما كتبه الله له ولأمته من العزة أن تكون كذلك .

* * *

- ٢٣ -

التفسير والتأويل

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية ، وعلى فقه معناه ومعرفة أسراره والعمل بما فيه تتوقف سعادتها ، ولا يستوى الناس جميعًا فى فهم ألفاظه وعباراته مع وضوح بيانه وتفصيل آياته ، فإن تفاوت الإدراك بينهم أمر لا مراء فيه فالعامى يدرك من المعانى ظاهرها ومن الآيات مجملها ، والذكى المتعلم يستخرج منها المعنى الرائع ، وبين هذا وذاك مراتب فهم شتَّى ، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتمامًا بالغًا فى الدراسة لتفسير غريب ، أو تأويل تركيب .

* * *

معنى التفسير والتأويل

التفسير فى اللُّغة : تفعيل من الفَسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول ، وفعله : كضرب ونصر ، يقال : فسر الشىء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسرًا ، وفسره : أبانه ، والتفسير والفسر : الإبانة وكشف المغطى ، وفى لسان العرب : الفسر كشف المغطى ، والتفسير كشف المراد عن اللَّفظ المشكل ، وفى القرآن : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (١) أى بيانًا وتفصيلاً والمزيد من الفعلين أكثر فى الاستعمال .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى تفصيلاً .

وقال بعضهم : هو مقلوب من « سفر » ومعناه أيضاً : الكشف ، يقال : سفرت المرأة سفورًا : إذا ألقت خمارها عن وجهها ، وهى سافرة ، وأسفر الصبح : أضاء ، وإنما بنوه على التفعيل ، لأنه للتكثير ، كقوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ (٣) ، فكأنه يتبع سورة بعد سورة ، وآية بعد أخرى .

---

(١) الفرقان : ٣٣ (٢) البقرة : ٤٩ (٣) يوسف : ٢٣

وقال الراغب : الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما ، لكن جُعِلَ الفسر لإظهار المعنى المعقول ، وجُعِلَ السفر لإبراز الأعيان للأبصار ، فقيل : سفرت المرأة عن وجهها ، وأسفر الصبح .

والتفسير فى الاصطلاح : عرَّفه أبو حيان بأنه : « علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك » .

ثم خرَّج التعريف فقال : فقولنا : « علم » ، هو جنس يشمل سائر العلوم ، وقولنا : « يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن » ، هذا هو علم القراءات ، وقولنا : « ومدلولاتها » ، أى مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللُّغة الذى يُحتاج إليه فى هذا العلم ، وقولنا : « وأحكامها الإفرادية والتركيبية » هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، وقولنا : « ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب » ، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة ، وما دلالته عليه بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يعمل على غير الظاهر ، وهو المجاز ، وقولنا : « وتتمات لذلك » ، هو معرفة النسخ وسبب النزول ، وقصة توضيح بعض ما انبهم فى القرآن ونحو ذلك .

وقال الزركشى : التفسير : علم يُفهم به كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد ﷺ : وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه [1] .

والتأويل فى اللُّغة : مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع إلى الأصل ، يقال : آل إليه أولاً ومآلاً : رجع . . ويقال : أوَّل الكلام تأويلاً وتأوَّله : دبره وقدَّره وفسَّره ، وعلى هذا : فتأويل الكلام فى الاصطلاح له معنيان :

١ - **تأويل الكلام** : بمعنى ما أوَّله إليه المتكلم أو ما يؤوَّل إليه الكلام ويرجع ، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التى هى عين المقصود ، وهو نوعان : إنشاء وإخبار ، ومن الإنشاء : الأمر .

---

(١) « الإتقان » (٢/ ١٧٤) .

فتأويل الأمر : هو الفعل المأمور به ، ومن ذلك ما رُوِىَ عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللَّهُم وبحمدك اللَّهمَّ اغفر لى ، يتأوَّل القرآن » [1] ، تعنى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [2] .

وتأويل الأخبار : هو عين المخبر إذا وقع ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [3] فقد أخبر أنه فصَّل الكتاب ، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله ، أى مجىء ما أخبر القرآن بوقوعه ، من القيامة وأشراطها ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك ، فحينئذ يقولون : ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ؟ .

٢ - **تأويل الكلام** : أى تفسيره وبيان معناه ، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » بقوله : « القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ، وبقوله : « اختلف أهل التأويل فى هذه الآية » فإن مراده التفسير .

ذلك هو معنى التأويل عند السلَفَ :

والتأويل فى عُرف المتأخرين : هو صرف اللَّفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به - وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يُراد بلفظ التأويل فى القرآن عند السلَف .

هذا ومن العلماء من يُفَرِّق بين المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، للتفاوت بينها لغة وإن كانت متقاربة ، وقد نقل « الزركشى » هذا [4] .

قال ابن فارس : معانى العبارات التى يُعَبَّر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، وهى وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) النصر : ٣
(٣) الأعراف : ٥٢ - ٥٣
(٤) انظر : « البرهان » (٢/١٤٦ - بتصرف) .

فأما المعنى : فهو القصد والمراد ، يقال : عنيتُ بهذا الكلام كذا ، أى قصدُت وعمدتُ ، وهو مشتق من الإظهار ، يقال : عنت القِربة ، إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته ، ومن هذا : عنوان الكتاب .

وأما التفسير فى اللُّغة : فهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف ، وقال ابن الأنبارى : قول العرب : فسرت الدابة وفسرتها ، إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها ، وهو يؤول إلى الكشف أيضاً ، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه ، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به .

وأما التأويل : فأصله فى اللُّغة من الأول ، ومعنى قولهم : ما تأويل هذا الكلام ؟ أى إلام تؤول العاقبة فى المراد به ؟ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يأْتِى تَأْوِيلُهُ ﴾ (٢) أى تُكشف عاقبته ، ويقال : آل الأمر إلى كذا ، أى صار إليه ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٣) وأصله من المآل ، وهو العاقبة والمصير ، وقد أولته فآل - أى صرفته فانصرف فكأن التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعانى ، وإنما بنوه على التفعيل للتكثير .

* * *

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء فى الفرق بين التفسير والتأويل - وعلى ضوء ما سبق فى معنى التفسير والتأويل نستطيع أن تستخلص أهم الآراء فيما يأتى :

١ - إذا قلنا : إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه ، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان ، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس : « اللَّهُمَّ فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

٢ - وإذا قلنا إن التأويل هو نفس المراد بالكلام ، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب ، وتأويل الخبر نفس الشىء المُخْبَر به ، فعلى هذا يكون الفرق كبيرًا بين

---

(١) انظر : « البرهان » (١٤٦/٢) بتصرف .

(٢) الأعراف : ٥٣

(٣) الكهف : ٨٢

التفسير والتأويل ، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام ، ويكون وجوده فى الذهن بتعقله ، وفى اللّسان بالعبارة الدالة عليه ، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا هو الغالب فى لغة القرآن كما تقدم ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١) .. فالمراد بالتأويل وقوع المُخْبَر به .

٣- وقيل : التفسير : ماوقع مبيّنًا فى كتاب الله أو مُعيَّنًا فى صحيح السُّنَّة ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، والتأويل ما استنبطه العلماء ، ولذا قال بعضهم : « التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية » (٢) .

٤ - وقيل : التفسير : أكثر ما يُستعمل فى الألفاظ ومفرداتها ، والتأويل : أكثر ما يُستعمل فى المعانى والجُمل - وقيل غير ذلك .

* * *

شرف التفسير

والتفسير مِن أَجَلِّ علوم الشريعة وأرفعها قدرًا ، وهو أشرف العلوم موضوعًا وغرضًا وحاجة إليه - لأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة - ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية - وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال دينى أو دنيوى لا بد وأن يكون موافقًا للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله (٣) .

* * *

(١) يونس : ٣٨ - ٣٩

(٢) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٧٣) .

(٣) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٧٥) .

- ٢٤ -
شروط المفسِّر وآدابه

البحث العلمى النزيه أساس المعرفة الحقة التى تعود على طلابها بالنفع ، وثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر وتنمية العقل ، ولذلك فإن تهيؤ أسبابه لأى باحث أمر له اعتباره فى نضج ثماره ودنو قطوفه ، والبحث فى العلوم الشرعية عامة وفى التفسير خاصة من أهم ما يجب الاعتناء به والتعرف على شروطه وآدابه ، حتى يصفو مشربه ، ويحفظ روعة الوحى وجلاله .

شروط المفسِّر

وقد ذكر العلماء للمفسِّر شروطًا نُجملها فيما يأتى :

١ - **صحة الاعتقاد** : فإن العقيدة لها أثرها فى نفس صاحبها ، وكثيراً ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة فى نقل الأخبار ، فإذا صنَّف أحدهم كتابًا فى التفسير أوَّل الآيات التى تخالف عقيدته ، وحمَّله باطل مذهبه ، ليصد الناس عن اتباع السَلَف ، ولزوم طريق الهُدى .

٢ - **التجرد عن الهوى** : فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم ، فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان ، كدأب طوائف القدرية والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب .

٣ - **أن يبدأوا أولاً بتفسير القرآن بالقرآن** : فما أُجْملَ منه فى موضع فإنه قد فُصِّلَ فى موضع آخر ، وما اخْتُصِرَ منه فى مكان فإنه قد بُسِطَ فى مكان آخر .

٤ - **أن يطلب التفسير من السُّنَّة** : فإنها شارحة للقرآن موضحة له ، وقد ذكر القرآن أن أحكام رسول الله ﷺ إنما تصدر منه عن طريق الله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (١) .. وذكر الله أن السُّنَّةَ مبيِّنة للكتاب : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

---

(١) النساء : ١٠٥ (٢) النحل : ٤٤

ولهذا قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى أوتيتُ القرآن ومثله معه » يعنى السُّنَّة . وقال الشافعى رضى الله عنه : « كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن » وأمثلة هذا فى القرآن كثيرة - جمعها صاحب « الإتقان » مرتبة مع السور فى آخر فصل من كتابه كتفسير « السبيل » بالزاد والراحة ، وتفسير « الظلم » بالشرك ، وتفسير « الحساب اليسير » بالعرض .

٥ - **فإذا لم يجد التفسير من السُّنَّة** : رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح .

٦ - **فإذا لم يجد التفسير فى القرآن ولا فى السُّنَّة ولا فى أقوال الصحابة** : فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، ومسروق بنَ الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحَّاك ابن مزاحم ، وغيرهم من التابعين ، ومن التابعين مَن تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والمعتمَد فى ذلك كله النقل الصحيح ، ولهذا قال أحمد : « ثلاث كتب لا أصل لها : المغازى ، والملاحم ، والتفسير » يعنى بهذا : « التفسير الذى لا يعتمد على الروايات الصحيحة فى النقل .

٧ - **العلم باللُّغة العربية وفروعها** : فإن القرآن نزل بلسان عربى ، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب» .

والمعانى تختلف باختلاف الإعراب ، ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو، والتصريف الذى تُعرف به الأبنية ، والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها ، وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها ، ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام - وهى علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع - من أعظم أركان المفسِّر ، إذ لا بد له من مراعاة ما يتقضيه الإعجاز ، وإنما يُدْرَك الإعجاز بهذه العلوم .

٨ - **العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن** : كعلم القراءات لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض ، وعلم التوحيد ، حتى لا يؤول آيات الكتاب التى فى حق الله وصفاته تأويلاً يتجاوز به الحق ، وعلم الأصول ، وأصول التفسير خاصة مع التعمق فى أبوابه التى لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها ، كمعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، ونحو ذلك .

٩ - **دقة الفهم** : التى تُمكِّن المفسر من ترجيح معنى على آخر ، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة .

* * *

آداب المفسِّر

١ - **حسن النية وصحة المقصد** : فإنما الأعمال بالنيات ، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام ، وإسداء المعروف لصالح الإسلام ، وأن يتطهر من أعراض الدنيا ليسدِّد الله خُطاه ، والانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه .

٢ - **حسن الخُلُق** : فالمفسِّر فى موقف المؤدِّب ، ولا تبلغ الآداب مبلغها فى النفس إلا إذا كان المؤدِّب مثالاً يُحتذى فى الخُلُق والفضيلة ، والكلمة النابية قد تصرف الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ وتقطع عليه مجرى تفكيره .

٣ - **الامتثال والعمل** : فإن العلم يجد قبولاً من العاملين أضعاف ما يجد من سمو معارفه ودقة مباحثه - وحسن السيرة يجعل المفسِّر قدوة حسنة لما يقرره من مسائل الدين ، وكثيراً ما يصد الناس عن تلقى العلم من بحر زاخر فى المعرفة لسوء سلوكه وعدم تطبيقه .

٤ - **تحرى الصدق والضبط فى النقل** : فلا يتكلم أو يكتب إلا عن تثبت لما يرويه حتى يكون فى مأمن من التصحيف واللَّحن .

٥ - **التواضع ولين الجانب** : فالصلف العلمى حاجز حصين يَحُول بين العالِم والانتفاع بعلمه .

٦ - **عزة النفس** : فمن حق العالم أن يترفع عن سفاسف الأمور ، ولا يغشى أعتاب الجاه والسلطان كالسائل المتكفف .

٧ - **الجهر بالحق** : فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .

٨ - **حسن السمت** : الذى يُكسب المفسِّر هيبة ووقارًا فى مظهره العام وجلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف .

٩ - **الأناة والرويَّة** : فلا يسرد الكلام سردًا بل يُفَصِّله ويبين عن مخارج حروفه .

١٠ - **تقديم مَن هو أولى منه** : فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم وهم أحياء ، ولا يغمطهم حقهم بعد الممات ، بل يرشد إلى الأخذ عنهم وقراءة كتبهم .

١١ - **حسن الإعداد وطريقة الأداء** : كأن يبدأ بذكر سبب النزول - ثم معانى المفردات وشرحِ التراكيب وبيان وجوه البلاغة والإعراب الذى يتوقف عليه تحديد المعنى ، ثم يبيِّن المعنى العام ويصله بالحياة العامة التى يعيشها الناس فى عصره ، ثم يأتى إلى الاستنباط والأحكام .

أما ذكر المناسبة والربط بين الآيات أولاً وآخرًا فذلك حسب ما يقتضيه النظم والسياق .

❊ ❊ ❊

- ٢٥ -

نشأة التفسير وتطوره [1]

جرت سُنَّة الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه ، ليتم تخاطبه معهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [2] وأن يكون الكتاب الذى أنزل عليه بلسانه ولسانهم ، وإذ كان لسان محمد ﷺ عربيًا فإن الكتاب الذى أنزل عليه يكون بلسان عربى ، وبذلك نطق محكم التنزيل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [3] ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [4] .

فألفاظ القرآن عربية ، ووجوه المعانى فى القرآن توافق وجوه المعانى عند العرب ، وإذا كانت هناك ألفاظ قليلة تختلف فيها أنظار العلماء ، أهى من لغات أخرى وعُرِّبت ، أم هى عربية بحتة ولكنها مما تواردت عليها اللُّغات ؟ فإن هذا لا يُخرج القرآن عن أن يكون عربيا .

والذى عليه المحققون أنها كانت اتفقت فيها ألفاظ العرب مع ألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم ، وهذا هو ما رجَّحه جهبذ المفسرين ابن جرير الطبرى [5] . فقد أورد ما رُوِىَ فى ذلك كقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ [6] قيل : الكِفلان : ضعفان من الأجر بلسان الحبشة ، وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ [7] قيل: بلسان الحبشة إذا قام الرجل من اللَّيل قالوا : نشأ ، وقوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى

---

(١) راجع هذا البحث بالتفصيل فى كتاب « التفسير والمفسرون » للأستاذ محمد حسين الذهبى.

(٢) إبراهيم : ٤ (٣) يوسف : ٢ (٤) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

(٥) « تفسير الطبرى » (١/ ١٢) (٦) الحديد : ٢٨

(٧) المزمل : ٦

مَعَهُ ﴾ (1) قيل : سبحى بلسان الحبشة . وقوله : ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (2) قيل : الأسد بالحبشية ، وقوله : ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (3) قيل فارسية أعربت - أورد الطبرى ما رُوِىَ فى ذلك ثم بَيَّن أن أحدًا لم يقل إن هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلامًا ، وإنما قال بعضهم : حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا ، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا ، وقد ظهر أن بعض الألفاظ اتفقت فيها الألسن المختلفة ، كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرطاس ، فأى مرجح يجعل اللَّفظ من لغة بعينها ثم نقل إلى اللُّغة الأخرى ؟ فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس ومدعى ذلك يدعى شيئاً بلا دليل .

* * *

التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن وبيانه : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (4) فكان النبى ﷺ يفهم القرآن جملة وتفصيلاً ، وكان عليه أن يبيِّنه لأصحابه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (5) .

وكان الصحابة رضى الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم ، وإن كانوا لا يفهمون دقائقه ، يقول ابن خلدون فى مقدمته : « إن القرآن نزل بلغة العرب - وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه » ولكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون فى الفهم ، فقد يغيب عن واحد منهم ما لا يغيب عن الآخر .

أخرج أبو عبيد فى « الفضائل » عن أنس : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (6) ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأبُّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر » (7) .

---

(1) سبأ : 10 (2) المدثر : 51 (3) هود : 82 ، والحجر : 74
(4) القيامة : 17 - 19 (5) النحل : 44 (6) عبس : 31
(7) « الإتقان » (2/113) .

وأخرجه أبو عبيد من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما « فاطر السموات والأرض » حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فى بئر ، فقال : أحدهما : أنا فَطَرتُها ، يقول : أنا ابتدأتها »[١] .

ولذا قال ابن قتيبة : « إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل فى ذلك عن بعض »[٢] .

وكان الصحابة يعتمدون فى تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على :

أولاً – القرآن الكريم : فما جاء مُجْمَلاً فى موضع جاء مُبَيَّنًا فى موضع آخر ، تأتى الآية مطلقة أو عامة ، ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها ، وهذا هو الذى يسمى : بتفسير القرآن بالقرآن ولهذا أمثلة كثيرة ، فقصص القرآن جاء موجزًا فى بعض المواضع ومسهبًا فى مواضع أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾[٣] فسَّره آية : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾[٥] فسَّره آية : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[٦] .

ثانيًا – النبى ﷺ : فهو المبيِّن للقرآن ، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات ، عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾[٧] شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله ، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما هو الشرك[٨] .

كما كان الرسول ﷺ يُبيِّنَ لهم ما يشاء عند الحاجة ، عن عقبة بن عامر قال : « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ألا وإن القوة الرمى »[٩] .

---

(١) « الإتقان » (٢/ ١١٣) . (٢) « التفسير والمفسرون » (١/ ٣٦) .
(٣) المائدة : ١ (٤) المائدة : ٣ (٥) الأنعام : ١٠٣
(٦) القيامة : ٢٣ (٧) الأنعام : ٨٢
(٨) رواه أحمد والشيخان وغيرهم – (والآية من سورة لقمان : ١٣) .
(٩) أخرجه مسلم وغيره – (والآية من سورة الأنفال : ٦٠) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر أعطانيه ربى فى الجنة » (١) .

وقد أفردت كتب السُّنَّة بابًا للتفسير بالمأثور عن رسول الله ﷺ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُواْ فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

ومن القرآن ما لا يُعلم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ كتفصيل وجوه أمره ونهيه ، ومقادير ما فرضه الله من أحكام ، وهذا البيان هو المقصود بقوله ﷺ : « ألا وإنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه » . .

ثالثاً – الفهم والاجتهاد : فكان الصحابة إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله تعالى ، ولم يجدوا شيئاً فى ذلك عن رسول الله ﷺ ، اجتهدوا فى الفهم ، فإنهم من خُلَّصِ العرب ، يعرفون العربية ، ويُحسنون فهمها ، ويعرفون وجوه البلاغة فيها .

واشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة منهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله ابن الزبير ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعائشة ، على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة ، وهناك روايات منسوبة إلى هؤلاء وغيرهم فى مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور تتفاوت درجتها من حيث السند ، صحة وضعفًا .

ولا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته ، وذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابى له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول وكل ما ليس للرأى فيه مجال ، أما ما يكون للرأى فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام يُسنده إلى رسول الله ﷺ .

والموقوف على الصحابى من التفسير يوجب بعض العلماء الأخذ به لأنهم أهل اللِّسان ، ولما شاهدوه من القرآن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم .

(٢) النحل : ٦٤

الصحيح ، قال الزركشى فى « البرهان » : « اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد ، والأول : إما أن يرد عن النبى ﷺ ، أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين - فالأول يُبحث فيه عن صحة السند ، والثانى يُنظر فى تفسير الصحابى ، فإن فسَّره من حيث اللُّغة فهم أهل اللِّسان ، فلا شك فى اعتماده ، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه » (١) .

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره : « وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السُّنَّة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختُصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح - ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة ، والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم » (٢) .

ولم يدوَّن شىء من التفسير فى هذا العصر ، لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى ، وكان التفسير فرعًا من الحديث ، ولم يتخذ شكلاً منظمًا - بل كانت هذه التفسيرات تُرْوَى منثورة لآيات متفرقة ، من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسوره كما لا تشمل القرآن كله .

* * *

التفسير فى عصر التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير ، اشتهر بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم من تلاميذهم بالتفسير كذلك معتمدين فى مصادره على المصادر التى جاءت فى العصر السابق بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر .

قال الأستاذ محمد حسين الذهبى : « وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه ، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم ، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم ، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى .

---

(١) « الإتقان » (٢/ ١٨٣) .

(٢) « ابن كثير » (١/ ٣) .

وقد روت لنا كتب التفسير كثيرًا من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير قالوها بطريق الرأى والاجتهاد ، ولم يصل إلى علمهم شىء فيها عن رسول الله ﷺ ، أو عن أحد من الصحابة .

وقد قلنا فيما سبق : إن ما نُقِلَ عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن ، وإنما فسَّروا ما غمض فهمه على معاصريهم ، ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بَعُدَ الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة ، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص ، فزادوا فى التفسير بمقدار ما زاد من غموض ، ثم جاء مَن بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعًا ، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول ، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن ، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث [1] .

لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وانتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة ، ولدى كل واحد منهم علم ، وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم ، وأخذوا عنهم ، ونشأت مدارس متعددة .

ففى مكة نشأت مدرسة ابن عباس واشتهر من تلاميذه بمكة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليمانى ، وعطاء بن أبى رباح .

وهؤلاء جميعًا من الموالى ، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قِلَّة وكثرة ، كما اختلف العلماء فى مقدار الثقة بهم والركون إليهم ، والذى ورد فيه شىء ذو بال هو عِكرمة ، فإن العلماء يختلفون فى توثيقه وإن كانوا يشهدون له بالعلم والفضل .

وفى المدينة اشتهر أُبَىّ بن كعب بالتفسير أكثر من غيره ، وكثر ما نُقِلَ عنه فى ذلك ، واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة أو بالواسطة : زيد ابن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظى .

وفى العراق نشأت مدرسة ابن مسعود التى يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل

---

(١) « التفسير والمفسرون » (١/ ٩٩ - ١٠٠) .

الرأى : وعُرِفَ بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين . اشتهر منهم علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، ومرة الهمذانى ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى .

هؤلاء هم مشاهير المفسِّرين من التابعين فى الأمصار الإسلامية الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم ، وخلَّفوا لنا تراثًا علمياً خالدًا .

واختلف العلماء فيما أُثِرَ عن التابعين من تفسير إذا لم يؤثر فى ذلك شىء عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة ، أيؤخذ بأقوالهم أم لا ؟

فذهب جماعة إلى أنه لا يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهدوا القرآن والأحوال التى نزل عليها القرآن ، فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد .

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم ، لأنهم تلقوه غالبًا عن الصحابة .

والذى يترجح أنه إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

قال ابن تيمية : « قال شُعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين ليست حُجة ، فكيف تكون حُجة فى التفسير ؟ يعنى أنها لا تكون حُجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أما إذا أجمعوا على الشىء فلا يُرتاب فى كونه حُجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حُجة على بعض ولا على مَن بعدهم ، ويُرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السُّنَّة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة فى ذلك » (١) .

وقد ظل التفسير محتفظًا فى هذا العصر بطابع التلقى والرواية ، ولكن التابعين - بعد أن كثر دخول أهل الكتاب فى الإسلام ، نقلوا عنهم فى التفسير كثيرًا من الإسرائيليات ، كالذى يُرْوَى عن عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب ابن منبه ، وعبد الله بن عبد العزيز بن جريج ، كما بدأ الاختلاف فيما يُرْوَى عنهم من تفسير لكثرة أقوالهم ، ومع هذا فإنها أقوال متقاربة أو مترادفة ، فهو من باب اختلاف العبارة لا اختلاف التباين والتضاد .

* * *

(١) « مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير » (ص٢٨ - ٢٩) ، و« الإتقان » (٢/ ١٧٩) .

التفسير فى عصور التدوين

بدأ التدوين فى أواخر عهد بنى أمية ، وأوائل عهد العباسيين ، وحظى الحديث بالنصيب الأول فى ذلك ، وشمل تدوين الحديث أبوابًا متنوعة ، وكان التفسير بابًا من هذه الأبواب ، فلم يُفرد له تأليف خاص يُفسِّر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، من مبدئه إلى منتهاه .

واشتدت عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبى ﷺ ، أو إلى الصحابة ، أو إلى التابعين ، مع عنايتهم بجمع الحديث ، وفى مقدمة هؤلاء : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشُعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وروح بن عبادة البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ هجرية ، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية ، وآدم بن أبى إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هجرية ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هجرية .

ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شىء ، وإنما رُوِىَ ما نقل مسنَدًا إليهم فى كتب التفسير بالمأثور .

جاء بعد هؤلاء مَن أفرد التفسير بالتأليف وجعله علمًا قائمًا بنفسه منفصلاً عن الحديث ، ففسَّر القرآن حسب ترتيب المصحف ، وذلك كابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هجرية ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية ، وأبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨ هجرية ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفي سنة ٣٦٩ هجرية ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ هجرية ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هجرية .

وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ ، وإلى الصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين مع الترجيح أحيانًا فيما يُرْوَى من آراء ، واستنباط بعض الأحكام ، والإعراب عند الحاجة ، كما فعل ابن جرير الطبرى .

ثم جاء على أثر هؤلاء جماعة من المفسِّرين لم يتجاوزوا حدود التفسير بالمأثور ،

ولكنهم اختصروا الأسانيد ، وجمعوا شتات الأقوال دون أن ينسبوها إلى قائليها ، وبهذا التبس الأمر ، ولم يتميز الصحيح من السقيم .

اتسعت العلوم ، وتم تدوينها ، وتشعبت فروعها ، وكثر الاختلاف ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبى ، واختلطت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية ، وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذهبها فأصاب التفسير من هذا الجو غباره ، وأصبح المفسِّرون يعتمدون فى تفسيرهم على الفهم الشخصى ، ويتجهون اتجاهات متعددة ، وتحكمت فيهم الاصطلاحات العلمية ، والعقائد المذهبية ، والثقافة الفلسفية ، واهتم كل واحد من المفسِّرين بحشوه بما برز فيه من العلوم الأخرى ، فصاحب العلوم العقلية يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة كفخر الدين الرازى ، وصاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية كالجصاص والقرطبى ، وصاحب التاريخ يعنى بالقصص والأخبار كالثعلبى والخازن ، وصاحب البدعة يُؤوِّل كلام الله على مذهبه الفاسد ، كالرمانى والجبائى ، والقاضى عبد الجبار والزمخشرى من المعتزلة وملا محسن الكاشى من الإمامية الاثنى عشرية ، وصاحب التصوف يستخرج المعانى الإشارية كابن عربى .

هذا مع علوم النحو والصرف والبلاغة ، وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمل فى طيَّاتها الغث والثمين ، والنافع والضار ، والصالح والفاسد ، وحمَّل كل مفسر آيات القرآن ما لا تتحمله ، انتصارًا لمذهبه ، وردًا على خصومه ، وفقد التفسير وظيفته الأساسية فى الهداية والإرشاد ومعرفة أحكام الدين .

وبذلك طغى التفسير بالرأى على التفسير بالأثر ، وتدرج التفسير فى العصور المتتابعة على هذا النمط ، بنقل المتأخر عن المتقدم ، مع الاختصار تارة ، والتعليق أخرى ، حتى ظهرت أنماط جديدة فى التفسير المعاصر ، حيث عَنِيَ بعض المفسرين بحاجات العصر ، وتناولوا فى تفسيرهم الكشف عما تضمنه القرآن الكريم من أسس الحياة الاجتماعية ، ومبادى التشريع ، ونظريات العلوم ، كتفسير الجواهر ، وتفسير المنار ، والظلال .

* * *

التفسير الموضوعى

وبإزاء التفسير العام فى عصور التدوين كان التفسير الموضوعى للمباحث الخاصة يسير معه جنبًا لجنب ، فألَّف ابن القيم كتابه : التبيان فى أقسام القرآن ، وألَّف أبو عبيدة كتابًا عن مجاز القرآن ، وألَّف الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن ، وألَّف أبو جعفر النحاس فى الناسخ والمنسوخ ، وألَّف أبو الحسن الواحدى فى أسباب النزول ، وألَّف الجصَّاص فى أحكام القرآن ، وتتابعت الأبحاث القرآنية فى العصر الحديث ولا يخلو واحد منها من تفسير لبعض آيات القرآن لجانب من الجوانب .

* * *

طبقات المفسرين

وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نُقسِّم طبقات المفسرين على النحو التالى :

١ - **المفسرون من الصحابة** : واشتهر منهم الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله ابن الزبير ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وجابر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وأكثر من رُوِىَ عنه من الخلفاء الأربعة علىّ بن أبى طالب ، والرواية عن الثلاثة نزرة جدًا ، وكان السبب فى ذلك تقدم وفاتهم ، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه ، فقد روى معمر عن وهب بن عبد الله ، عن أبى الطفيل قال : « شهدت عليا يخطب وهو يقول : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل » .

وأما ابن مسعود فروُِى عنه أكثر ما رُوِىَ عن علىّ ، وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته » وأما ابن عباس فسنترجم له بعد إن شاء الله .

٢ - **المفسرون من التابعين** : قال ابن تيمية : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة

لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاوس وغيرهم - وفى الكوفة أصحاب ابن مسعود - وفى المدينة زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك ابن أنس » ومن أصحاب ابن مسعود علقمة ، والأسود بن يزيد ، وإبراهيم النخعى ، والشعبى ، ومن هذه الطبقة : الحسن البصرى ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى ، ومحمد بن كعب القرظى ، وأبو العالية رفيع بن مهران الرباحى، والضحَّاك بن مزاحم ، وعطية بن سعيد العوفى ، وقتادة بن دعامة السدوسى ، والربيع بن أنس ، والسدى - فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين ، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة .

٣ - ثم بعد هذه الطبقة : **طبقة الذين صنَّف كثير منهم كتب التفاسير التى تجمع أقوال الصحابة والتابعين** ، كسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجرَّاح ، وشُعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وعبد بن حميد ، وروح بن عبادة ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وآخرين .

٤ - ثم بعد هؤلاء **طبقات أخرى** : منها علىّ بن أبى طلحة ، وابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ بن حبان ، وابن المنذر فى آخرين ، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط ، فهو يفوقها بذلك .

٥ - ثم انتصبت **طبقة بعدهم** : صنَّفت تفاسير مشحونة بالفوائد اللُّغوية ، ووجوه الإعراب ، وما أثِرَ فى القراءات بروايات محذوفة الأسانيد ، وقد يضيف بعضهم شيئاً من رأيه ، مثل أبى إسحاق الزجَّاج ، وأبى على الفارسى ، وأبى بكر النقاش، وأبى جعفر النحاس .

٦ - **ثم ألَّف فى التفسير طائفة من المتأخرين** : فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال بتراء ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل .

٧ - **ثم صار كل مَن سنح له قول يورده** : ومَن خطر بباله شىء يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه مَن يجىء بعده ظانًا أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلَف

الصالح ، ومَن هم القدوة فى هذا الباب - قال السيوطى : رأيتُ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ غَيرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِينَ ﴾ (١) نحو عشرة أقوال ، مع أن الوارد عن النبى ﷺ وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى ، حتى قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى ذلك اختلافًا من المفسِّرين .

٨ - صنَّف بعد ذلك **قوم برعوا فى شىء من العلوم** : منهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن ، واقتصر فيه على ما تمهَّر هو فيه ، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير ، مع أن فيه تبيان كل شىء .

فالنحو نراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير أوجهه المحتمَلة فيه ، وإن كانت بعيدة وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كأبى حبان فى البحر والنهر .

والإخبارى همه القصص واستيفاؤه ، والإخبار عمن سَلَف سواء أكانت صحيحة أو باطلة ، ومنهم الثعالبى .

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعًا ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية أصلاً والجواب على أدلة المخالفين ، كالقرطبى .

وصاحب العلوم العقلية ، خصوصًا الإمام فخر الدين الرازى ، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وخرج من شىء إلى شىء ، حتى يقضى الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية ، قال أبو حيان فى البحر : جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شىء إلا التفسير .

والمبتدع ليس له قصد ولا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لو لاح شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعًا له فيه أدنى مجال سارع إليه ، كما نُقِلَ عن البلقينى أنه قال : استخرجتُ من الكشاف اعتزالا بالمناقيش ، منها أنه قال فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (٢) ، أى فوز أعظم من دخول الجنة ؟ أشار به إلى عدم الرؤية .

وهكذا الشأن بالنسبة إلى الملحدين وغيرهم .

---

(١) الفاتحة : ٧ (٢) آل عمران : ١٨٥

٩ - ثم جاء عصر النهضة الحديثة :

فانتحى كثير من المفسِّرين منحى جديدًا ، فى العناية بطلاوة الأسلوب ، وحسن العبارة ، والاهتمام بالنواحي الاجتماعية ، والأفكار المعاصرة ، والمذاهب الحديثة ، فكان التفسير الأدبى الاجتماعى ، ومن هؤلاء : محمد عبده ، والسيد محمد رشيد رضا ، ومحمد مصطفى المراغى ، وسيد قطب ، ومحمد عزة دروزة .

وللحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتاب « طبقات المفسِّرين » ذكر فى مقدمته أنه سيتناول المفسِّرين من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، والمفسِّرين من المحَدِّثين ، وأهل السُّنَّة ، والمفسِّرين من أهل الفِرق كالمعتزلة والشيعة ونحوهم ، ولكنه لم يتم ، وبلغ عدد التراجم فيه ١٣٦ ترجمة وهو مرتب على الحروف الهجائية » (١) .

وصنَّف فى طبقات المفسرين أيضاً الشيخ أبو سعيد صنع الله الكوزه كنانى المتوفى سنة ٩٨٠ هجرية .

كما صنَّف فيها أحمد بن محمد الأدنهوى من علماء القرن الحادى عشر .

وللحافظ شمس الدين محمد بن علىّ بن أحمد الداودى المصرى المتوفى سنة ٩٤٥ هجرية كتابه المشهور « طبقات المفسِّرين » وهو أوفى كتاب فى موضعه بالمكتبة الإسلامية ، استقصى فيه الداودى تراجم أعلام المفسِّرين حتى أوائل القرن العاشر للهجرة ، قال فيه حاجى خليفة فى كشف الظنون : « وهو أحسن ما صُنِّفَ فيه » (٢) .

* * *

التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى

التفسير بالمأثور : هو الذى يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التى ذُكِرَت سابقًا فى شروط المفسر ، من تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسُّنَّة لأنها جاءت مبيِّنة لكتاب الله ، أو بما رُوِىَ عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالبًا عن الصحابة .

---

(١) نشرته أخيراً مكتبة وهبة بالقاهرة ، بتحقيق على محمد عمر .

(٢) قامت مكتبة وهبة بنشره فى جزئين ، بتحقيق على محمد عمر .

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة فى معنى الآية فيذكرها ، ولا يجتهد فى بيان معنى من غير أصل ، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة فى معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح .

قال ابن تيمية : يجب أن يُعلم أن النبى ﷺ بيَّن لأصحابه معانى القرآن ، كما بيَّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١) يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى (٢) : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ، قال أنس : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا » (رواه أحمد فى مسنده) ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين ، أخرجه مالك فى «الموطأ » ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِه ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ (٤) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم » (٥) .

ومن التابعين مَن أخذ التفسير كله عن الصحابة ، عن مجاهد قال : « عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أستوقفه عند كل آية وأسأله عنها » .

* * *

---

(١) النحل : ٤٤

(٢) هو عبد الله بن حبيب التابعى المقرئ ، المتوفى سنة ٧٢ هجرية ، وهو غير أبى عبد الرحمن السلمى الصوفى المتوفى سنة ٤١٢ هجرية .

(٣) سورة ص : ٢٩ (٤) النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤

(٥) « الإتقان » (١٧٦/٢) .

الاختلاف فيه

والتفسير بالمأثور يدور على رواية ما نُقِلَ عن صدر هذه الأمة ، وكان الاختلاف بينهم قليلاً جداً بالنسبة إلى مَن بعدهم ، وأكثره لا يعدو أن يكون خلافًا في التعبير مع اتحاد المعنى ، أو يكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل ، قال ابن تيمية : « والخلاف بين السَلَفَ في التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك نوعان :

أحدهما : أن يُعَبِّر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال بعضهم : القرآن أى اتباعه ، وقال بعضهم : الإسلام ، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبَّه على وصف غير الوصف الآخر .

الثاني : أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، ومثاله : ما نُقِلَ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [(١)] قيل : **السابق** : الذى يصلى فى أول الوقت ، **والمقتصد** : الذى يُصَلِّى فى أثنائه ، **والظالم لنفسه** : الذى يؤخر العصر إلى الأصفرار - وقيل : السابق : المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد : الذى يؤدى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم : مانع الزكاة » [(٢)] .

وقد يكون الاختلاف لاحتمال اللّفظ الأمرين ، كلفظ « عسعس » الذى يُراد به إقبال اللّيل وإدباره ، أو لأن الألفاظ التى عبر بها عن المعانى متقاربة ، كما إذا فسر بعضهم « تبسل » بتحبس ، وبعضهم بترهن ، لأن كلا منهما قريب من الآخر .

* * *

(١) فاطر : ٣٢

(٢) « الإتقان » (٢/ ١٧٧)

تجنب الإسرائيليات

وربما كان الاختلاف فيما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته مما وقع فيه بعض المفسِّرين فى نقل إسرائيليات عن أهل الكتاب ، كاختلافهم فى أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ، مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ (١) ، واختلافهم فى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، وفى أسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وفى نوع شجرة عصا موسى ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولاً نقلاً صحيحًا عن النبى ﷺ قُبل ، وإلا توقفنا عنه ، وإن كانت النفس تسكن إلى ما نُقِلَ عن الصحابة ، لأن نقلهم عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين (٢) .

* * *

حكم التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو الذى يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة ، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ فى كتاب الله ، وقد رُوِىَ عن ابن عباس أنه قال : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله » .

فالذى تعرفه العرب هو الذى يُرجع فيه إلى لسانهم ببيان اللُّغة .

والذى لا يُعذر أحد بجهله : هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ولا لبس فيها ، فكل امرئ يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٣) وإن لم يعلم أن هذه العبارة وردت بطريق النفى والاستثناء فهى دالة على الحصر .

---

(١) الكهف : ٢٢

(٢) فى الحديث : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم » .

(٣) محمد : ١٩

وأما ما لا يعلمه إلا الله : فهو المغيِّبات ، كحقيقة قيام الساعة ، وحقيقة الروح .

وأما ما يعلمه العلماء : فهو الذى يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى ، من بيان مُجْمَل ، أو تخصيص عام ، أو نحو ذلك .

وقد ذكر ابن جرير الطبرى نحو هذا ، فقال : « فقد تبيَّن ببيان الله جل ذكره : أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ ، وذلك تأويل جميع ما فيه : من وجوه أمره - واجبه وندبه وإرشاده - وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض ، وما أشبه ذلك من إحكام آيه التى لم يُدْرَك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمته ، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويله بنص منه عليه ، أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله .

وإن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار ، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة ، وأوقات آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، ونزول عيسى ابن مريم ، وما أشبه ذلك : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وإن منه ما يعلم تأويله كل ذى علم باللِّسان الذى نزل به القرآن ، وذلك إقامة إعرابه ، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها ، والموضوعات بصفاتها الخاصة دون ما سواها ، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم ، وذلك كسامع منهم لو سمع تاليًا يتلو : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغى تركه مما هو مضرة ، وأن الإصلاح هو ما ينبغى فعله مما

---

(١) الأعراف : ١٨٧ (٢) البقرة : ١١ - ١٢

فعله منفعة ، وإن جهل المعانى التى جعلها الله إفسادًا ، والمعانى التى جعلها الله إصلاحًا » (١) .

* * *

التفسير بالرأى

التفسير بالرأى : هو ما يعتمد فيه المفسِّر فى بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأى المجرد - وليس منه الفهم الذى يتفق مع روح الشريعة ، ويستند إلى نصوصها - فالرأى المجرد الذى لا شاهد له مدعاة للشطط فى كتاب الله ، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأوَّلوه على رأيهم وليس لهم سَلَف من الصحابة والتابعين لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وقد صنَّفوا تفاسير على أصول مذهبهم ، كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم ، والجبائى ، وعبد الجبار ، والرمانى ، والزمخشرى وأمثالهم .

ومن هؤلاء مَن يكون حسن العبارة يدس مذهبه فى كلام يروج على كثير من الناس كما صنع صاحب الكشاف فى اعتزالياته وإن كان بعضهم أخف من بعض ، فمنهم طوائف من أهل الكلام أوَّلت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبها ، وهؤلاء أقرب إلى أهل السُّنَّة من المعتزلة ، إلا أنهم حين جاءوا بما يخالف مذهب الصحابة والتابعين فقد شاركوا المعتزلة وغيرهم من أهل البدع .

* * *

حكم التفسير بالرأى

وتفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٢) ، وقال ﷺ : « مَن قال فى القرآن برأيه - أو بما لا يعلم - فليتبوأ مقعده من النار » (٣) ، وفى لفظ : « مَن قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

---

(١) « تفسير الطبرى » (١/ ٧٤ - ٧٥) . .
(٢) الإسراء : ٣٦
(٣) أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود ، وقال الترمذى : هذا حسن .

ولهذا تحرج السَلَف عن تفسير ما لا علم لهم به ، فقد رُوِىَ عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سُئِلَ عن تفسير آية من القرآن قال : « إنَّا لا نقول فى القرآن شيئًا » (١) .

وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام : « أن أبا بكر الصدِّيق رضى الله عنه سُئِلَ عن الأبّ فى قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (٢) فقال : « أى سماء تظلنى ؟ وأى أرض تقلنى ؟ إذا قلت فى كلام الله ما لا أعلم » (٣) .

قال الطبرى : « وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا : من أن ما كان من تأويل آى القرآن الذى لا يُدْرَك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ ، أو بنصبه الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه ، بل القائل فى ذلك برأيه - وإن أصاب الحق فيه - فمخطئ فيما كان من فعله ، بقيله فيه برأيه ، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق ، وإنما هى إصابة خارص وظان ، والقائل فى دين الله بالظن ، قائل على الله ما لا يعلم ، وقد حَرَّم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فهذه الآثار وما شاكلها عن أئمة السَلَف محمولة على تحرجهم من الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به ، أما مَن تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه ولهذا رُوِىَ عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير - ولا منافاة - لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوا ، وهذا هو الواجب على كل إنسان ، ويكون الأمر أشد نكيرًا لو ترك التفسير بالمأثور الصحيح وعدل عنه إلى القول برأيه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وفى الجملة مَن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا ، بل مبتدعًا ، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ » .

---

(١) رواه مالك فى « الموطأ » (٢) عبس : ٣١
(٣) رواه ابن أبى شيبة والطبرى .
(٤) تفسير الطبرى (١/٧٨ ، ٧٩) - (والآية من سورة الأعراف : ٣٣) .

وقال الطبرى : « فأحق المفسرين بإصابة الحق فى تأويل القرآن - الذى إلى علم تأويله للعباد سبيل - أوضحهم حجة فيما تأوَّل وفسَّر ، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته ، من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه ، إما من جهة النقل المستفيض فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض ، وإما من جهلة نقل العدول الأثبات ، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض ، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته ، وأصحهم برهانًا - فيما ترجم وبيَّن من ذلك - مما كان مدركًا علمه من جهة اللِّسان ، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة ، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة ، كائنًا مَن كان ذلك المتأوِّل والمفسِّر ، بعد أن لا يكون خارجًا تأويله وتفسيره ما تأولَ وفسَّر من ذلك ، عن أقوال السَلَف من الصحابة والأئمة ، والخَلَف من التابعين وعلماء الأمة » (١) .

* * *

الإسرائيليات

لليهودية ثقافتها الدينية التى تُستَمد من التوراة ، وللنصرانية ثقافتها الدينية التى تُستَمد من الإنجيل ، وقد انضوى تحت لواء الإسلام منذ ظهوره كثير من اليهود والنصارى ، ولهؤلاء وأولئك ثقافتهم الدينية .

وقد اشتمل القرآن على كثير مما جاء فى التوراة والإنجيل ولا سيما ما يتعلق بقصص الأنبياء وأخبار الأمم ، ولكن القصص القرآنى يجمل القول مستهدفًا مواطن العبرة والعظة دون ذكر للتفاصيل الجزئية كتاريخ الوقائع ، وأسماء البلدان والأشخاص ، أما التوراة فإنها تتعرض مع شروحها للتفاصيل والجزئيات ، وكذلك الإنجيل .

وحيث دخل أهل الكتاب فى الإسلام فقد حملوا معهم ثقافتهم الدينية من الأخبار والقصص الدينى ، وهؤلاء حين يقرأون قصص القرآن قد يتعرضون لذكر التفصيلات الواردة فى كتبهم ، وكان الصحابة يتوقفون إزاء ما يسمعون من ذلك ، امتثالاً لقول رسول الله ﷺ : « لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبُوهم ، وقولوا آمنا

---

(١) « تفسير الطبرى » (١/ ٩٣) .

بالله وما أُنْزِلَ إلينا » (١) ، وقد يدور حوار بينهم وبين أهل الكتاب فى شىء من تلك الجزئيات ، ويقبل الصحابة بعض ذلك ما دام لا يتعلق بالعقيدة ولا يتصل بالأحكام ، ثم يتحدثون به ، لما فهموه من الإباحة فى قوله ﷺ : « بلِّغوا عنى ولو آية ، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج ، ومَن كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » (٢) ، أى حدِّثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، أما ما جاء فى الحديث الأول : « لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبوهم » فهو محمول على ما إذا كان ما يخبرون به محتملاً لأن يكون صدقًا ، ولأن يكون كذبًا ، فلا تعارض بين الحديثين .

تلك الأخبار التى تحدَّث بها أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام هى التى يُطلق عليها الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى ، حيث كان النقل عن اليهود أكثر لشدة اختلاطهم بالمسلمين منذ بدأ ظهور الإسلام ، وكانت الهجرة إلى المدينة .

ولم يأخذ الصحابة عن أهل الكتاب شيئاً فى تفسير القرآن من الأخبار الجزئية سوى القليل النادر ، فلما جاء عهد التابعين ، وكثر الذين دخلوا فى الإسلام من أهل الكتاب كثر أخذ التابعين عنهم ، ثم عظم شغف مَن جاء بعدهم من المفسرين بالإسرائيليات ، قال ابن خلدون : « وإذا تشوَّقوا إلى معرفة شىء مما تتشوَّق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومَن تبع دينهم من النصارى . . فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم » (٣) .

ولم يكن المفسِّرون يتحرون صحة النقل فيما يأخذونه من هذه الإسرائيليات ، ومنها ما هو فاسد باطل ، لذا كان على مَن يقرأ فى كتبهم أن يتجاوز عما لا طائل تحته ، وألا ينقل منها إلا ما تدعو إليه الضرورة وتتبين صحة نقله ، ويظهر صدق خبره .

---

(١) أخرجه البخارى .   (٢) أخرجه البخارى .

(٣) انظر : « التفسير والمفسرون » (١/ ١٧٧) .

وأكثر ما يُرْوَى من هذه الإسرائيليات إنما يُرْوَى عن أربعة أشخاص ، هم : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج ، وقد اختلفت أنظار العلماء فى الحكم عليهم والثقة بهم ، ما بين مجرِّح وموثِّق ، وأكثر الخلاف يدور حول كعب الأحبار ، وكان عبد الله بن سلام أكثرهم علمًا ، وأعلاهم قدرًا ، واعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث ، ولم يُنسب إليه من التهم ما نُسِبَ إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه .

* * *

تفسير الصوفية

إذا أريد بالتصوف السلوك التعبدى المشروع الذى تصفو به النفس ، وترغب عن زينة الدنيا بالزهد والتقشف ، والعبادة . . فذلك أمر لا غبار عليه إن لم يكن مرغوبًا فيه ، ولكن التصوف أصبح فلسفة نظرية خاصة لا صلة لها بالورع والتقوى والتقشف ، واشتملت فلسفته على أفكار تتنافى مع الإسلام وعقيدته ، وهذا هو الذى نعنيه هنا ، وهو الذى كان له أثره فى تفسير القرآن .

ويعتبر ابن عربى زعيم التصوف الفلسفى النظرى وهو يُفسِّر الآيات القرآنية تفسيرًا يتفق مع نظرياته الصوفية سواء أكان ذلك فى التفسير المشهور باسمه ، أو فى الكتب التى تُنسب إليه كالفصوص ، وهو من أصحاب نظرية وحدة الوجود (١) .

فهو يفسِّر مثلاً قوله تعالى فى شأن إدريس عليه السلام : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيا﴾ (٢) بقوله : « وأعلى الأمكنة المكان الذى يدور عليه رحى عالَم الأفلاك ، وهو فَلَكُ الشمس ، وفيه مقام روحانية إدريس . . ثم يقول : وأما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ ﴾ (٣) فى هذا العلو وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة » .

ويقول فى تفسير قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

---

(١) انظر : « التفسير والمفسرون » (١/ ١٧٧) .

(٢) مريم : ٥٧

(٣) محمد : ٣٥

رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (١) : « اتقوا ربكم : اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم ، واجعلوا ما بطن منكم - وهو ربكم - وقاية لكم ، فإن الأمر ذم وحمد ، فكونوا وقاية فى الذم ، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين » (٢) .

فهذا التفسير ونظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها ، ويغرق فى التأويلات الباطنية البعيدة ، ويجر إلى متاهات من الإلحاد والزيغ .

* * *

التفسير الإشارى

ومن هؤلاء المتصوفة مَن يدَّعى أن الرياضة الروحية التى يأخذ بها الصوفى نفسه تصل إلى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية ، وتنهل على قلبه من سُحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية ، ويسمى هذا بالتفسير الإشارى ، فللآية ظاهر وباطن ، **والظاهر** : هو الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره ، **والباطن** هو : ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ، وهذا التفسير الإشارى كذلك إذا أوغل فى الإشارات الخفية صار ضربًا من التجهيل ، ولكنه إذا كان استنباطًا حسنًا يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض ، فإنه يكون مقبولاً .

ومن ذلك ما رُوِىَ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر : فكأن بعضهم وَجَدَ فى نفسه فقال : لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه مَن حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رئيتُ أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم ، قال : ما تقولون فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) ؟ فقال بعضهم : أُمِرْنَا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال :

---

(١) النساء : ١

(٢) انظر : « التفسير والمفسرون » (٢/ ٧ - ٨) .

(٣) النصر : ١

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، وذلك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١) فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » (٢) .

قال ابن القيم : « وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللَّفظ ، وهو الذى ينحو إليه المتأخرون ، وتفسير على المعنى : وهو الذى يذكره السَّلَف ، وتفسير على الإشارة : وهو الذى ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم ، وهذا لا بأس به بأربعة شروط :

١ - ألا يناقض معنى الآية .

٢ - وأن يكون معنى صحيحًا فى نفسه .

٣ - وأن يكون فى اللَّفظ إشعار به .

٤ - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا » (٣) .

* * *

غرائب التفسير

من الناس مَن له شغف بالإغراب فى القول وإن حاد عن الجادة وركب مسلكًا وعرًا ، فكلَّفوا أنفسهم من الأمر ما لا يطيقون ، وأعملوا فكرهم فيما لا يُعلم إلا بالتوقيف ، فخرجوا وليس فى يدهم سوى ما تُسفهه عقولهم من الرعونة والغى ، ولهذا عجائب فى معانى آيات من القرآن نذكر من غرائبها :

١ - قول مَن قال فى ﴿ الم ﴾ : معنى ألف : ألف الله محمدًا فبعثه نبيا -

---

(١) النصر : ٣ (٢) أخرجه البخارى .

(٣) من أهم كتب التفسير الإشارى « تفسير القرآن العظيم » للتسترى - مطبوع ، و« حقائق التفسير » لأبى عبد الرحمن السلمى الصوفى - مخطوط ، و« عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد الشيرازى - مطبوع ، و« التأويلات النجمية » لنجم الدين داية وعلاء الدين السمنانى - مخطوط ، و« التفسير المنسوب إلى ابن عربى » - مطبوع .

ومعنى لام : لامه الجاحدون وأنكروه - ومعنى ميم : ميم الجاحدون المنكرون ، ومن الموم بالضم وهو البرسام ، علة بهذى المعلوم فيها .

٢ - قول مَن قال فى ﴿ حمٓ * عٓسٓقٓ ﴾ (١) : إن الحاء : حرب علىّ ومعاوية- والميم : المروانية (نسبة إلى مروان من بنى أمية) - والعين : ولاية العباسية- والسين : ولاية السفيانية - والقاف : قدوة مهدى .

٣ - ما ذكره ابن فورك فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (٢) أن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه ، أى ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عيانًا .

٤ - قول أبى معاذ النحوى فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا ﴾ (٣) يعنى من إبراهيم نارًا ، أى نورًا ، هو محمد ﷺ ، ﴿ فَإِذَا أَنتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ تقتبسون الدين .

* * *

التعريف بأشهر كتب التفسير

تزخر المكتبة الإسلامية بكتب التفسير بالمأثور ، وكتب التفسير بالرأى ، وكتب التفسير المعاصر ، وبعض هذه الكتب أشهر من بعض فى التداول بين أيدى القراء .

أشهر الكتب المؤلَّفة فى التفسير بالمأثور

١ - التفسير المنسوب إلى ابن عباس .

٢ - تفسير ابن عيينة .

٣ - تفسير ابن أبى حاتم .

٤ - تفسير أبى الشيخ ابن حبان .

٥ - تفسير ابن عطية .

٦ - تفسير أبى اللَّيث السمرقندى « بحر العلوم » .

---

(١) الشورى : ١ - ٢ (٢) البقرة : ٢٦٠ (٣) يس : ٨٠

٧ - تفسير أبى إسحاق « الكشف والبيان عن تفسير القرآن » .

٨ - تفسير ابن جرير الطبرى « جامع البيان فى تفسير القرآن » .

٩ - تفسير ابن أبى شيبه .

١٠ - تفسير البغوى « معالم التنزيل » .

١١ - تفسير أبى الفداء الحافظ ابن كثير « تفسير القرآن العظيم » .

١٢ - تفسير الثعالبى « الجواهر الحِسان فى تفسير القرآن » .

١٣ - تفسير جلال الدين السيوطى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » .

١٤ - تفسير الشوكانى « فتح القدير » .

وسنعرِّف ببعض منها :

١ - تفسير ابن عباس

يُنسب إلى ابن عباس رضى الله عنه جزء كبير فى التفسير ، طُبِعَ فى مصر مرارًا باسم « تنوير المقياس من تفسير ابن عباس » جمعه « أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشافعى » . صاحب « القاموس المحيط » .

وابن عباس ، كان بحق « ترجمان القرآن » وكان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره ويجله ، وقد أخذ فى بعض المواضع عن أهل الكتاب فيما اتفق القرآن فيه مع التوراة والإنجيل ، وذلك فى دائرة محدودة .

وقد اتهمه الأستاذ جولدزيهر فى كتاب « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن » بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب ، ونسج على منواله الأستاذ أحمد أمين فى «فجر الإسلام » وتولى الرد عليهما الأستاذ محمد حسين الذهبى فى كتابه « التفسير والمفسِّرون » (١) فابن عباس كغيره من الصحابة ما كان يسأل علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عن شىء يمس العقيدة ، أو يتصل بأصول الدين أو فروعه ، إنما كان يقبل الصواب الذى لا يتطرق إليه الشك فى بعض القصص والأخبار الماضية .

---

(١) انظر (١/ ٧٢ - ٧٣) .

ويمتاز ابن عباس برجوعه فى فهم معانى ألفاظ القرآن إلى الشعِر العربى ، لمعرفته بلغة العرب وإلمامه بديوانها .

وتتعدد الروايات عن ابن عباس ، وتتفاوت صحة وضعفًا ، وقد تتبّع العلماء هذه الروايات وكشفوا عن مبلغها من الصحة ، فمن أشهر طرق هذه الروايات :

١ - طريق معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس - وهذه هى أجود الطرق عنه ، وفيها قال الإمام أحمد : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها علىّ بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا » (١) ، وقال الحافظ ابن حجر : « وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب اللَّيث - رواها عن معاوية بن صالح - عن علىّ بن أبى طلحة - عن ابن عباس ، وهى عند البخارى عن أبى صالح ، وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس » .

٢ - طريق قيس بن مسلم الكوفى عن عطاءِ بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين .

٣ - طريق ابن إسحاق صاحب السير ، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ابن ثابت ، عن عِكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - وهى طريق جيدة ، وإسنادها حسن .

٤ - طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ، تارة عن أبى مالك ، وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس ، وإسماعيل السدى مُخْتَلف فيه ، وهو تابعى شيعى ، وقال السيوطى : « روى عن السدى الأئمة مثل الثورى وشُعبة ، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر ، وأسباط لم يتفقوا عليه ، غير أن أمثل التفاسير « تفسير السدى » (٢) .

٥ - طريق عبد الملك بن جريج عن ابن عباس - وهذه الطريق تحتاج إلى دقة فى البحث ، فإن ابن جريج روى ما ذُكِرَ فى كل آية من الصحيح والسقيم .

٦ - طريق الضحَّاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس - وهى طريق غير

---

(١) « الإتقان » (٢/ ١٨٨)

(٢) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٨٨) .

مقبولة ، لأن الضحَّاك مُخْتَلف فى توثيقه ، وطريقه إلى ابن عباس منقطعة ، لأنه لم يلقه ، فإن انضم إلى ذلك رواية بِشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحَّاك ، فضعيفة ، لضعف بِشر .

٧ - طريق عطية العوفى ، عن ابن عباس ، وهى غير مقبولة ، لأن عطية ضعيف وربما حسَّن له الترمذى .

٨ - طريق مقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى - ومقاتل ضعف ، يروى عن مجاهد وعن الضحَّاك ولم يسمع منهما ، وقد كذَّبه غير واحد ، ولم يُوثِّقه أحد ، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه ، وقال أحمد بن حنبل : لا يعجبنى أن أروى عن مقاتل بن سليمان شيئاً » .

٩ - طريق محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس - وهذه أوهى الطرق ، والكلبى مشهور بالتفسير ، وقد قيل فيه : أجمعوا على ترك حديثه ، وليس بثقة ، ولا يُكتب حديثه ، واتهمه جماعة بالوضع ، ولذا قال السيوطى فى الإتقان : « فإن انضم إلى ذلك - أى إلى طريق الكلبى - رواية محمد بن مروان السدى الصغير عنه فهى سلسلة الكذب » .

ويتضح من التفسير المنسوب إلى ابن عباس أن معظم ما رُوِىَ عن ابن عباس فى هذا الكتاب - إن لم يكن جميعه - يدور على محمد بن مروان السدى الصغير ، عن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وقد عرفنا مبلغ رواية السدى الصغير عن الكلبى فيما تقدَّم (١) .

* * *

٢ - جامع البيان فى تفسير القرآن - للطبرى

يعتبر ابن جرير الطبرى من الأئمة الأعلام الذين برعوا فى علوم كثيرة ، وتركوا تراثًا إسلاميا ضخمًا تناقلته العصور والأجيال ، وقد أحرز شهرة واسعة بكتابيه : فى التاريخ : تاريخ الأمم والملوك ، والتفسير : جامع البيان فى تفسير القرآن ، وهما

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٨٩) .

من أهم المراجع العلمية ، بل إن كتابه فى التفسير هو المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير بالمأثور .

ويقع تفسير ابن جرير فى ثلاثين جزءًا من الحجم الكبير ، وقد كان مفقودًا إلى عهد قريب ، ثم قدَّر الله له الظهور حين وُجِدَت نسخة مخطوطة فى حيازة « أمير حائل » الأمير حمود بن الرشيد من أمراء نجد ، طُبِعَ عليها الكتاب منذ زمن قريب ، فأصبحت فى يدنا معارف غنية فى التفسير بالمأثور .

وهو تفسير عظيم القيمة ، لا غِنَى لطالب التفسير عنه ، قال السيوطى : « وكتابه - يعنى تفسير محمد بن جرير - أَجَلّ التفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، والإعراب ، والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين » وقال النووى : « أجمعت الأمة على أنه لم يُصَنَّف مثل تفسير الطبرى » (1) .

وتفسير الطبرى أقدم كتاب وصل إلينا كاملاً فى التفسير ، فإن المحاولات التفسيرية قبله لم يصل إلينا شىء منها ، اللَّهُمَّ إلا ما وصل إلينا منها فى ثنايا ذلك الكتاب .

وطريقة ابن جرير فى تفسيره أنه إذا أراد أن يُفَسِّر الآية من القرآن يقول : « القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ثم يُفَسِّر الآية مستشهدًا بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم ، ويعرض لكل ما رُوِىَ فى الآية ، ولا يقتصر على مجرد الرواية ، بل يوجه الأقوال ويرجح بعضها على بعض ، كما يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك ، ويستنبط بعض الأحكام .

وقد يقف من السند موقف الناقد البصير أحيانًا ، فيعدِّل من رجال الإسناد ، ويجرِّح مَن يجرَح منهم ، ويرد الرواية التى لا يثق بصحتها .

ويعتنى ابن جرير بذكر القراءات وتوجيهها ، ويقال : إنه ألَّف فيها مؤلَّفًا خاصًا .

ومع روايته الأخبار المأخوذة من القصص الإسرائيلى فإنه كثيرًا ما يتعقبها بالبحث.

ويعتمد ابن جرير على الاستعمالات اللُّغوية بجانب الروايات المنقولة ، ويستشهد

---

(1) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٩٠) .

بالشعر القديم ، ويهتم بالمذاهب النحوية ، ويحتكم إلى المعروف من لغة العرب ، ويعالج الأحكام الفقهية مجتهدًا ، فيذكر أقوال العلماء ومذاهبهم ، ويخلص من ذلك برأى يختاره لنفسه ويرجحه .

ويناقش مسائل العقيدة مناقشة فاحصة ، يرد فيها على الفِرَق ومذاهب أهل الكلام ، وينتصر لأهل السُّنَّة والجماعة .

وقد طبعت دار المعارف بمصر كتابه ، فى إخراج حسن ، وخرَّج أحاديثه الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ولكن هذه الطبعة لم تتم ، مع عظيم نفعها ، والعناية بتحقيقها .

* * *

٣ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - لابن عطية

ابن عطية من قضاة الأندلس المشهورين ، نشأ فى بيت علم وفضل ، وكان فقيهًا جليلاً ، عارفًا بعلوم الحديث والتفسير واللُّغة والأدب ، ذكى الفؤاد ، حسن الفهم ، من أعيان مذهب المالكية ، وكتابه فى التفسير يسمى « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز » .

وقد لخص فيه ابن عطية ما رُوِىَ من التفسير بالمنقول ، وأضفى عليه من روحه العلمية الفيَّاضة ما أكسبه دقة ورواجًا ، والكتاب يقع فى عشر مجلدات كبار وكان مخطوطًا إلى عهد قريب ثم طُبِعَ فى المغرب سنة ١٩٧٥ بتحقيق « المجلس العلمى بفاس - مديرية الشؤون الإسلامية - المملكة المغربية » ، والكتاب له شهرته ، وينقل عنه كثير من المفسرين ، وهو كثير الاهتمام بالشواهد الأدبية ، والصناعة النحوية ، ويقارن أبو حبان فى مقدمة تفسيره بينه وبين تفسير الزمخشرى فيقول : « وكتاب ابن عطية أنقل ، وأجمع ، وأخلص ، وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص » .

ويعقد ابن تيمية مقارنة بين الكتابين كذلك فيقول : « وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى ، وأصح نقلاً وبحثًا ، وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير » .

ويقول ابن تيمية كذلك : « وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسُّنَّة والجماعة ،

وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى ، ولو ذكر كلام السَّلَف الموجود فى التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ، فإنه كثيرًا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبرى - وهو من أجَلِّ التفاسير وأعظمها قدرًا - ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السَّلَف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كان أقرب إلى السُّنَّة من المعتزلة » [1] .

* * *

٤ - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير

كان عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير إمامًا جليلاً حافظًا ، أخذ عن ابن تيمية ، وأتبعه فى كثير من آرائه ، وشهد له العلماء بغزارة علمه فى التفسير والحديث والتاريخ ، وكتابه فى التاريخ « البداية والنهاية » مرجع أصيل للتاريخ الإسلامى ، وكتابه فى التفسير « تفسير القرآن العظيم » من أشهر ما دُوِّنَ فى التفسير بالمأثور ، ويأتى فى المرتبة الثانية بعد كتاب ابن جرير ، فهو يُفَسِّر كلام الله بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها ، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحًا وتعديلاً ، وترجيح بعض الأقوال على بعض ، وتضعيف بعض الروايات وتصحيح بعضها الآخر .

ويمتاز ابن كثير بأنه يُنَبِّه فى كثير من الأحيان إلى ما فى التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات ، كما يذكر أقوال العلماء فى الأحكام الفقهية ، ويناقش مذاهبهم وأدلتهم أحيانًا .

وتفسير ابن كثير طُبِعَ مع « معالم التنزيل » للبغوى ، وطُبِعَ مستقلاً فى أربعة أجزاء كبار ، وقام الشيخ أحمد محمد شاكر بطبعه قبيل وفاته بعد أن جرَّده من الأسانيد .

* * *

(١) « مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير » (ص٢٣) .

أشهر الكتب المؤلَّفة فى التفسير بالرأى

تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه

١ – تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم .

٢ – تفسير أبى على الجبائى .

٣ – تفسير عبد الجبار .

٤ – تفسير الزمخشرى « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل ، فى وجوه التأويل » .

٥ – تفسير فخر الدين الرازى « مفاتيح الغيب » .

٦ – تفسير ابن فورك .

٧ – تفسير النسفى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

٨ – تفسير الخازن « لُباب التأويل فى معانى التنزيل » .

٩ – تفسير أبى حيان « البحر المحيط » .

١٠ – تفسير البيضاوى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » .

١١ – تفسير الجلالين : جلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى .

أما جلال الدين المحلى ، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس ، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة ، وبعد أن أتمها اختارته المنية فلم يُفسِّر ما بعدها .

وأما جلال الدين السيوطى ، فقد جاء بعد الجلال المحلى فكمَّل تفسيره ، فابتدأ بتفسير سورة البقرة وانتهى عند آخر سورة الإسراء ، ووضع تفسير الفاتحة فى آخر تفسير الجلال المحلى لتكون ملحقة به .

وكثيراً ما يخطئ بعض الناس فى هذا التقسيم .

١٢ – تفسير القرطبى « الجامع لأحكام القرآن » .

١٣ – تفسير أبى السعود « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » .

١٤ – تفسير الآلوسى « روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى » .

وسنعرِّف ببعض منها :

١ - مفاتيح الغيب - للرازى

فخر الدين الرازى من العلماء المتبحرين الذين نبغوا فى العلوم النقلية والعلوم العقلية ، واكتسب شهرة عظيمة طوَّفت به فى الآفاق ، وله مصنفات كثيرة ، ومن أهم مصنفاته تفسيره الكبير ، المسمى بـ « مفاتيح الغيب » .

ويقع هذا التفسير فى ثمانى مجلدات كبار ، وتدل الأقوال على أن الفخر الرازى لم يتمه ، وتتضارب الآراء فى الموضع الذى انتهى إليه فى تفسيره ، وفيمن أتمه بعده ، ويُعَلِّق على هذا الشيخ محمد الذهبى فيقول : « والذى أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب ، هو أن الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء ، فأتى بعده شهاب الدين الخوبى فشرع فى تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه ، فأتى بعده نجم الدين القمولى فأكمل ما بقى منه ، كما يجوز أن يكون الخوبى أكمله إلى النهاية ، والقمولى كتب تكملة أخرى غير التى كتبها الخوبى ، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون » (١) .

والقارئ لهذا التفسير لا يجد تفاوتًا فى المنهج والمسلك ، ولا يستطيع أن يُميِّز بين الأصل والتكملة .

ويهتم الفخر الرازى ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره ، ويُكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والفلسفية ومباحث الإلهيات على نمط استدلالات الفلاسفة العقلية ، ويذكر مذاهب الفقهاء ، ومعظم ذلك لا حاجة إليه فى علم التفسير .

فكتابه موسوعة علمية فى علم الكلام ، وفى علوم الكون والطبيعة ، وبهذا فقد اهميته كتفسير للقرآن الكريم .

* * *

٢ - البحر المحيط - لأبى حيَّان

كان أبو حيان الأندلسى الغرناطى على جانب كبير من المعرفة باللُّغة ، وكان على

---

(١) « التفسير والمفسرون » (١/ ٢٩٣) .

علم واسع فى التفسير ، والحديث ، وتراجم الرجال ، ومعرفة طبقاتهم ، خصوصًا المغاربة ، وله مؤلفات كثيرة ، أهمها تفسيره « البحر المحيط » .

ويقع هذا التفسير فى ثمانى مجلدات كبار ، وهو مطبوع متداول ، ويهتم أبو حيان فيه بذكر وجوه الإعراب ، ومسائل النحو ، ويتوسَّع فى هذا فيذكر الخلاف بين النحويين ، ويناقش ويجادل ، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير .

وينقل أبو حيان فى تفسيره كثيرًا من تفسير الزمخشرى وتفسير ابن عطية ، ولا سيما ما يتعلق بمسائل النحو ووجوه الإعراب ، ويتعقبها كثيرًا بالرد .

ويحمل على الزمخشرى أحيانًا حملات قاسية ، وإن كان يشيد بما له من مهارة فائقة فى تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه .

ولا يرضى أبو حيَّان عن اعتزاليات الزمخشرى فينقدها ويردها بأسلوب ساخر ، ويعتمد فى أكثر نقوله على كتاب « التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير » وهو لشيخه : جمال الدين أبى عبد الله محمد بن سليمان المقدسى المعروف بابن النقيب ، ويذكر أبو حيَّان عنه أنه أكبر كتاب صُنِّفَ فى علم التفسير ، يبلغ فى العدد مائة سِفر أو يكاد .

* * *

٣ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل - للزمخشرى

كان الزمخشرى عالمًا عبقريًا فذا فى النحو واللُّغة والأدب والتفسير ، وآراؤه فى العربية يستشهد علماء اللُّغة بها لأصالتها ودقتها .

والزمخشرى معتزلى الاعتقاد ، حنفى المذهب ، ألَّف كتاب « الكشاف » بما يدعم عقيدته ومذهبه .

واعتزاليات الزمخشرى فى تفسيره أمارة على حذقه ودهائه ومهارته ، فهو يأتى بالإشارات البعيدة ليضمنها معنى الآية فى الانتصار للمعتزلة والرد على خصومهم ، ولكنه فى الجانب اللُّغوى كشف عن جمال القرآن وسحر بلاغته لما له من إحاطة

بعلوم البلاغة والبيان والأدب والنحو والتصريف ، فكان مرجعًا لُغويًا غنيًا ، وهو يشير في مقدمته إلى هذا فيذكر أن مَن يتصدى للتفسير لا يغوص على شيء من حقائقه ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما « علم المعانى » ، و« علم البيان » ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقيب عنها أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذًا من سائر العلوم بحظ ، جامعًا بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زمانًا ورجع إليه ، ورد عليه ، فارسًا في علم الإعراب ، مقدمًا في حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مستقل القريحة وقَّادها » .

ويحلل ابن خلدون كتاب الكشاف للزمخشرى في قوله عند الحديث عما يرجع إليه التفسير من معرفة اللُّغة والإعراب والبلاغة : « ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير ، كتاب الكشاف للزمخشرى ، من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحِجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في آى القرآن من طريق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السُّنَّة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكامنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللِّسان والبلاغة ، وإذا كان الناظر فيه واقفًا مع ذلك على المذاهب السُّنِّيَّة ، محسنًا للحجاج عنها ، فلا جَرَم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللِّسان ، ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين ، وهو شرف الدين الطيبى من أهل توريز من عراق العجم ، شرح فيه كتاب الزمخشرى هذا ، وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبيِّن أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السُّنَّة ، لا على ما يراه المعتزلة ، فأحسن في ذلك ما شاء ، مع امتاعه في سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليم »[1] .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون (ص٤٩١) .

أشهر كتب التفسير فى العصر الحديث

لقد أعطى المفسِّرون الأوائل كتب التفسير حظها من المنقول والمعقول ، وتوافروا على المباحث اللُّغوية ، والبلاغية ، والنحوية ، والفقهية والمذهبية والكونية الفلسفية ثم فترت الهمم ، وجاء من بعدهم مختصرًا وناقلاً ، أو مفندًا ومرجحًا .

فلما جاءت النهضة العلمية فى العصر الحديث شملت فيما شملته « التفسير » وإليك أمثلة منه :

١ - الجواهر فى تفسير القرآن - للشيخ طنطاوى جوهرى

كان الشيخ طنطاوى جوهرى مغرمًا بالعجائب الكونية ، وكان مدرسًا بمدرسة دار العلوم فى مصر ، يُفَسِّر بعض آيات القرآن على طلبتها ، كما كان يكتب فى بعض الصحف ثم خرج بمؤلفه فى التفسير « الجواهر فى تفسير القرآن » .

وقد عَنِىَ فى هذا التفسير عناية فائقة ، بالعلوم الكونية ، وعجائب الخَلْق ، ويقرر فى تفسيره أن فى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، ويهيب بالمسلمين أن يتأملوا فى آيات القرآن التى تُرشد إلى علوم الكون ، وبحثهم على العمل بما فيها ، ويفضلها على غيرها فى الوقت الحاضر ، حتى على فرائض الدين ، فيقول : « يا ليت شعرى : لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث ؟ ولكنى أقول : الحمد لله ، الحمد لله ! إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم ، ودراستها أفضل من دراسة عِلم الفرائض ، لأنه فرض كفاية ، فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله ، وهى فرض عين على كل قادر » ويأخذ الغرور منه مأخذه ، فينحى باللائمة على المفسِّرين السابقين ، ويقول : « إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام ، فهذا زمان الانقلاب ، وظهور الحقائق ، والله يهدى مَن يشاء إلى صراط مستقيم » .

والمؤلف يخلط فى كتابه خلطًا ، فيضع فى تفسيره صور النبات والحيوانات ومناظر الطبيعة ، وتجارب العلوم كتاب مدرسى فى العلوم ، ويشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون فى جمهوريته ، وعن إخوان الصفا فى رسائلهم ، ويستخدم الرياضيات ، ويفسِّر الآيات تفسيرًا يقوم على نظريات علمية حديثة .

وقد أساء الشيخ طنطاوي جوهرى في نظرنا بهذا إلى التفسير إساءة بالغة من حيث يظن أنه يُحسن صنعًا ولم يجد تفسيره قبولاً لدى كثير من المثقفين ، لما فيه من تعسف فى حمل الآيات على غير معناها ، ولذا وُصِفَ هذا التفسير بما وُصِفَ به تفسير الفخر الرازى ، فقيل عنه : « فيه كل شيء إلا التفسير » .

* * *

٢ - تفسير المنار - للسيد محمد رشيد رضا

لقد قام الشيخ محمد عبده بنهضة علمية مباركة ، آتت ثمارها فى تلاميذه ، وترتكز هذه النهضة على الوعى الإسلامى ، وإدراك مفاهيم الإسلام الاجتماعية ، وعلاج هذا الدين لمشاكل الحياة المعاصرة ، وبدأت نواة ذلك فى حركة جمال الدين الأفغانى ، الذى تتلمذ عليه الشيخ محمد عبده ، وكان الشيخ محمد عبده يلقى دروسًا فى التفسير بالجامع الأزهر ، ولازمه كثير من طلابه ومريديه ، وكان الشيخ رشيد ألزم الناس لهذه الدروس ، وأحرصهم على تلقيها وضبطها ، فكان بحق الوارث الأول لعلم الشيخ محمد عبده ، فظهرت ثمرة ذلك فى تفسيره المسمى بـ« تفسير القرآن الحكيم » ، والمشهور بـ « تفسير المنار » ، نسبة إلى مجلة « المنار » التى كان يصدرها .

وقد بدأ تفسيره من أول القرآن ، وانتهى عند قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْك وَعَلَّمْتَنِى من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث ، فَاطِرَ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالآخرَة ، تَوَفَّنِى مُسْلمًا وَأَلْحقْنِى بِالصَّالحينَ ﴾ (١) ، ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن ، وهذا القدر من التفسير مطبوع فى اثنى عشر مجلدًا كبارًا .

وهو تفسير غنى بالمأثور عن سالف هذه الأمة من الصحابة التابعين ، وبأساليب اللُّغة العربية ، وسُنَن الله الاجتماعية ، يشرح الآيات بأسلوب رائع ، ويكشف عن المعانى بعبارة سهلة ، ويوضح كثيرًا من المشكلات ، ويرد على ما أُثير حول الإسلام من شبهات خصومه ، ويعالج أمراض المجتمع بهَدى القرآن ، ويُصرِّح الشيخ رشيد

---

(١) يوسف : ١٠١

بأن هدفه من هذا التفسير هو : « فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة » .

* * *

٣ – فى ظلال القرآن – لسيد قطب

تعتبر حركة الإخوان المسلمين التى قام بها الشهيد حسن البنا كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة بلا مراء ، ولا يستطيع أحد من خصومها أن يُنكر فضلها فيما أحدثته من وعى فى العالم الإسلامى كافة ، فَجَّرَ طاقات الشباب المسلم لخدمة الإسلام ، وإعزاز شريعته ، وإعلاء كلمته ، وبناء مجده ، واستعادة سلطانه .

ومهما قيل فى الأحداث التى وقعت على هذه الجماعة فإن أثرها الفكرى لا يجحده إنسان .

وبرز من رجال هذه الجماعة العالِم الفذ ، والمفكر الألمعى ، الشهيد سيد قطب ، الذى فلسف الفكر الإسلامى ، وكشف عن مفاهيمه الصحيحة فى وضوح وجلاء ، وقد لقى الرجل ربه شهيدًا فى سبيل عقيدته وترك تراثه الفكرى ، وفى مقدمته كتابه فى تفسير القرآن ، المسمى « فى ظلال القرآن » .

والكتاب تفسير كامل للحياة فى ضوء القرآن وهَدى الإسلام ، عاش مؤلفه فى ظلال الذكر الحكيم كما يُفهم من تسميته – يتذوَّق حلاوة القرآن ، ويُعبِّر عن مشاعره تعبيرًا صادقًا ، انتهى فيه إلى أن الإنسانية اليوم فى شقائها بالمذاهب الهدَّامة ، وصراعها الدامى من حين لآخر ، لا خلاص لها إلا بالإسلام ، يقول فى المقدمة : « وانتهيتُ من فترة الحياة فى ظلال القرآن – إلى يقين جازم حاسم . . أنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ، ولا طهارة ، ولا تناسق مع سُنَن الكون وفِطرة الحياة . . إلا بالرجوع إلى الله .

والرجوع إلى الله – كما يتجلى فى ظلال القرآن – له صورة واحدة – وطريق واحد . . واحد لا سواه . . إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذى رسمه للبشرية فى كتابه الكريم ، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده فى حياتها ، والتحاكم إليه

وحده فى شئونها ، وإلا لهو الفساد فى الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس فى الحمأة ، والجاهلية التى تعبد الهَوى من دون الله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

إن الاحتكام إلى منهج الله فى كتابه ليس نافلة ولا تطوعًا ولا موضع اختيار ، إنما هو الإيمان . . أو فلا إيمان : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُم لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

ومن هذا المنطلق نَهَجَ سيد قطب فى تفسيره ، وهو يأتى أولاً بظلالة فى مقدمة السورة ، تربط بين أجزائها ، وتوضح أهدافها ومقاصدها ، ثم يشرع بعد ذلك فى التفسير ، فيذكر المأثور الصحيح ، ويضرب صفحًا عن المباحث اللُّغوية مكتفيًا بالإشارة العابرة ، ويتجه إلى إيقاظ الوعى ، وتصحيح المفاهيم ، وربط الإسلام بالحياة .

والكتاب يقع فى ثمانى مجلدات ، وقد طُبِعَ عدة طبعات ، فى سنوات معدودة ، لما له من رواج كبير لدى المثقفين .

وهو بحق ثروة فكرية اجتماعية هائلة لا يستغنى عنها المسلم المعاصر .

* * *

٤ - التفسير البيانى للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

من نسائنا المعاصرات اللاتى أسهمن بنصيبهن فى الأدب العربى والفكر الاجتماعى - الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، المشهورة بـ « بنت الشاطئ » .

---

(١) القصص : ٥٠ (٢) الأحزاب : ٣٦

(٣) الجزء الأول - المجلد الأول (ص٨) - (والآية من سورة الجاثية : ١٨ - ١٩) .

وقد تولَّت التدريس فى كلية الآداب بالقاهرة ، وفى كلية التربية للبنات ، وتناولت فى تدريسها تفسير بعض سور القرآن القصار ، وطبعت ذلك فى « التفسير البيانى للقرآن » .

وبنت الشاطئ تهتم فى تفسيرها بالبيان العربى وتذكر فى المقدمة أنها اهتدت إلى هذه الطريقة لمعالجة مشكلاتنا فى حياتنا الأدبية واللُّغوية ، وأنها بحثت ذلك فى عدة مؤتمرات دولية ، ففى مؤتمر المستشرقين الدولى فى الهند سنة ١٩٦٤ - كان موضوع البحث الذى شاركت به فى شُعبة الدراسات الإسلامية هو « مشكلة الترادف اللُّغوى ، فى ضوء التفسير البيانى للقرآن الكريم » تقول : « وفيه بيَّنتُ كيف شهد التتبع الدقيق لمعجم ألفاظ القرآن - واستقراء دلالاتها فى سياقها ، بأن القرآن يستعمل اللُّفظ بدلالة محدودة ، لا يمكن معها أن يقوم لفظ مقام آخر ، فى المعنى الواحد الذى تحشد له المعاجم اللُّغوية وكتب التفسير ، عددًا قل أو كثر من الألفاظ المقول بترادفها » .

وتعيب بنت الشاطئ على الانشغال فى دروس الأدب بالمعلقات والنقائض والمفضليات ومشهور الخمريات والحماسيات عن الاتجاه إلى القرآن الكريم ، ثم تقول : « ونحن فى الجامعة نترك هذا الكنز الغالى لدرس التفسير ، وقَلَّ فينا مَن حاول أن ينقله إلى مجال الدراسة الأدبية الخالصة التى قصرناها على دواوين الشعر ، ونثر أمراء البيان » .

والتفسير البيانى محاولة لا بأس بها لتحقيق الأغراض التى تهدف إليها بنت الشاطئ ، وهى تعتمد فى ذلك على كتب التفسير التى لها عناية بوجوه البلاغة القرآنية ، وتُعَبِّر تعبيرًا أدبيًا راقيًا (١) .

* * *

---

(١) من محاذير هذا النهج فى التفسير أنه يُغفل جوانب القرآن المتعددة من أسرار الإعجاز فى معانيه وتشريعاته ، وأحكامه ومبادئه للحياة الإنسانية الفاضلة ، ويتخذ من النص القرآنى مادة للدراسة الأدبية كالنص الشعرى أو النثرى ، ودراسة النصوص الأدبية تعتمد على الذوق اللُّغوى الذى يتفاوت من شخص لآخر بتفاوت ثقافته .

تفسير الفقهاء

كان الصحابة فى عهد رسول الله ﷺ يفهمون القرآن بسليقتهم العربية ، وإن التبس عليهم فهم آية رجعوا إلى رسول الله فيبينها لهم .

ولما توفى ﷺ وتولى فقهاء الصحابة توجيه الأمة بقيادة الخلفاء الراشدين ، وُجدَت قضايا لم تسبق لهم كان القرآن ملاذًا لهم لاستنباط الأحكام الشرعية للقضايا الجديدة ، فيُجمعون على رأى فيها ، وقلَّما يختلفون عند التعارض ، كاختلافهم فى عدة الحامل المتوفى عنها زوجها . أهى وضع الحمل ، أم مضى أربعة أشهر وعشرًا ، أم أبعد الأجلين منهما ؟ حيث قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ ويَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (٢) ، فكانت هذه الأحوال على قلتها بداية الخلاف الفقهى فى فهم آيات الأحكام .

فلما كان عهد الأئمة الفقهاء الأربعة ، واتخذ كل إمام أصولاً لاستنباط الأحكام فى مذهبه ، وكثرت الأحداث وتشعبت المسائل ازدادت وجوه الاختلاف فى فهم بعض الآيات لتفاوت وجوه الدلالة فيها دون تعصب لمذهب بل استمساكًا بما يرى الفقيه أنه الحق ، ولا يجد غضاضة إذا عرف الحق لدى غيره أن يرجع إليه .

ظل الأمر هكذا حتى جاء عصر التقليد والتعصب المذهبى ، فقصر أتباع الأئمة جهودهم على توضيح مذهبهم والانتصار له ، ولو كان ذلك بحمل الآيات القرآنية على المعانى المرجوحة البعيدة ، ونشأ من هذا تفسير فقهى خاص لآيات الأحكام فى القرآن ، يشتد التعصب المذهبى فيه أحيانًا ، ويخف أخرى .

وتتابع هذا المنهج إلى العصر الحديث ، وهذا هو ما نسميه بالتفسير الفقهى ، ومن أشهر كتبه :

١ - أحكام القرآن للجصاص - مطبوع .

٢ - أحكام القرآن للكيا الهراس - مطبوع .

---

(١) البقرة : ٢٣٤ (٢) الطلاق : ٤

٣ - أحكام القرآن لابن العربى - مطبوع .

٤ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى - مطبوع .

٥ - الإكليل فى استنباط التنزيل للسيوطى - مخطوط .

٦ - التفسيرات الأحمدية فى بيان الآيات الشرعية لملا جيون - مطبوع بالهند .

٧ - تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد السايس - مطبوع .

٨ - تفسير آيات الأحكام للشيخ منَّاع القطان - مطبوع .

٩ - أضواء البيان للشيخ محمد الشنقيطى - مطبوع .

وسنعرِّف ببعض منها :

* * *

١ - أحكام القرآن - للجصَّاص

أبو بكر أحمد بن علىّ الرازى المشهور بالجصَّاص - نسبة إلى العمل بالجص - من أئمة الفقه الحنفى فى القرن الرابع الهجرى ، ويُعتبر كتابه « أحكام القرآن » من أهم كتب التفسير الفقهى ، ولا سيما عند الأحناف .

وقد اقتصر المؤلف فى هذا الكتاب على تفسير الآيات التى تتعلق بالأحكام الفرعية ، فيورد الآية أو الآيات ، ثم يتولى شرحها بشىء من المأثور فى معناها ، ويستطرد فى ذكر المسائل الفقهية التى تتصل بها من قريب أو بعيد ، ويسوق الخلافات المذهبية ، حيث يشعر القارئ أنه يقرأ فى كتاب من كتب الفقه ، لا فى كتاب من كتب التفسير .

والجصَّاص يتعصب لمذهب الحنفية تعصبًا ممقوتًا ، يحمله على التعسف فى تفسير الآيات وتأويلها انتصاراً لمذهبه ، ويشتد فى الرد على المخالفين متعنتًا فى التأويل بصورة تنفر القارئ أحيانًا من متابعة القراءة ، لعباراته اللاذعة فى مناقشة المذاهب الأخرى .

ويبدو من تفسير الجصَّاص كذلك أنه ينحو منحى المعتزلة فى العقائد ، فيقول مثلاً

فى قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ (١) : معناه لا تراه الأبصار ، وهذا تمدح بنفى رؤية الأبصار ، كقوله تعالى : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (٢) ،وما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم ونقص ، فغير جائز إثبات نقيضه بحال . . فلما تمدح بنفى رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال ، إذ كان فيه إثبات صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون مخصوصًا بقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٣) لأن النظر محتمل لمعان : منها انتظار الثواب ، كما رُوِىَ عن جماعة من السَلَف ، فلما كان ذلك محتملاً للتأويل لم يجز الاعتراض به على ما لا مساغ للتأويل فيه ، والأخبار المروية فى الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت ، وهو علم الضرورة الذى لا تشوبه شبهة ، ولا تعرض فيه الشكوك ، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة فى اللُّغة » (٤) .

والكتاب مطبوع فى ثلاث مجلدات ، وهو متداوَل بين أهل العلم ، ومن مراجع الفقه الحنفى .

* * *

٢ – أحكام القرآن – لابن العربى

أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافرى الأندلسى الإشبيلى ، من أئمة علماء الأندلس المتبحرين ، وهو مالكى المذهب ، وكتابه « أحكام القرآن » أهم مرجع للتفسير الفقهى عند المالكية .

وابن العربى فى تفسيره رجل معتدل منصف ، لا يتعصب لمذهبه كثيراً ، ولا يتعسف فى تفنيد آراء المخالفين كما فعل الجصَّاص ، وإن كان يتغاضى عن كل زلَّة علمية تصدر من مجتهد مالكى .

وهو يذكر آراء العلماء فى تفسير الآية مقتصرًا على آيات الأحكام ، ويُبيِّن

(١) الأنعام : ١٠٣
(٢) البقرة : ٢٥٥
(٣) القيامة : ٢٢ – ٢٣
(٤) انظر (٣/ ٥) .

احتمالاتها المختلفة لدى المذاهب المتعددة ، ويُفرد كل نقطة فى تفسير الآية بعنوان ، فيقول : المسألة الأولى . . المسألة الثانية . . وهكذا ، وقلَّما يقسو فى الرد على مخالفيه ، كقوله مثلاً فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاة فَاغْسلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ (١) : « المسألة الحادية عشرة » قوله عز وجل : ﴿ فَاغْسلُواْ ﴾ وظن الشافعى - وهو عند أصحابه معد بن عدنان فى الفصاحة بله أبى حنيفَة وسواه - أن الغسل صب الماء على المغسول من غير عرك ، وقد بيَّنا فساد ذلك فى مسائل الخلاف ، وفى سورة النساء ، وحققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء أو ما فى معنى اليد » (١) .

ويحتكم ابن العربى فى تفسيره إلى اللُّغة فى استنباط الأحكام ، وينفر من الإسرائيليات ، ويتعرض لنقد الأحاديث الضعيفة ويحذِّر منها .

والكتاب مطبوع عدة طبعات ، منها طبعة فى مجلدين كبيرين ، ومنها طبعة فى أربع مجلدات ويتداوله العلماء .

* * *

٣ - الجامع لأحكام القرآن - لأبى عبد الله القرطبى

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى ، الخزرجى الأندلسى ، عالم فذ من علماء المالكية ، له مصنفات كثيرة ، أشهرها كتابه فى التفسير « الجامع لأحكام القرآن » .

والقرطبى فى تفسيره لم يقتصر على آيات الأحكام وإنما يفسِّر القرآن الكريم تباعًا ، فيذكر سبب النزول ، ويعرض للقراءات والإعراب ، ويشرح الغريب من الألفاظ ، ويضيف الأقوال إلى قائليها ، ويضرب صفحاً عن كثير من قصص المفسِّرين ، وأخبار المؤرخين ، وينقل عن العلماء السابقين الموثوقين ، ولا سيما من ألَّف منهم فى كتب الأحكام ، فينقل عن ابن جرير الطبرى ، وابن عطية ، وابن العربى ، والكيا الهراس ، وأبى بكر الجصَّاص .

---

(١) المائدة : ٦

(٢) انظر (١/ ٢٣٢) .

ويفيض القرطبى فى بحث آيات الأحكام ، فيذكر مسائل الخلاف ، ويسوق أدلة كل رأى ، ويُعلِّق عليها ، ولا يتعصب لمذهبه المالكى ، ففى تفسير قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (١) ، يقول فى المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية بعد أن ذكر خلاف العلماء فى حكم مَن أكل فى نهار رمضان ناسيًا وما نُقِلَ عن مالك من أنه يُفطر وعليه القضاء يقول : « وعند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسيًا لصومه ، قلت : وهو الصحيح ، وبه قال الجمهور إن مَن أكل أو شرب ناسيًا فلا قضاء عليه ، وأن صومه تام ، لحديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أكل الصائم ناسيًا أو شرب ناسيًا فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه ، ولا قضاء عليه » (٢) . فأنت ترى أنه بهذا يخالف مذهبه ، وينصف الآخرين .

ويرد القرطبى على الفرق ، فيرد على المعتزلة ، والقَدرية ، والروافض ، والفلاسفة ، وغُلاة المتصوفة ، ولكن بأسلوب مهذب كذلك ، ويدفعه الإنصاف إلى الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربى من المخالفين أحيانًا - ويلومه على ما يصدر منه من عبارات قاسية على علماء المسلمين ، وحين ينقد يكون نقده نزيهًا فى أدب وعفة .

وقد كان كتاب « الجامع لأحكام القرآن » مفقودًا من المكتبات حتى قامت دار الكتب المصرية بطبعه أخيرًا فيسَّرت الحصول عليه للقارئين .

* * *

(١) البقرة : ١٨٧

(٢) انظر (٢/ ٣٢٢) .

- ٢٦ -

تراجم لبعض مشاهير المفسرين

« ابن عباس »

نسبه وحياته : هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ابن عم رسول الله ﷺ ، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية ، وُلِدَ وبنو هاشم بالشِعْب قبل الهجرة بثلاث - وقيل بخمس - والأول أثبت .

وقد حج عبد الله بن عباس سنة قتل عثمان بأمر منه ، وكان على الميسرة يوم صفين ، وولاه على البصرة ، فلم يزل ابن عباس عليها حتى قُتِل علىّ فاستخلف على البصرة عبد الله بن الحارث ومضى إلى الحجاز ، وتوفى بالطائف سنة خمس وستين - وقيل : سبع : وقيل : ثمان - وهو الصحيح فى قول الجمهور ، قال الواقدى : لا خلاف عند أئمتنا أنه وُلِدَ بالشعب حين حصرت قريش بنى هاشم ، وأنه كان له عند موت النبى ﷺ ثلاث عشرة سنة .

منزلته وعلمه : وابن عباس ترجمان القرآن ، وحَبْر الأمة ، ورئيس المفسِّرين ، فقد أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : « نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس » ، وأخرج أبو نعيم عن مجاهد قال : « كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه » ، وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن يحيى بن سعيد الأنصارى : « لما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة : مات حَبْر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل فى ابن عباس خَلَفًا » .

وقد أحرز ابن عباس منزلته بين كبار الصحابة على صغر سنه بعلمه وفهمه تحقيقًا لدعوة رسول الله ﷺ ، ففى الصحيح عنه أن النبى ﷺ ضمَّه إليه وقال : « اللَّهُمَّ علِّمه الحكمة » ، وفى معجم البغوى ، وغيره عن عمر أنه كان يقرِّب ابن عباس ويقول : « إنى رأيتُ رسول الله ﷺ دعاك فمسح رأسك ، وتفل فى فِيك » ، وقال : « اللَّهُمَّ فقهه فى الدين ، وعلِّمه التأويل » ، وأخرج البخارى من طريق سعيد

ابن جبير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وَجَدَ فى نفسه ، فقال : لِمَ يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه مَن علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١) ؟ فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا ، فقال لى : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٢) فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول » .

تفسيره : وقد ورد عن ابن عباس فى التفسير ما لا يُحصى كثرة ، وجُمِعَ ما نُقِلَ عنه فى تفسير مختصر ممزوج يسمى « تفسير ابن عباس » وفيه روايات وطرق مختلفة ، ولكن أحسن الطرق عنه طريق علىّ بن أبى طلحة الهاشمى عنه ، واعتمد على هذه البخارى فى « صحيحه » ، ومن جيد الطرق طريق قيس بن مسلم الكوفى عن عطاء بن السائب .

وفى التفاسير الطوال التى أسندوها إلى ابن عباس مجاهيل ، وأوهى طرقه طريق الكلبى عن أبى صالح ، والكلبى هو أبو النصر محمد بن السائب المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، فإن انضم إليه رواية محمد بن مروان السدى الصغير المتوفى سنة ١٨٦ هـ فهى سلسلة الكذب ، وكذلك طريق مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدى ، إلا أن الكلبى يفضل عليه لما فى مقاتل من المذاهب الرديئة . .

وطريق الضحَّاك بن مزاحم الكوفى عن ابن عباس منقطعة ، فإنه لم يلق ابن عباس ، وإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة فضعيفة لضعف بشر ، وإن كان من رواية جويبر عن الضحَّاك فأشد ضعفًا ، لأن جويبرًا شديد الضعف متروك .

وطريق العوفى عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيرًا ، والعوفى ضعيف ليس بواه ، وربما حسَّن له الترمذى .

---

(١) النصر : ١ (٢) النصر : ٣

وبهذا يستطيع القارئ أن ينقِّب عن الطرق ويعرف منها الجيد المقبول من الضعيف أو المتروك ، فليس كل ما رُوِى عن ابن عباس بالصحيح الثابت ، وقد ذكرنا مزيدًا من التفصيل عن ذلك عند الكلام عن تفسيره .

* * *

مجاهد بن جبر

نسبه وحياته : هو مجاهد بن جبر المكى أبو الحجاج المخزومى المقرئ ، مولى السائب بن أبى السائب ، روى عن علىّ ، وسعد بن أبى وقاص ، والعبادلة الأربعة ، ورافع بن خديج ، وعائشة ، وأم سلمة ، وأبى هريرة ، وسراقة بن مالك ، وعبد الله بن السائب المخزومى ، وخلق كثير ، وروى عنه عطاء ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار ، وقتادة ، وسليمان الأحول ، وسليمان الأعمش ، وعبد الله بن كثير القارئ ، وآخرون ، وكان مولده سنة ٢١ هـ (إحدى وعشرين) فى خلافة عمر ، ومات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة ، وقال يحيى القطَّان : مات سنة ١٠٤ هـ (أربع ومائة) .

منزلته : ومجاهد رأس المفسرين من طبقة التابعين حتى قيل إنه كان أعلمهم بالتفسير ، وقد أخذ تفسيره عن ابن عباس ثلاثين مرة ، وعنه أيضاً قال : عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، أقف عند كل آية وأسأله عنها ، فِيمَ نزلت ، وكيف كانت ؟ وقال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، قال ابن تيمية : ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى ، وغيرهما من أهل العلم .

وقال أبو حاتم : مجاهد لم يسمع عن عائشة ، حديثه عنها مرسل ، وقال : مجاهد عن سعد ومعاوية وكعب بن عجرة مرسل ، وقال أبو نعيم : قال يحيى القطَّان : مرسلات مجاهد أحبُّ إلىّ من مرسلات عطاء ، وقال قتادة : أعلم مَن بقى بالتفسير مجاهد ، وقال ابن سعد : كان ثقة فقيهًا عالمًا كثير الحديث ، وقال ابن حبان : كان فقيهًا ورعًا عابدًا متقنًا ، وقال الذهبى فى آخر ترجمته : أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ، وقال : قرأ عليه عبد الله بن كثير .

وإذا كان الثورى يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، فليس معنى هذا أن نأخذ كل ما نُسبَ إلى مجاهد ، فإن مجاهدًا كغيره من الرواة الذين نُقِلَ عنهم ، وقد يكون من النقلة عنه الضعيف الذى لا يوثق به ، فلا بد من التحرى وثبوت سلامة السند ، شأنه فى ذلك شأن ابن عباس فيما رُوِىَ عنه .

* * *

الطبرى

نسبه وحياته : هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير أبو جْعفر الطبرى ، الآملى الأصل ، البغدادى المولد والوفاة - ولد سنة ٢٢٤ هـ (أربع وعشرين ومائتين) ، وتوفى سنة ٣١٠ هـ (عشر وثلاثمائة) ، وكان عالمًا فَذا كثير الرواية ذا بصيرة بالنقل والترجيح بين الروايات ، وله باع طويل فى تاريخ الرجال وأخبار الأمم .

تصانيفه : صنَّف ابن جرير من الكتب : جامع البيان فى تفسير القرآن ، وتاريخ الأمم والملوك وأخبارهم ، والآداب الحميدة والأخلاق النفيسة ، وتاريخ الرجال ، واختلاف الفقهاء ، وتهذيب الآثار ، وكتاب البسيط فى الفقه ، والجامع فى القراءات ، وكتاب التبصير فى الأصول .

تفسيره : وكتابه فى التفسير « جامع البيان فى تفسير القرآن » أجَلُّ التفاسير وأعظمها ، وهو المرجع الأصيل للمفسِّرين بالأثر ، وابن جرير يورد التفسير مسنَدًا إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، ويتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، وقد أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلِّف فى التفسير مثله ، قال النووى فى « تهذيبه » : كتاب ابن جرير فى التفسير لم يُصنِّف أحد مثله ، ويمتاز ابن جرير بالاستنباط الرائع ، والإشارة إلى ما خَفِىَ فى الإعراب ، وبذلك كان تفسيره فوق أقرانه من التفاسير ، وأكثر ما ينقل ابن كثير عن ابن جرير .

* * *

ابن كثير

نسبه وحياته : هو إسماعيل بن عمر القرشى ابن كثير البصرى ، ثم الدمشقى ، عماد الدين أبو الفداء الحافظ المُحَدِّث الشافعى .

ولد سنة ٧٠٥ هـ (خمس وسبعمائة) ، وتوفى سنة ٧٧٤هـ (أربع وسبعين وسبعمائة) ، بعد حياة زاخرة بالعلم ، فقد كان فقيهًا متقنًا ، ومُحَدِّثًا بارعًا ، ومؤرخًا ماهرًا ، ومفسِّرًا ضابطًا ، قال فيه الحافظ ابن حجر : « إنه كان من مُحَدِّثى الفقهاء » ، وقال : « سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانْتُفِعَ بها بعد وفاته » .

تصانيفه : ومن تصانيفه : البداية والنهاية فى التاريخ ، وهو من أهم المراجع للمؤرخين ، والكواكب الدرارى فى التاريخ ، انتخبه من البداية والنهاية ، وتفسير القرآن ، والاجتهاد فى طلب الجهاد ، وجامع المسانيد ، والسنن الهادى لأقوم سنن ، والواضح النفيس فى مناقب الإمام محمد بن إدريس .

تفسيره : قال فيه السيد محمد رشيد رضا : « هذا التفسير من أشهر كتب التفسير فى العناية بما رُوِىَ عن مفسرى السَلَف ، وبيان معانى الآيات وأحكامها ، وتحامى ما أطال به الكثيرون من مباحث الإعراب ونكت فنون البلاغة ، أو الاستطراد لعلوم أخرى لا يُحتاج إليها فى فهم القرآن ، ولا التفقه فيه ، ولا الاتعاظ به .

ومن مزاياه العناية بما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فهو أكثر ما عرفنا من كتب التفسير سردًا للآيات المتناسبة فى المعنى ، ويلى ذلك فيه الأحاديث المرفوعة التى تتعلق بالآية وبيان ما يُحتج به منها ، ويليها آثار الصحابة وأقوال التابعين ومَن بعدهم من علماء السَلَف .

ومنها تذكيره بما فى التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات وتحذيره منها بالإجمال ، وبيانه لبعض منكراتها بالتعيين ، ويا ليته استقصى ذلك أو ترك إيراد ما لم تتوفر فيه داعية التمحيص والتحقيق » ا . هـ .

* * *

فخر الدين الرازى

نسبه وحياته : هو محمد بن عمر بن الحسن التميمى البكرى الطبرستانى الرازى فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعى الفقيه .

ولد بالرى سنة ٥٤٣ هـ (ثلاث وأربعين وخمسمائة) ، وتوفى بهراة سنة ٦٠٦هـ (ست وستمائة) - ودرس العلوم الدينية والعلوم العقلية ، فتعمق فى

المنطق والفلسفة ، وبرز فى علم الكلام ، وله فى هذا كله الكتب والشروح والتعليقات ، حتى عدوه من فلاسفة عصره ، ولا تزال كتبه مراجع هامة لمن يسمونهم بالفلاسفة الإسلاميين .

تصانيفه : ولفخر الدين الرازى تصانيف كثيرة ، منها : مفاتيح الغيب فى تفسير القرآن ، وتفسيره أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، وإحكام الأحكام ، والمحصل فى أصول الفقه ، والبرهان فى قراءة القرآن ، ودرة التنزيل وغرة التأويل فى الآيات المتشابهات ، وشرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وإبطال القياس ، وشرح القانون لابن سينا ، والبيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان ، وتعجيز الفلاسفة ، ورسالة الجوهر ، ورسالة الحدوث ، وكتاب الملل والنحل ، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين فى علم الكلام ، وشرح المفصِّل للزمخشرى .

تفسيره : وقد أثرت العلوم العقلية على الرازى فى تفسيره ، فمزجه بخليط من الطب والمنطق والفلسفة والحكمة ، وخرج به عن معانى القرآن وروح آياته ، وحَمَّل نصوص الكتاب ما لم تنزل له من مسائل العلوم العقلية واصطلاحاتها العلمية ، ففقد كتابه بهذا روحانية التفسير وهداية الإسلام ، ولذلك قال بعض العلماء : « فيه كل شيء إلا التفسير » كما ذكرنا آنفًا .

* * *

الزمخشرى

نسبه وحياته : هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمى الزمخشرى - وُلِدَ فى السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧ هـ (سبع وستين وأربعمائة) بزمخشر ، وهى قرية كبيرة من قرى خوارزم ، وتلقى العلم فى بلاده ، ورحل إلى بخارى فى طلبه ، وأخذ الأدب عن شيخه منصور أبى مضر ، ثم رحل إلى مكة وجاوَر بها زمانًا ، فقيل له : « جار الله » وبها ألَّف كتابه فى التفسير « الكشاف فى حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وتوفى الزمخشرى سنة ٥٣٨ هـ (ثمان وثلاثين وخمسمائة) ، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة ، ورثاه بعضهم بأبيات منها :

فأرض مكة تذرى الدمع مقلتها ... حزنًا لفُرقة جار الله محمود

علمه ومؤلفاته : والزمخشرى إمام من أئمة اللُّغة والمعانى والبيان ، وكثيراً ما يجد القارئ فى كتب النحو والبلاغة استشهادات له من كتبه للاحتجاج بها ، فيقولون : قال الزمخشرى فى كشافه ، أو فى أساس البلاغة ، وهو صاحب رأى وحُجة فى كثير من مسائل العربية ، وليس من هؤلاء النفر الذين ينهجون نهج غيرهم فيجمعون وينقلون ، ولكنه صاحب رأى يقتفى غيره أثره وينقل عنه ، وله تصانيف فى الحديث والتفسير والنحو واللُّغة والمعانى والبيان وغير ذلك ؛ منها : كتابه فى تفسير القرآن « الكشاف » ، والفائق فى تفسير الحديث ، والمنهاج فى الأصول ، والمفصَّل فى النحو ، وأساس البلاغة فى اللُّغة ، ورؤوس المسائل الفقهية .

مذهبه وعقيدته : والزمخشرى حنفى المذهب ، معتزلى العقيدة ، يُؤوِّل الآيات وفق مذهبه وعقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة ، ويسمى المعتزلة : إخوانه فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية .

تفسيره : وكتاب الكشاف للزمخشرى من أشهر كتب المفسِّرين بالرأى ، الماهرين فى اللُّغة ، وينقل عنه الآلوسى ، وأبو السعود ، والنسفى ، وغيرهم من المفسرين بدون نسبة إليه ، واعتزالياته فى التفسير قد تولى التنقيب عنها العلامة أحمد المنير ، وسماها بالانتصاف ، وفيها يناقش الزمخشرى فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة ويورد ما يقابلها ، كما يناقشه فى كثير من أبواب اللُّغة ، وقد طبعت المكتبة التجارية بمصر « الكشاف » طبعة أخيرة رتبها مصطفى حسين أحمد ، وذُيِّلَت بأربعة كتب ، الأول : « الانتصاف » السابق ، والثانى « الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف » للحافظ ابن حجر العسقلانى ، والثالث : « حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقى على تفسير الكشاف » كـ « الانتصاف » ، والرابع : « مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف » للمرزوقى المذكور - وقد ضمَّن تفسيره كثيراً من عقائد المعتزلة على طريق الإشارة ، وقد ذكرنا قبل ما نُقِلَ عن البلقينى أنه قال : استخرجتُ من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش .

* * *

الشوكانى

نسبه وحياته : هو القاضى محمد بن علىّ بن عبد الله الشوكانى ثم الصنعانى الإمام المجتهد ، ناصر السُّنَّة ، وقامع البدعة .

وُلِدَ سنة ١١٧٣ هـ (ثلاث وسبعين ومائة وألف) فى بلدة هجرة شوكان ، ونشأ بصنعاء ، فقرأ القرآن ، وأخذ يطلب العلم ، ويسمع من العلماء الأعلام ، وحفظ كثيراً من متون النحو والصرف والبلاغة ، والأصول وآداب البحث والمناظرة ، حتى صار إمامًا يُشار إليه بالبنان ، وظل مكبًا على العلم قراءة وتدريسًا إلى أن توفى سنة ١٢٥٠ هـ (خمسين ومائتين وألف) .

مذهبه وعقيدته : تفقه على مذهب الإمام زيد ، وبرعه فيه ، وألّف وأفتى ، وطلب الحديث ، وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربقة التقليد ، وصار مناصرًا للسُّنَّة ومناوئًا لأعدائها ، وكان يرى تحريم التقليد حتى ألَّف فى ذلك رسالة أسماها « القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد » .

مؤلفاته : له مؤلفات عديدة فى شتى الفنون منها تفسيره « فتح القدير » وشرحه « نيل الأوطار على منتقى الأخبار » للمجد ابن تيمية جد شيخ الإسلام ، وهو من خير ما كُتِبَ فى الحديث على أبواب الفقه ، وكتابه فى الأصول « إرشاد الفحول » وفتاواه المسماة بـ « الفتح الربانى » .

تفسيره : وفتح القدير للشوكانى تفسير يجمع بين الرواية والاستنباط وفقه نصوص الآيات ، اعتمد فيه على فحول المفسرين كالنحاس ، وابن عطية ، والقرطبى ، وهو متداوَل فى جهات كثيرة من أنحاء العالم الإسلامى .

وصلى الله على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

المراجـــع

١ - الإتقان فى علوم القرآن - للسيوطى .

٢ - الإصابة فى تمييز الصحابة - لابن حجر العسقلانى .

٣ - الأعلام - لخير الدين الزركلى .

٤ - إعجاز القرآن - للباقلانى .

٥ - البرهان فى علوم القرآن - للزركشى .

٦ - تفسير الطبرى « جامع البيان » - لابن جرير .

٧ - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير .

٨ - الكشّاف - للزمخشرى .

٩ - التفسير والمفسرون - لمحمد حسين الذهبى .

١٠ - تهذيب التهذيب - لابن حجر العسقلانى .

١١ - رسالة التوحيد - لمحمد عبده .

١٢ - الرد على المنطقيين - لابن تيمية .

١٣ - التدمرية - لابن تيمية .

١٤ - اقتضاء الصراط المستقيم - لابن تيمية .

١٥ - الإكليل فى التشابه والتأويل - لابن تيمية .

١٦ - العقل والنقل - لابن تيمية .

١٧ - أعلام الموقعين - لابن القيم .

١٨ - أقسام القرآن - لابن القيم .

١٩ - إعجاز القرآن - لمصطفى صادق الرافعى .

٢٠ - الوحى المحمدى - للسيد محمد رشيد رضا .

٢١ - القاموس المحيط - للفيروزآبادى .
٢٢ - مفردات غريب القرآن - للراغب الأصبهانى .
٢٣ - روضة الناظر - لابن قدامة .
٢٤ - فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت - لابن عبد الشكور .
٢٥ - المستصفى - للغزالى .
٢٦ - مناهل العرفان - للزرقانى .
٢٧ - مباحث فى علوم القرآن - لصبحى الصالح .
٢٨ - النبأ العظيم - لمحمد عبد الله دراز .
٢٩ - منهج الفرقان فى علوم القرآن - لمحمد على سلامة .
٣٠ - بلاغة القرآن - لمحمد الخضر حسين .
٣١ - مقدمة فى أصول التفسير - لابن تيمية .
٣٢ - كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون - لحاجى خليفة .
٣٣ - هدية العارفين - لإسماعيل البغدادى .
٣٤ - فى ظلال القرآن - لسيد قطب .
٣٥ - الفلسفة القرآنية - للعقاد .
٣٦ - رياض الصالحين - للنووى .
٣٧ - مقدمة ابن خلدون - لابن خلدون .
٣٨ - الأحكام - للآمدى .

* * *

محتويات الكتاب

٧ - نزول القرآن (٩٥ - ١١٣)

٨ - جمع القرآن وترتيبه (١١٤ - ١٤٧)

٩ - نزول القرآن على سبعة أحرف (١٤٨ - ١٦١)

١٠ - القراءات والقراء (١٦٢ - ١٨٤)

١١ - القواعد التي يحتاج إليها المفسر (٨٥ - ٢٠٤)

١٢ - الفرق بين المحكم والمتشابه (٢٠٥ - ٢١١)

١٣ - العام والخاص (٢١٢ - ٢٢٢)

١٤ - الناسخ والمنسوخ (٢٢٣ - ٢٣٧)

١٥ - المطلق والمقيد (٢٣٨ - ٢٤١)

١٦ - المنطوق والمفهوم (٢٤٢ - ٢٤٨)

١٧ - إعجاز القرآن (٢٤٩ - ٢٧٣)

١٨ - أمثال القرآن (٢٧٤ - ٢٨٣)

١٩ - أقسام القرآن (٢٨٤ - ٢٩٢)

٢٠ - جدل القرآن (٢٩٣ - ٢٩٩)

٢١ - قصص القرآن (٣٠٠ - ٣٠٥)

٢٢ - ترجمة القرآن (٣٠٦ - ٣١٥)

٢٣ - التفسير والتأويل (٣١٦ - ٣٢٠)

٢٤ - شروط المفسر وآدابه (٣٢١ - ٣٢٤)

٢٥ - نشأة التفسير وتطوره (٣٢٥ - ٣٤٩)

رقم الإيداع ٢٧٨٤/ ١٩٩٥
الترقيم الدولي I.S.B.N
997 - 225 - 069 - 1